

النظم القرآني في سورة الرعد

د. محمد بن سعد الدبل

أستاذ الدراسات العليا

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الطبعة الثانية

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

النظم القرآني في سورة الرعد

النظم القرآني

في

سورة الرعد

د. محمد بن سعد الدبل

أستاذ الدراسات العليا

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الطبعة الثانية

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

ح محمد سعد الدبل ، ١٤٣١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدبل ، محمد سعد
النظم القرآني في سورة الرعد / محمد سعد الدبل - ط٢ -
الرياض ، ١٤٣١ هـ

ص. ٤ . سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٠٠٥٠١٩-٢

١- القرآن - سورة الرعد - تفسير ٢- القرآن - التفسير الحديث
أ.العنوان ديوي ٢٣٧,٦
١٤٣١/٣٥٥٣

رقم الإيداع: ١٤٣١/٣٥٥٣

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٠٠٥٠١٩-٢

النظم القرآني في سورة الرعد



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

موضوع البحث - أهدافه - منهجه

مصادره - خطة البحث

النظم القرآني في سورة الرعد

النظم القرآني في سورة الرعد

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . والصلوة والسلام على سيدنا ونبينا محمد الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأنزل عليه كتاباً مبيناً بأفصح لسان وأعذب بيان .

ونسألك اللهم عوناً وتوفيقاً فيما نحن بصدده من النهوض بهذا العمل

العلمي في خدمة كتابك الكريم ، والكشف عن أسرار إعجازه . أما بعد :

فلقد تخيرت سورة الرعد لهذه الدراسة المتواضعة .

فمنذ عهد غير بعيد ، وأنا أحس أحساساً عجيباً ، بما ضمنه الله تعالى

هذه السورة الكريمة التي بسط فيها كثيراً من آياته الدالة على وحدانيته ،

وعظيم قدرته في ذلك الطراز العالي من جودة النظم ، وحسن السبك ، وروعة

التصوير ، وما اشتملت عليه من الوعد والوعيد ، ومن الترغيب والترهيب في

ذلك الأسلوب المحكم البديع .

ولقد كان إحساسي بهذه السورة صدى لإحساسي بالقرآن الكريم ،

ونموذجاً لما قر في قلبي من التعلق بكتاب الله تعالى .

وتوافرت الآمال في خدمة كتاب الله وجعلت تزداد يوماً بعد يوم ، منذ

تخصصت في الدراسات العربية ، ومنذ انحزت في دراساتي العليا إلى دراسة

البلاغة العربية وإلى علم الأدب ونقده .

وإذا هذه الآمال التي كانت أشبه بالحلم العميق اللذيذ تصبح بعون الله

وتوفيقه حقيقة ماثلة تطبع آثارها على هذه الكلمات التي سطرتها في هذا البحث .

ويعينني أن أذكر في هذا التقديم أن الموضوع الذي تخيرته للدراسة ، وهو سورة الرعد كان موضوعاً بكرةً لم تعرض له إلا كتب التفسير والتأويل في جملة ما تعرضت له من تفسير كتاب الله تعالى من أوله إلى آخره . بنهجها المؤلف الذي يكشف عن معاني الألفاظ ، واستخراج العبر والأحكام من آياته الشريفة . وعند مقاربتني إنجاز هذا البحث وقفت على كتاب ألفه الأستاذ . عبد الرحمن حسن حينكه الميداني ، ورأيت من واجبي قراءة هذا الكتاب الذي كان موضوعه . سورة الرعد ، وانتهيت من قراءته إلى البون البعيد بين منهجي في الدراسة وغايتها ، ومنهج صاحب ذلك الكتاب وغايته من تأليفه ، ذلك أنني عمدت إلى موضوع واحد ، ولكنه في الوقت نفسه موضوع كبير إذ هو تعمق في دراسة ((النظم القرآني)) والإبانة عما يمتاز به ذلك النظم العجيب في تلك السورة الكريمة في حين أن الكتاب المذكور توسع في الشرح والتفسير ، وأبان في عبارات موجزة عن البلاغة في هذه السورة .

أما المصادر التي استعنت بها فأهمها كتب التفسير على مختلف مناهجها وتباين رجالها، وأضفت إلى هذه المصادر ما وسعته ثقافتني اللغوية ، وثقافتني الأدبية ، والبلاغية التي حصلتها من الكتب المعدودة في هذا الشأن ، وما وقفت عليه من أعمال كبار العلماء ، وبالإضافة إلى ذلك استعنت بطائفة من المراجع الإضافية التي تتصل بموضوع بحثي . وقد أثبت جميع هذه المصادر والمراجع في ثبت مفصل في آخر هذه الدراسة .

النظم القرآني في سورة الرعد

أما المنهج الذي سرت عليه فإنه منهج تغلب عليه الدراسة الفنية الجمالية . التي تستثير الأذواق ، وتنتهي إلى الأحكام الفنية ، وبالإضافة إلى ذلك كان منهج الموازنة واحداً من المناهج التي ألزمتني بها طبيعة البحث .

وسيرى المتفحص هذه الدراسة أنها ألت بكثير من النواحي التي تتصل بنظم الكتاب الكريم ، وبأسرار الإبداع في مفرداته المختارة ، وتراكيبه المحكمة ، ثم معانيه الجليلة ، وما يمكن أن يستخلص منها من العبر .

فإذا وجد القارئ شيئاً يتصل بتفسير القرآن المجيد ، ومحاولة إدراك مقاصده الجليلة ، ومراميه الشريفة ، فإن ذلك لم يكن المرمى الذي نشطت له فإن هنالك من كتب التأويل والتفسير ما يستطيع أن ينهض بهذا الغرض .

وإنما كان جل قصدي إلى البحث عن النظم في أروع صورة في كتاب الله تعالى ، فإن كان للغة وألفاظها وتراكيبها حض غير قليل من العناية فإنها في حقيقتها ليست عناية لغوية بقدر ما هي عناية بالإمعان في النظر إلى كتاب الله وتدقيق لحكم آياته ، ومحاولة لإدراك سر الإبداع في الاستعمال القرآني للغة العرب ، وللتعرف على ما يمتاز به هذا الاستعمال البديع الذي تقصر البلاغة بحدودها المعروفة عن استيعابه ، والإحاطة بأطرافه ، وذلك ما بذلت فيه جهد الطاقة .

وكثيراً ما كان تذوقي للغة القرآن يغري بالمضي في الدراسة والإفاضة فيها ، وإذا أنا أمام خصم زاخر بآيات الإعجاب والإبداع التي تشحن الذهن

وتسحر القلب ، ولكن لكل شيء غاية ، ولكل أول نهاية ، فاجتزأت بما يسر الله في هذه الصفحات لعل في قليلها ما يغني عن الكثير الذي لا حدود له .

وقد اقتضت طبيعة الموضوع ، ومنهج دراسته أن يسير البحث على تنظيم هذا الجهد في تمهيد تناولت فيه مظاهر العناية بالدراسات القرآنية عند المسلمين قديماً وحديثاً ، ويتلو هذا التمهيد أربعة فصول هي لباب البحث على النحو التالي :

الفصل الأول : في معنى النظم ، ووجوه الإعجاز في الكتاب الكريم .

الفصل الثاني : عناصر التنظيم في سورة الرعد .

الفصل الثالث : التصوير البياني في سورة الرعد .

الفصل الرابع : خصائص التنظيم في سورة الرعد وغيرها من سور القرآن

الكريم .

وأنهت الدراسة بخاتمة أوجزت فيها خلاصة الجهد الذي بذلته سائلاً

الله تبارك وتعالى ، التوفيق والسداد فهو نعم المولى ونعم النصير .

محمد بن سعد الدبل

الرياض ١ / ١ / ١٤٠١ هـ

تمهيد

الدراسات القرآنية
ومظاهر العناية بها قديماً وحديثاً

النظم القرآني في سورة الرعد

القرآن الكريم كتاب الله ومعجزة نبيه وهو المنبع الأول لجميع الأعمال التي تتصل بالعقيدة الإسلامية ، وأحكام الشريعة بما يدخل فيها من العبادات والمعاملات وما يتصل بنظام الأسرة والمجتمع ، وحق الفرد على الجماعة . وواجبة نحو نفسه ، ونحو غيره ممن يحيا بينهم ، وكل ما يتصل بمبادئ الأخلاق وقواعد السلوك وسائر الفضائل التي تميز الإنسان على كل ما خلق الله ، وترفعه على غير درجات ، وعلى الجملة فإن القرآن الكريم هو جماع العقيدة والعبادة والفضائل وكل ما يتصل بتوجيه البشر نحو الغاية المثلى التي يتطلعون إليها وهي السعادة التي ينشدها الناس في الحياة الدنيا والآخرة .



وقد كان الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم إمام هذه الأمة القائد والقدوة الحسنة والمعلم الأول الذي اقتدى به المسلمون فحاكوه في الفضائل التي جملة بها ربه ، وفي العمل بالأحكام التي نزلت بها شريعته وفي كل ما يحتاجون إلى إدراكه ومعرفته من أسباب الهداية إلى سبيل الرشاد . وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحي فكان القرآن هو الإمام الذي يأتهم به المسلمون ويرجعون إليه في كل أمر فيه صلاح لعاشهم ومعادهم ، رجع المسلمون إلى كتاب الله يحاولون إدراك ما خفي عليهم من مقاصدهم ومراميهم ، ويستخرجون منه أصول عقيدتهم وأحكام دينهم ويبحثون في طبيعة القرآن للوقوف على أسرار عظمتهم وأسباب إعجازه فقد عرفوا أنه

المعجزة الكبرى لنبيهم صلى الله عليه وسلم ، وكذلك التمسوا من القرآن أفصح ما عرف من لغة العرب في مفرداتها وتراكيبها ، وفي مظاهر الإبداع التي يختص بها الفن الأدبي الذي برعوا فيه منذ كانت لهم حياة على وجه الجزيرة.

ولذلك كان الكتاب الكريم قبلة الفقهاء ، وكان إدراكه غاية أهل التفسير والتأويل ، وكان جماله وتفوقه البياني مجال بحث البلغاء والناقدين وكانت مثله العليا في المعاملة والأخلاق والسلوك مجالاً للمفكرين من علماء الأخلاق وعلماء الاجتماع ، ونجتزي في هذا المقام بتلك الكلمات القصيرة التي جعلت القرآن الكريم يجذب إليه عقول العلماء والمفكرين في كل واد من أودية الفكر وتستثير أذواق القادرين على تذوق فنون الكلام والموازنة بين روائعه ليخلصوا إلى الغاية التي ينشدونها ، وهي إثبات إعجاز الكتاب الكريم .

ويعيننا في هذا المقام أن نشير إلى هذه العناية الكبرى بالقرآن لم تنقطع طوال ذلك الزمن منذ أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمننا وستظل تلك العناية موصولة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فإن أسرار ذلك الكتاب لا تنفذ وكنوزه المخبئة لا تنتهي ، وستظل الإنسانية تفتش في ذلك الكنز لتستخرج منه كل يوم جديداً يغذي العقول ويهز المشاعر ، ويثير الأذواق ، ومن الطبيعي أن تخلف تلك الجهود الموصولة التي بذلها العلماء والعارفون في خدمة كتاب الله تعالى تراثاً حياً يعز على الإحصاء ففي حقل

النظم القرآني في سورة الرعد

التفسير تزخر المكتبة القرآنية بأبحاث الكتب التي منها ما أظهر عناية خاصة بشرح آيات الذكر الحكيم وما يعرض فيها من معنى لفظ أو بيان عظيمة أو سرد خبر . كتفسير بن كثير والراغب الأصفهاني في مفردات القرآن وغيرهما .

ومنها ما اختص بذكر أسباب النزول وبيان النسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والمطلق والمقيد والمكي والمدني وتفسير آيات الأحكام . وبيان أنواع القراءات عند من عني بضبط لغات القرآن وتحريير كلماته ومعرفة مخارج حروفه .

ومن العلماء من اهتم بالنواحي الإعرابية كمحب الدين أبي البقاء العكبري وفي وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن ، وابن خالويه في كتاب ((إعراب ثلاثين سورة من القرآن)) ومنهم من وجه عنايته إلى التفسير البلاغي كالزمخشري في ((الكشاف)) وعبد القاهر الجرجاني ، والقاضي الباقلاني في مسألة النظم ودلائله .



وكان من أبرز ما عنيت به الدراسات القرآنية قديماً البحث في البيان والإعجاز حتى كان القول في البيان مندرجاً تحت القول بالإعجاز . يقول أبو هلال العسكري في كتابه ((الصناعتين)) : ((وقد علمنا أن الإنسان إذا اغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما

خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التراكيب وما شحنه به من الإنجاز
البديع والاختصار اللطيف ...)).

((وقد كان البيان وهو من أقدم علوم البلاغة وكان اسمه يطلق على
ما يراد منها جميعاً متأثراً في نشأته وتطوره إلى حد بعيد بهذا العامل الديني
الجديد . فهو بذلك معدود من حملة العلوم الإسلامية لإبرازه ما في القرآن
الكريم . وهو كتاب العقيدة الإسلامية وآيتها المعجزة . من وجوه الجمال التي
يمتاز بها عن سائر كلام البشر))^(١) .

ولذا تجرد العلماء للعناية بتلك الظاهرة ووسعوا مجال البحث فيها
نلاحظ ذلك فيما تناوله بعضهم وخصه بالبحث والتأليف كالذي في ((تأويل
شكل القرآن لابن قتيبه)) ت ٢٧٦ هـ ((وحجج النبوة)) للجاحظ ((ت ٢٥٥ هـ))
وتناوله المفسرون كالذي في ((جامع البيان للطبري)) ((ت ٣١٠ هـ)) ومجاز
القرآن لأبي عبيدة ((ت ٢٠٨ هـ)) ومعاني القرآن للضراء))^(٢) .



وهناك نشاط ملحوظ في دراسة بلاغة القرآن الكريم فقد بذل العلماء
جهوداً كبيرة في التعرف على بلاغة كتاب الله ((ولم يكن اهتداؤهم إليها أمراً
يسيراً فهم قد اعترفوا أن وجوه البلاغة في القرآن يصعب تحديدها لكن هذه

(١) البيان العربي للدكتور بدوي طبا نه ص ١٨ ، ٢٠ ط الرابعة .

(٢) الإعجاز البياني لبنت الشاطئ ص ١٥ ط دار المعارف بمصر

النظم القرآني في سورة الرعد

الصعوبة لم تمنعهم من محاولة استنباط ما استطاعوا استنباطه من وجوه البلاغة القرآنية حتى اهتموا إلى معرفة الكثير من نواحي الحسن في القرآن والخصائص التي يمتاز بها سواء كان ذلك من ناحية النظم والتأليف أم كان ذلك من ناحية المرامي والأغراض . نلمس تلك الجهود عند الكثير من الخبراء لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ((ت ٣٨٦ هـ)) وبيان إعجاز القرآن ((للخطابي)) ((ت ٣٨٨ هـ)) الذي عالج فيه موضوع البلاغة بذكر الأقسام الثلاثة للكلام المحمود . مقررًا أن بلاغة القرآن قد أخذت من كل قسم حصة ومن كل نوع شعبه ، مناقشاً بعض وجوه البلاغة القرآنية إذ يقول :

((وأما ما عابوه من الحذف الاختصار في قوله سبحانه ﴿وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سِيرَت بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾^(١) فإن الإيجاز في موضعه وحذف ما يستغنى عنه الكلام نوع من أنواع البلاغة وإنما جاز حذف الجواب في ذلك وحسن لأن المذكور فيه يدل على المحذوف والمسكوت عنه من جوابه ولأن المعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به والحذف في مثل هذا بلغ من الذكر لان النفس تذهب في الحذف كل مذهب^(٢) وحصص الأمثلة والوجوه البلاغية في كتاب الخطابي قد يخرج بنا إلى الاستطراد ولذا سنرجئه إذ

(١) سورة الرعد الآية ٣١ .

(٢) بيان إعجاز القرآن الخطابي من ٤٧ تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ط د . م بمصر

سيأتي الكلام على رأيه مفصلاً عند الحديث عن النظم وأنه وجه من وجوه الإعجاز .

والنظم من صميم الأبحاث البلاغية التي أولاهها العلماء عناية فائقة وفي الذروة منهم عبد القاهر الجرجاني ((٤٧١ هـ)) أو ((٤٧٤ هـ)) الذي استقى من جميع الينابيع التي سبقته واستنار بآراء الذين كتبوا قبله في إعجاز القرآن وبلاغته ولم يكن مقلداً لمن سبقه أو عاصره ، ويعد كتاباه ((أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز)) من أمهات الكتب المبتكرة العميقة في الدراسات البلاغية وخاصة فيما يتعلق ببلاغة القرآن وفصاحته والقول في فكرة النظم . تلك الفكرة التي أكدها عبد القاهر ونادى بها وفلسفها بأسلوبه المنطقي وبفكره الواعي مما لأنجد مجالاً لتفصيله في هذا المدخل الموجز .

وقد تناول عبد القاهر في كتابيه كثيراً من الموضوعات والأبواب البلاغية وعالج مسائلها وقضاياها ، وعنى بالمعاني ومكانتها في أي عمل أدبي وهو بذلك يكشف عن أسرار بلاغة القرآن وأسباب إعجازه . وليس في الإمكان أن نحصي المسائل البلاغية والأدلة القرآنية التي ساقها هذا العالم وفي ثنايا دراسته القيمة . وسندكر بعض الأمثلة له عند الحديث عن النظم وأنه وجه من وجوه الإعجاز . والذي يهمننا في هذه العجالة هو اهتمام عبد القاهر وعنايته القصوى بالبلاغة والإعجاز القرآني التي كانت ذروة لجهود الأعلام من العلماء الذين سبقوه فعنايته قائمة على تحليل النص والكشف عن أسرار

النظم القرآني في سورة الرعد

ولطائفه والاستشهاد عليه من كلام أئمة البلاغة العربية نثرها وشعرها حتى
عدت طريقته الطريقة التحليلية النفسية التي تسمو بالذوق في مدارج البلاغة
وفن القول



ومن جملة من عني بالدراسات البلاغية القرآنية الإمام فخر الدين الرازي
(ت ٦٠٦ هـ) في كتابه ((نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)) (وهذا الكتاب
واضح التأثير بما كتب عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز وأسرار
البلاغة، ومن الممكن القول بأن الدراسة . المستفيضة والبحث المبسوط في هذين
الكتابين اختصر في هذا الكتاب .

وأكثر ما كتبه الرازي في خطبته في فضل علم البيان وأثره في الأدب في
إثبات إعجاز القرآن منقولاً نقلاً يكاد يكون حرفياً مما كتب الجرجاني في
مقدمة أسرار البلاغة كما أن أسلوب عبد القاهر وأفكاره في الأدب والبيان
واضحة كل الوضوح في المباحث التي عالجهما الكتاب ، وفي هذه الخطبة أشاد
الرازي بجهود عبد القاهر في علم البيان فهو الذي استخراج أصول هذا العلم
وقوانينه ورتب حججه وبراهينه وبالغ في الكشف عن حقائقه والفحص عن
لفظه ودقائقه وصنف في ذلك كتابين لقب أحدهما بدلائل الإعجاز والثاني
بأسرار البلاغة وجمع فيهما من القواعد العربية والدقائق العجيبة والوجوه
العقلية والشواهد النقلية واللطائف الأدبية والمباحث العربية ما لا يوجد في

كلام من قبله من المتقدمين ولم يصل إليها غيره من العلماء الراسخين ، ولا يؤخذ عليه إلا أنه أهمل رعاية ترتيب الأصول والأبواب وأطنب في الكلام كل الإطناب ، ويعترف بأنه التقط من الكتابين معاهد فوائدهما ومقاصد فوائدهما غير أنه راعى الترتيب مع التهذيب والتحرير مع التقرير وضبط أوابد الإجماليات في كل باب بالتقسيمات اليقينية وجمع متفرقات الكلم في الضوابط العقلية من الاجتناب عن الأطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل^(١) .



وكذلك تأثر ابن الزمكاني ((ت ٦٥١ هـ)) في كتابه ((التبيان في علم البيان)) المطلع على إعجاز القرآن ((بعد القاهرة وكتابه دلائل الإعجاز الذي وصفه ابن الزمكاني بأنه جمع فأوعي وأنه فك قيد الغرائب بالتقييد ، وهدم سور العضلات بالتسوير المشيد حتى عاد أسهل من النفس ..)) ثم يأخذ ابن الزمكاني على كتاب عبد القاهر بأنه وأسع الخطو كثيراً ما يكرر الضبط ، فقيد للتبويب طريد من الترتيب يمل الناظر ويعشي الناظر والمتأمل يلحظ التناقص الواضح في أسلوب ابن الزمكاني فهو أسلوب مصنوع نقض في آخره ما بنى في أوله ليجد ذريعة إلى هذا التأليف الذي سهل الله تعالى جمع مقاصده

(١) انظر البيان العربي للدكتور بدوي طياته ص ٣٣٤، ٣٣٥ ط الرابعة .

النظم القرآني في سورة الرعد

وقواعده وضبط جوامحه وطواره ، مع فرائد سمح بها الخاطر وزوائد نقلت من الكتب والدفاتر .

وينضح لنا أن دلائل الإعجاز هو أصل كتاب التبيان بزيادة مما سمح به

الخاطر ، وما نقل من الكتب والدفاتر^(١)

على أن هذين الكتابين لم يبلغ واحد منهما ما بلغ عبد القاهر في كتابه :

((لأن الرازي وابن الزمكاني اتجاهاً قاعدياً جافاً فأبعداً البلاغة العربية عن

طريقها الطبيعي الذي يقوم على التذوق وتنبيه الإحساس إلى أسرار الجمال في

فن القول ومكنا لهذا الاتجاه الذي غلب على بلاغة المتأخرين فأحالتها إلى

قواعد تحفظ وأقسام تحصي .



وللقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى ((سنة ٤٠٣ هـ)) أثر

جليل يدل على حذق الباقلاني للبيان والبلاغة القرآنية . ذلك الأثر هو

كتابه ((إعجاز القرآن)) الذي أفاض القول فيه عما يوجه إلى القرآن من

المطاعن التي يريد بها أصحابها الغض من شأن الآية الكبرى للنبوة المحمدية ،

مع ذكر المؤلف جملة من وجوه إعجاز القرآن عند بعض العلماء ويعيننا في

هذه العجالة اهتمام الباقلاني وعنايته بالدرس البلاغي للقرآن الكريم فقد

أفاض في الحديث عن بدائع القرآن وساق الأمثلة من آياته وعني بمعالجة فكرة

(١) المصدر السابق من ٣٥٦ .

النظم في كثير من الآيات بل طبقها على سورتين كاملتين هما سورتا غافر وفصلت .

إلى غير ذلك من الآثار عند القدماء التي خدمت القرآن وكشفت عن أسرار إعجاز وبلاغته ((كالجمان في تشبيهات القرآن لابن نايقا البغدادي ((ت ٤٨٥ هـ)) وبدائع القرآن وتحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري ((ت ٦٥٤ هـ)) وكتابه بديع القرآن ((كتاب فريد في بابيه حيث جاء في فترة سبقها نضج في الدراسات القرآنية ، فحاول ابن أبي الإصبع أن يفيد من جهود سابقيه ويجعل من كتابه مادة تطبيقية لآيات القرآن على ما عرفه من فنون البيان والبديع))^(١)

وقد توافرت الدراسات القرآنية وهي في ماهيتها معين لا ينضب تستقي أمثلتها وشواهدا من القرآن الكريم وآثار السابقين ((كالصناعتين لأبي هلال العسكري ((ت ٣٩٥ هـ)) وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي والمثل السائر لابن الأثير والطراز للعلوي .

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نجمل مظاهر العناية بالدراسات القرآنية عند القدماء فيما يلي :

١- ((إن المتكلمين اتخذوا دراسة البيان أساساً اعتمدوا عليه في دراسة إعجاز القرآن وفهم معانيه ومعرفة أحكامه ، وطرق الاستدلال بأساليبه وتعابيره على إثبات الإعجاز والرد على منكريه أو المتشككين فيه .

(١) المصدر السابق ص ٥٥ ، ٦٦

النظم القرآني في سورة الرعد

٢- إن هذه الدراسات لم تقتصر على الناحية اللفظية وحدها ولا على الناحية المعنوية وحدها ، بل هي دراسة موضوعية لا تقف عند النظرة الكلية التي تلقي فيها الأحكام عامة ، دراسة واسعة عميقة تتناول الأسلوب بأوسع معانيه فتدرس اللفظ مفردا ، وتتناول الجملة ونظم العبارة كما تتناول دلالة اللفظ ودلالة العبارة على المعنى .

٣- أن أصحاب هذه الدراسات نهجوا فيها منهجاً موضوعياً جديداً يعتمد اعتماداً كبيراً على أسلوب الموازنة بين النصوص الماثورة وبين الأسلوب القرآني .

٤- أنهم جددوا في دراسة البيان العربي بما استخرجوه من القرآن الكريم من فنون بيانية رائعة أضافوها إلى جهود من سبقهم وكانت دراسة عملية يشار فيها جانب العقل والتفكير ، وتستثار ملكة الملاحظة وتدرب المواهب حتى كانت دراساتهم صورة حية للدقة في التفكير ، والدقة في التعبير ثم طبقوا هذه المعارف على آيات الكتاب الحكيم تطبيقاً يشهد لهم بالذوق المستنير والإدراك الكامل^(١)



وكما فاضت مكتبة الدراسات القرآنية بأثار السلف سارت الطبقة التي خلفتهم في ذلك الطريق الذي رسموه ، فرأينا لفيماً من العلماء في العصر

(١) المصدر السابق ص ٧١ ، ٧٢

الحديث يجردون أنفسهم ويسخرون أقلامهم لخدمة تلك الدراسات التي نشأ عنها صرح جديد في الدراسات القرآنية . وعلى الرغم من أن جهود المعاصرين في ذلك تعدا امتداداً لما خلفه أسلافهم فإن ما أضافوه لا يعدم روح التفكير السليم والذوق الرفيع ، ومن جملة تلك الدراسات المعاصرة على سبيل المثال لا الحصر: كتاب ((إعجاز القرآن)) للمرحوم مصطفى صادق الرافعي الذي درس فيه إعجاز القرآن وبلاغته دراسة موضوعية تناول فيها الإطار والمضمون لآيات الكتاب الكريم مبيناً سمو المعنى في كل آية يسوقها وشدة تألف الحروف وانسجامها مع كل لفظة تبني عليها . وأمثلة ذلك الجهد قارة في موضوعها من الكتاب .

وهناك أثر جليل من آثار الدراسات القرآنية المعاصرة للمجاهد الشهيد سيد قطب وهو تفسيره ((في ظلال القرآن)) الذي نهج فيه منهجاً أدبياً رائعاً . وفسر جميع سور القرآن على نمط رفيع من الأسلوب وكذلك كتاباه : التصوير الفني في القرآن ، ومشاهد القيامة في القرآن .

ولنقف قليلاً من كتابه ((التصوير الفني في القرآن)) إذ موضوعه وثيق الصلة ببحثنا هذا ، إن طريقته في هذا الكتاب طريقة تقوم على التحليل لنصوص الآيات واستخراج عناصر الجمال فيها والجمع بين البلاغة والنقد إذ يقول في فصل منه تحت عنوان ((كيف فهم القرآن)) : ((أخذ التفسير ينمو ويتضخم ابتداء من أواخر القرن الثاني للهجرة ولكن هذا النمو بدلاً من أن

النظم القرآني في سورة الرعد

يبحث عن الجمال الفني في القرآن وتناسقه مع الجمال الموضوعي البالغ حد الكمال ، أخذ يغرق في مباحث فقهية وجدلية ونحوية وصرفية وتاريخية وأسطورية ! وبذلك ضاعت الفرصة التي كانت مهياة للمفسرين لرسم صورة واضحة للجمال الفني في القرآن وربطها بالكمال الموضوعي الذي يتجلى فيه)).

ثم يسوق الأمثلة من القرآن موضحاً فيها طريقة التعبير والتصوير منحياً باللائمة على السابقين الذين صرفوا جهدهم عن استخراج عناصر الجمال في التعبير القرآني فيقول : ((انظر إلى التعبير الجميل في قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَجْرُمُونَ نَاكِسُو أُرُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ هذا التعبير الذي يرسم صورة حية للخي في يوم القيامة ويصور هؤلاء المجرمين شخوصاً قائمة تكاد تبصرها العين لشدة وضوحها وتسجيل هياتها ((نَاكِسُو أُرُوسِهِمْ)) وعند من ؟ عند ربهم)) ثم هذه الصورة للهول لا تساوي من باحث بلاغي إلا أن يقول : ((وأصل الخطاب أن يكون لمعين وقد يترك إلى غير معين وهو في القرآن كثير كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَجْرُمُونَ نَاكِسُو أُرُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وتستمر التعبيرات المتداولة عن قوم إلى قوم آخرين حول هذا الشاهد وأشباهه من القرآن الكريم . ((وتطوي تلك الصورة الفنية الحية وتنتهي عند العلماء البلاغة إلى القول : ((تضعيفاً لحالهم التي تناهت في الظهور^(١) ويمكن القول : بأن تفسير سيد قطب وكتابه التصوير الفني ومشاهد القيامة كلها تنبع من روح واحدة

(١) انظر تحليل الآية في التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ٢٨٠ .

وتتجه وجهه واحدة في العناية بالدرس القرآني هي الوصول إلى فهم الصورة الضمنية في القرآن)) .

وبين أيدينا كتاب قيم يعد من المؤلفات الجلييلة النفع في الدراسات القرآنية المعاصرة ذلك هو كتاب ((النبأ العظيم)) للدكتور محمد عبد الله دراز . وهو نظرات جديدة في القرآن الكريم عالج فيها المؤلف بلاغة القرآن وإعجازه وتناول كغيره من الباحثين اللفظة القرآنية والتراكيب واستخراج الأسرار البلاغية في القرآن كالذي نجده في قوله : ((دع عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية إنها ((مقحمة)) وفي بعض حروفه إنها ((زائدة)) زيادة معنوية ودع عنك قول الذي يستخف كلمة ((التأكيد)) فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة أجل دع عنك هذا وذالك فإن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها إنما هو ضرب من الجهل مستوراً أو مكشوفاً بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن وخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسرار البيانية وقل قولاً سديداً هو أدني إلى الأمانة والإنصاف ^(١)

ويمضي المؤلف متحدثاً عن القرآن الكريم في بعض من آياته وسوره ثم يتوج بحثه بحديث مفصل عن سورة البقرة .

ومن جملة الدراسات القرآنية المعاصرة كتاب ((البيان العربي)) للدكتور بدوي طبا نه . وهو دراسة في تطوير الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها

(١) انظر البيان العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٣٠ ، ١٣١ ط الثالثة ١٣٩٤ هـ مطبعة الكويت

النظم القرآني في سورة الرعد

ومصادرها الكبرى .تناول فيه المؤلف بعض الآثار في الدراسات البلاغية قديماً وحدثياً وخصه بحديث مفصل عن القرآن الكريم تحت عنوان ((البيان والإعجاز)) وتناول بالعرض والتحليل بعض مناهج الدراسات البلاغية مقررًا ((أن القرآن الكريم على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة ، يجعل المختلف كالمؤلف ، والمتباين كالمتناسب والتنافر في الأفراد إلى حد الأحاد ، وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف^(١))).

كما بين المؤلف مدى اهتمام الباحثين بالدراسات القرآنية فيما يتعلق بالقرآن كلمة كلمة وجملة جملة مع ضرب الأمثلة ومناقشتها . وأن القول بأعجاز القرآن كان هو البذرة التي غرسها العلماء فأخرجت دوحة وارفة الظلال في تاريخ التفكير الإسلامي والعربي تتمثل في علوم البلاغة.

ومن بين كتب الدراسات القرآنية المعاصرة كتاب ((من منهل الأدب الخالد)) لمحمد المبارك الذي يعتبر دراسة لاستجلاء بعض الأسرار البلاغية في القرآن ، وكتاب التفسير البياني لبنت الشاطئ وكتاب من بلاغة القرآن للدكتور احمد احمد بدوي ونكتفي بذكرها منعاً للاستطراد ولأنه سيأتي الحديث عن بعضها وعن غيرها مما سبق ذكره حين تعرض الحديث عن النظم وأنه أحد وجوه الإعجاز .

(١) انظر البيان العربي للدكتور بدوي طبا نه ص ٦١ ط الرابعة .

ويمكن تلخيص عناية الباحثين في الدراسات القرآنية الحديثة فيما يلي :

١- اتجاه هم المعاصرين إلى جميع ما قيل في الإعجاز من أقوال السابقين بطريقة فذة في التناول والعرض والبرهنة والاحتجاج والجدة في المناقشة .

٢- أن معظم هذه الدراسات جمعت بين الدراسة النظرية بتتبع أقوال السابقين وبين الدراسة التطبيقية بأستعراض آيات الذكر الحكيم وتحليلها واستخراج عناصر الجمال الفني فيها .

٣- إن هذه الجهود جمعت بين النقد والبلاغة وبيّضت أسرار القرآن البلاغية التي أغفلها السابقون وإدامة النظر في وحدة القرآن الفنية كما في التصوير الفني ومشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب .

٤- إلحاح المعاصرين في دراساتهم القرآنية على ذكر آيات التحدي ودراساتها دراسة فنية تحليلية ، وإدامتهم النظر في فكرة النظم وما يختص منها بنظم القرآن وتجليتهم هذه الفكرة في كثير من الآيات ، وعنايتهم الفائقة بتحقيق التراث القرآني وجمع بحوثه المتفرقة .



النظم القرآني في سورة الرعد

الفصل الأول معنى النظم

الفصل الأول

معنى النظم

- ١ -

القرآن الكريم نور الله في الأرض . والمعجزة الخالدة للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم تحدى به العرب قاطبة ، ومفهوم المعجزة أنها : أمر خارق للعادة خارج عن طوق البشر مقرون بالتحدي سائم من المعارضة . يظهره الله على يد رسله ، وأنها : أمر خارج عن حدود الأسباب المعروفة يؤيد الله بها من يصطفيه من عباده لحمل رسالته إلى البشر ، لتكون شاهداً على صدقه .

وقد أودع الله في كتابه الكريم كل ما فيه صلاح أمر الآدميين وما ينفعهم في معاشهم ومعادهم ، فكان طبيعياً أن يشتمل على وجوه كثيرة في الإعجاز . وقد أكثر العلماء والدارسون . من البحث عن وجوه إعجاز القرآن وخلصوا تراثاً ضخماً يشتمل على ما اهتموا إليه من هذه الوجوه ، منهم من زاد ومن نقص ، ومنهم من قصر جهده على البحث في الدرس القرآني ليدمج الحجج الواهية فيما يوجه إلى القرآن الكريم من شبه ومطاعن في ألفاظ ومعانيه . وأحكامه وإعجازه . ولم يزل القرآن حياً متجدداً يفوق طاقة الدارسين .

والمتتبع لوجوه الإعجاز وآراء العلماء فيما يجد بعضها يتدخل أو يتقارب فمثلاً من عد غرابة الأسلوب وجهاً ، والفصاحة وجهاً ، والبلاغة وجهاً ثالثاً ،

والتأثير في السامعين وجهاً رابعاً نستطيع أن نجعل كل هذه الوجوه مما له علاقة بالأداء والبيان تحت وجه واحد هو الإعجاز البياني، وقل مثل ذلك في الغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلية إذ يجمعها الغيبي .

وفي استطاعتنا أن نجمع الوجوه التي ذكرها السابقون . وتناولها

اللاحقون بالبحث والزيادة تحت خمسة وجوه هي :

- ١- الإعجاز البياني .
- ٢- الإعجاز العلمي .
- ٣- الإعجاز الغيبي .
- ٤- القول بالصرفة .
- ٥- الإعجاز بالنظم .

وهذه نبذه سريعة عن كل وجه (*) :

الإعجاز البياني : وينتظم الأسلوب الفريد الذي يتميز به القرآن الكريم على سائر كلام البشر شعراً ونثراً ، بانتقاء الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير ، وقد تواضع العرب قديماً وحديثاً على أن للقرآن أسلوباً خاصاً به مغايراً للأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف حتى كان من خصائص هذا الأسلوب الفريد تعمه الطريقة التصويرية في التعبير ،

(*) يرى بعض العلماء المعاصرين . القول : بالإعجاز التشريعي ، وخصاله : أن القرآن دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الإنسانية علي أفضل صورة وأرق مثال ، وسيظل إعجازه التشريعي قريباً لإعجاز العلمي وإعجازه اللغوي إلي الأبد ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث في العالم أثراً غير وجه التاريخ .. راجع ذلك مفصلاً في مباحث في علوم القرآن لمناع القطان .

النظم القرآني في سورة الرعد

والتناسق بين المدلول والعبارة ، وارتفاع التفاوت في طبيعته الزاهية وثوبه القشيب ، وتلك الخصائص جديرة بالتأمل والتدبر لذا جعلها الله منارا على مصدر القرآن ومعلماً يستدل على كونه من عند الله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ .

وقد انتظم هذا الوجه من الفصاحة أعلاها ومن البلاغة أشرفها ، يقول الإمام الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) : ((إن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في نسبة البيان متفاوتة ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ومنها ومنها ... وهذه أقسام الكلام المحمود فحازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة فانتظم له بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة وكان منها آية بينة للنبي الكريم ودلالة واضحة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه ^(١))) .

الإعجاز العلمي : ((وقد سلك القرآن الكريم في هذا الوجه طريقة الاستدلال على خائق الكون ومنشئه استدلالاً فطرياً يتناسب مع جميع العقول والإفهام فتحدثت آية عن كل ما يحيط بالإنسان من عجائب هذا الكون تحدث عن الأرض والسماء ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وعن الجبال والبحار والرياح والنبات والحيوان ، وعن الإنسان نفسه ذلك الآدمي الذي يسخر تلك

(١) انظر إعجاز القرآن للخطابي ص ٧ ورسالة إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص ٨١ ، ٨٢ .

المخلوقات فيما يزود به معاشه بقدره الخائق الحكيم كما أشار القرآن إلى حقائق أმაط اللثام عن الحكمة من وجودها ، أشار إلى حقائق تارة بالتلميح ، وتارة بالتصريح ، ومرة بالإجمال ، وأخرى بالتفصيل ، وهو بهذه الطريقة لا يخرج عن هدفه الأساسي الذي هو هداية الناس إلى الصراط المستقيم فليس القرآن كتاب كيمياء أو كتاب فلک وطبيعة ولا ينبغي أن نتوقع منه أن يسوق لنا الحقائق العلمية مفصلة كاملة كما يفعل أي مرجع علمي مختص ، ولكنه يسوق الآيات الدالة على وجود الله تعالى طالباً التدبر والتفكر والإيمان :

((﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسٍ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ﴾))
﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِفٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾)) .

الإعجاز الغيبي : ووجهه اشتمال القرآن الكريم على أنباء الغيب مما كان خافياً على النبي صلى الله عليه وسلم ولم يشهد حوادثه ولم يحضر وقتها ، ولم يكن على علم بتفصيلات تلك الحوادث ولم يقرأ كتاباً في ذلك ، ويدخل في هذا المفهوم كل ما ورد في القرآن عن بداية نشأة الكون .. وما وقع وحدث منذ خلق الله السماوات والأرض حتى بعث الله في الأميين رسولا نعم ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير ، وكذلك يشمل ما غاب عن

النظم القرآني في سورة الرعد

النبي صلى الله عليه وسلم في وقته من الحوادث التي كانت تحدث ويخبر بها بطريق الوحي كإخبار الله له بما يدبره اليهود والمنافقون ، ويشمل الأخبار عن الأحداث في مستقبل الزمان وبالتالي يشمل غيب الماضي وغيب الحاضر . وغيب المستقبل فعن الأول يقول القرآن الكريم:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤١)

وعن الثاني يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهَوَّعْنَاهُ وَلَيُنْجَبُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذْ جَاءُوكَ خِيَوَكَ بِمَا لَمْ يَحِمْكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَنْسَسُ الْمُصِيرُ ﴾ (٤٢) وعن غيب المستقبل يقول تعالى :

﴿ أَلَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ ﴿١﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٢﴾ فِي بَعْضِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾

وقد حدث ما أخبر به القرآن الكريم . فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك وهزم الفرس في بضع سنين . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ممن حضر هذه الحرب وعرف سبب الغلب (١)

ومن وجوه الإعجاز عند بعض الفرق من أهل الكلام : القول بالصرفة فقد رافق القول بإعجاز القرآن الكريم ، بل كان هذا الرأي هو الباعث الأول للبحث

(١) انظر رسالة إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٧

في وجوه الإعجاز وأول من قال به وذهب إليه أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام فقد ((ذهب إلى أن الله سبحانه صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقاً للعادة)) .

وقال المرتضي من الشيعة إن معنى الصرف أن الله سلب العرب العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليحيثوا بمثل القرآن . فكان مراد المرتضي من هذا المعنى أن العرب بلغاء يقدرّون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني إذا لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم ^(١))) وما قاله بين الخلط لا قبل لعاقل به فإن العرب أهل علم بالفترة وليس غيرهم ممن أخذ عنهم بأقدر وأعمق في العلوم ولا بأوسع في التفكير . وهم المتحدون الأولون وغيرهم داخل في جملتهم بل التحدي لعلوم من خلق الله من الجن والإنس .



ومثل هذا الرأي قال به ابن سنان لخفاجي في كتابه ((سر الفصاحة)) إذ يقول : ((وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة

(١) انظر إعجاز القرآن للرافعي ص ١٦٢ ط الثامنة مطبعة الاستقامة القاهرة

النظم القرآني في سورة الرعد

بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهاى القرآن في تأليفه ^(١) .

والمتتبع لأقوال أهل الصرفة يلقي مذهبين أحدهما لطائفة تقول :

بصرف الإرادة والتوجه إلى المعارضة ولو توجه العرب لاستطاعوا معارضة القرآن


والثانية تقول بسلب العلوم ولو توجه العرب لما استطاعوا .


ونبرأ إلى الله سبحانه عن كل ما قالوا فجميع ما ذهبوا إليه محط

آراء فاسدة ونفوس خبيثة وعقول سقيمة لأتعرف إلا الجدل والمكابرة والعناد .

فكتاب الله سبحانه مفتوح الدفتين لمن أراد التدبر والتفكير لم يصرف

عن التبصر فيه أحد لكن من حدثته نفسه بمعارضته سيقضى العمر في طلب

المجال فالله سبحانه يقول :  ((قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا )) والقرآن كلام الله

العزیز الحكيم لا قوة خارقة ولا حكمة بالغة إلا له فثبت الإعجاز لعدم القدرة

الثقلين ونقص طاقتهم البشرية وسبحان من بيده ملكوت السماوات والأرض .

الإعجاز بالنظم : وهذا الوجه يجب أن نفصل القول فيه إذ هو محك

هذا البحث وصميمه . عارضين لطائفة من أقوال العلماء والمتكلمين ممن

تناوله بالبحث والدراسة .

ولا شك أن المتأمل في حروف القرآن الكريم وكلماته لا يجد فيها شيئاً

خارجاً عن المألوف المتداول في لغة العرب قديماً وحديثاً ، وعندما نتلوا آيات الله

(١) انظر رسالة في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص ٢٨٥ .

نشعر أن للعبارة القرآنية كياناً خاصاً يبني عليه تركيب الجملة لرسم معالم الصورة الفنية للنظم القرآني الفريد الذي لا يتفاوت ولا يتباين .

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾

وبعد هذه الإشارة إلى أهم الأقوال التي قيلت في وجوه الإعجاز نخلص إلى أنه ليس لباحث أن يقصر وجوه الإعجاز على ما ذكره السابقون ، فإن القرآن الكريم ((معجز في تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره الإنساني ومعجز كذلك في حقائقه ، وهذه وجوه عامه لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء فهي باقية ما بقيت ^(١))) .

وإذ قد وعدنا سلفاً بتفصيل القول في الإعجاز بالنظم وعرض لطائفة من أقوال العلماء في ذلك فلنتبين مفهوم ((كلمة النظم)) واستعمالها عند أصحاب اللغة وعند علماء البلاغة والأدب والمتكلمين وبعدها نشير إلى ما ذكرنا .

- ٢ -

إذا تتبعنا مادة ((نظم ومشتقاتها في معاجم اللغة وجدنا أن العرب استعملت هذه المادة في معنى التأليف وما يراد به ، فقد جاء في ((لسان العرب)):

١- النظم : التأليف - نظمه ينظمه نظماً ونظاماً ، ونظمه فانظم وتنظم

(١) انظر إعجاز القرآن للرافعي من ص ١٧٥ الطبعة الثامنة - مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

النظم القرآني في سورة الرعد

٢- ونظمت اللؤلؤ: أي جمعته في السلك والتنظيم مثله ، ومنه نظمت

الشعر وتنظمنه الأمر على المثل

٣- وكل شيء قرنته بأخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته .

٤- النظم : المنظوم وصف بالمصدر .

٥- النظم : ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما واجدته نظمه .

٦- ونظم الحنظل : حبه في صيغته^(١)

٧- النظام : ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره ، ونظام كل أمر ملاكه

والجمع انظمه وأناظيم ونظم .

٨- النظم : نظمك الخرز بعضه إلى بعض في نظام واحد كذلك هو في

كل شيء حتى يقال : ليس لأمره نظام أي لا تستقيم طريقته .

٩- النظام : الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ وكل خيط ينظم به اللؤلؤ فهو

نظام وجمعه نظم قال الشاعر :

• مثل الفريد الذي يجري من النظم^(٢) .

١٠- الانتظام : الأنساق ، وفي حديث أشراف الساعة ((وآيات تتابع

كنظام بالقطع سلكه))

١١- النظام : العقد من الجوهر والخرز وغيرهما وسلكه وخيطه .

(١) الصيغاء : حب الحنظل الذي ليس في جوفه لب . انظر لسان العرب ص ٥١ ج٧

(٢) النظم : جمع نظام والنظام الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ . لسان العرب ص ٥٧٨ مادة نظم .

١٢ - النظام : الهدية والسيرة . ومنهم ليس لأمرهم نظام أي ليس له هدى

ولا متعلق ولا استقامة ، وما زال على نظام واحد أي عادة .

١٣ - تناظمت الصخور : تلاصقت .

١٤ - والنظامان من الضب : كشيتان منظومتان من جاني كليتيه

طويلتان .

١٥ - ونظاما الضبة وأنظاماها : كشيتان وهما خيطان منتظامان بيضا

بييدا جنببها من زنيها إلى أذنها ، ويقال : في بطنها أنظامان من بيض

وكذلك أنظاما السمكة حكي عن أبي زيد ((أنظومتا الضب

والسمكة)) وقد نظمت ونظمت بالشديد ، وانظمت وهي ناظم ومنظم

ومنظم ذلك حين تمتلئ من أصل ذنبها بيضا . ويقال نظمت الضبة

بيضا تنظيما في بطنها ونظمتها نظاماً وكذلك الدجاجة أنظمت إذا

صار في بطنها البيض .

١٦ - والانظام : نفس البيض المنظم كأنه منظوم في سلك .

١٧ - والانظام : من الخرز خيط قد نظم خرزاً ، وكذلك أناطيم مكمن

الضبة .

١٨ - ويقال جاءنا نظم من جراد ، وهو الكثير .

١٩ - ونظام الرمل وأنظمته : صفرتة وهي ما تعقد منه

٢٠ - ونظم الحبل سكه وعقده .

النظم القرآني في سورة الرعد

٢١- ونظم الخواص المقل ينظمه شكه وظفره .

٢٢- والنظام شكائك الحبل وخلله .

٢٣- وطعنه بالرمح فانتظمة أي أختله .

٢٤- وانتظم ساقيه وجانبه كما قالوا : اختل فؤاده أي ضمها بالسنان

وقد روي :

• لما انتظمت فؤاده بالمطرده •

قال أبو زيد : ((الانتظام للجانبين والاختلال للفؤاد والكبد)) وقال

الحسن في بعض مواعظه : ((يا ابن آدم عليك بنصيبك من الآخرة فإنه يأتي

بك على نصيبك من الدنيا فتنظمه لك انتظاماً ثم يزول معك حيثما

زلت)) .

٢٥- وانتظم الصيد : إذا طعنه أو رماه حتى ينقده . وقيل : ((لا يقال

انتظمة حتى يجمع رميتين بسهم أو رمح)) .

٢٦- والنظم : الثريا على التشبيه بالنظم من اللؤلؤ . قال أبو ذؤيب :

فوردن والعيوق مقعد رابئ الظرباء فوق النظم لا يتتلع

٢٧- والنظم أيضاً : الديران الذي يلي الثريا ^(١) .

وأورد الزمخشري في أساس البلاغة :

١- نظم وانتظم رواه بسهم وطعنه فانتظم ساقيه أو جبينه قال الأفوه :

(١) لسان العرب المجلد الثاني عشر ص ٥٧٨ ، ٥٧٩ لأبن منظور طبعة دار صادر . بيروت .

تجلي الجماجم والأكف سيوفنا وربما حنا بالطعن تنظم الكلي

٢- وجاء نظم من جراد . ونظام منه صنف .

٣- ونظمت النخلة قبلت اللقاح ، وخردلت إذا لم تقبل

٤- نظم يقال نظمت الدر ونظمته ، ودر منظوم ومنظم ، وقد انتظم

وتنظم ، ويناظم . وله نظم منه ونظام ونظم ، ومن المجاز نظم الكلام .

وهذا نظم حسن . وانتظم كلامه وأمره .

٥- وليس لأمره نظام ، إذا لم تستقم طريقته ، تقول هذه أمور عظام لو
كان لها نظام .

٦- وهذان البيتان ينتظمهما معنى واحد .

٧- ونظمت الضبة والسمكة ونظمت فهي ناظم ومنظم امتلأت من البيض

في بطنها أنظامان وهما الكشيتان ، وأنظيم^(١) .

وفي المعجم الوسيط ورد من معاني مادة ((نظم)) :

١- نظم الأشياء : ألفها وضم بعضها إلى بعض .

٢- وانتظم الشيء تألق واتسق .

٣- والنظام : الترتيب والاتساق .

٤- ونظم القرآن : ((عبارته التي تشمل عليها المصاحف صيغة ولغة))^(٢)

وفي الصحاح للجوهري :

(١) أساس البلاغة للزمخشري ص ٦٤١ طبعة دار بيروت .

(٢) المعجم الوسيط الجزء الثاني ص ٩٤١ .

النظم القرآني في سورة الرعد

١ - المنظمة والتنظيم : تأليف أجزاء متآزره لأداء غرض معين . أو المجموع المؤلف على هذا النحو.

٢ - المنظمة والتنظيم : سلوك الطرق والأسباب العلمية في إنشاء الوحدات الإدارية لمشروع ما، وتحديد الاختصاصات وتوزيعها، وربط الإمكانيات المادية والمالية والبشرية والتنسيق فيها لتنفيذ المشروعات العامة.

٣ - المنظمة والتنظيم : فن يرمي إلى تنظيم المعرفة منهجياً على أسس منطقية^(١) .

وأورد الفيروز أبادي في القاموس المحيط:

١ - النظم : التأليف وضم شيء إلى شيء آخر، والمنظوم، والجماعة من الجراد، وثلاثة كواكب من الجوزاء، والثريا، والدبران.

٢ - ونظم اللؤلؤ ينظمه نظماً ونظاماً، ونظمه ألفه وجمعه في سلك فانتظم وتنظم.

٣ - وانتظمه بالرمح. اختله.

٤ - النظام : كل خيط به اللؤلؤ ونحوه، جمعه أنظمة، وأناظيم، ونظم.

٥ - النظام : ملاك الأمر، والسيرة، والهدى والعادة.

٦ - ونظاما السمكة والضب، ونظاماهما، بالكسر، وانظمتاهما بالضم

خيطان منظومان بيضا من الذنب إلى الأذن.

(١) انظر الصحاح للجوهري المجلد الثاني ص ٥٨٤ .

٧- الإنظام : نفس البيض المنتظم، ومن الرمل ما تعقد منه كظامه،
وكل خيط نظم خرزاً.

٨- النظام : لقب إبراهيم بن سيار النظام ، محمد بن عبد الجبار الشاعر
الأندلسي^(١).

وفي جمهرة اللغة لابن دريد :

١- النظم : نظمك الخرز وغيره ، ونظم ينظم نظماً نظاماً ونظم
تنظماً .

٢- النظام : كل شيء منظوم

٣- النظم : كواكب في السماء تسمى النظم . وهي من نجوم الجوزاء

٤- ويقال : ((انتظمت الصيد : إذا لحقته أو رميته حتى تنقده . وقال
بعضهم لا يقال انتظمته حتى تجمع بين رميتين بسهم أو برمح))^(٢) .

وفي تهذيب اللغة للأزهري :

١- النظم : نظمك الخرز بعضه إلى بعض في نظام واحد ، كذلك هو

في كل شيء حتى يقال ليس لأمره نظام أي لا تستقيم طريقته ، حتى
يقال : طعنه بالرمح فانتظم ساقيه أو جنبه .

٢- النظامان من الضب : كشيتان من الجانبين منظومتان بيضا من

أصل الذنب إلى دبرة الأذن ، وكذلك الإنظامان يقال : في بطنها

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي الجزء الرابع ص

(٢) جهر اللغة لابن دريد الجزء الثالث ص ١٢٥ .

النظم القرآني في سورة الرعد

إنظامان من بيض وكذلك أنظاما السمكة ، يقال : نظمت فهي منظم، ونظمت فهي ناظم وذلك حين تمتلئ من أصل أذنهما إلى ذنبها بيضا ، وكذلك الدجاجة تنظم .

٣ - ويقال : نظمت الضبة بيضا تنظيما في بطنها . ونظمته نظماً .

٤ - الإنظام من الخرز خيط قد نظم خرزاً وكذلك أناطيم مكن الضبة .

٥ - وقال ألكسائي : جاءنا نظم من جراد وهو الكثير

٦ - والجماعة نظم .

٧ - النظمة : كوكب الثريا ^(١) .

تلك المعاني التي استقصيناها من أهم معاجم اللغة للفحص عن مادة

((نظم)) توضيح المعنى الأصلي الذي كان العرب يستعملون فيه هذه المادة .

وهذا المعنى يبدو في ظاهره متعدداً فهو يتناول الماديات والمعنويات كما

مر معنا ، إذ أن من معاني النظم عند العرب نظم اللؤلؤ في الخيط والخيط

نفسه ، ومنه معنى الاتساق والائتلاف بين الأمور المعنوية كقولهم : النظم

الشعر الحسن ، والنظم المنظوم وصف بالمصدر ونظام كل أمر ملاكه ومنه

ليس لأمرهم نظام أي لا تستقيم طريقته .

(١) تهذيب اللغة للأزهري الجزء الرابع ص ٣٩١ .

وأهم تلك المعاني يدور حول معنى الاتساق والاتلاف . وما ذكر أولئك اللغويون يعيد إلى الأذهان ما ذكره قدامه بن جعفر في كتابة نقض الشعر ((عن الاتلاف بين اللفظ والمعنى وبين اللفظ والوزن وبين المعنى والقافية^(١))) وهذا يعيننا على رد تلك المعاني إلى المدلول الأصلي لمادة ((النظم)) الذي يوحيه مفهومها وهو الاتساق والاتلاف والتناسب بين الأجزاء فإن نظم اللؤلؤ في الخيط يستوجب التناسب في أحكام الصنعة ليبدو العقد سليماً في مظهره ، وكذلك نظم الكلام يتطلب دقة الأحكام ووضع كل لفظة بجانب أختها صنيع ناظم اللؤلؤ وحائك الخيوط .

وإذا أردنا تتبع معنى هذه المادة عند الأدباء والبلاغيين وجدنا لهذه اللفظة معاني كثيرة بعضها يتحد مع المعنى الذي بينه اللغويون ، وبعضها يرمي إلى معنى آخر .

فهي عند الجاحظ ترد مرادفة للتأليف ، نلاحظ ذلك المعنى في معرض حديثه عن القرآن إذ يقول : ((إن الرسول صلى الله عليه وسلم تحدي البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه ، وتأليفه)) .

وعنده في بعض المقامات الأخرى ترد بمعنى ((البيان والإنشاء))^(٢) .
وعقد أبو هلال العسكري في ((الصناعتين)) باباً سماه ((حسن النظم)) بين فيه معنى النظم بأنه : ((التأليف والرصف والضم)) ، إذ يقول :

(١) انظر نقد الشعر لقدامية بن جعفر ص ٢٤ مطبعة السعادة بالقاهرة . تحقيق كامل مصطفى

(٢) نظرية عبد القاهر في النظم للدكتور درويش الجندي ص ٢٣ مطبعة الرسالة .

النظم القرآني في سورة الرعد

((وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في موضعها ، وتمكن في أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير ، والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام ولا يعمي المعنى ، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها ، وتضاف إلى لفقها . وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها ، وصرفها عن وجوها ، وتغيير صيغتها ومخالفة الاستعمال في نظمها .

ويستطرد أبو هلال في شرح معنى النظم ، وأنه جودة الرصيف وحسن

السبك بضرب الأمثلة قائلاً :

فمن سوء النظم المعازلة ، وأصلها من قولهم : تعاضلت الجرادتان إذا

ركبت إحداهما الأخرى ، وعاضل الرجل المرأة كذلك . ومن المعازلة قول

الفرزدق :

تعالى فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وقوله :

إلى ملك ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره

وقوله :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

قال : ومن الكلام المستوي النظم ، الملتئم الرصيف قول بعض العرب :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً ؟ كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتي لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

والمنظوم الجيد ما خرج مخرج المنثور في سلاسته وسهولته واستوائه وقلّة

ضروراته ، من ذلك قول بعض المحدثين :

وقوفك تحت ظلال السيوف أقر الخلافة في دارها

كأنك مطلع في القلوب إذا ما تناجت بأسرارها^(١)

وأمثلة أبي هلال كافية في إيضاح ما أورده عن معنى النظم الذي منه

حسن السبك ، وجودة الرصيف ، والتتام أجزاء الكلام فإن ما ذكره من الأبيات

لا تكاد تجد فيها ما يخرجها عن النظم الحسن التأليف .

وتجد معنى النظم عند ابن سنان الخفاجي ((ت ٤٦٦ هـ)) ضم الشيء

إلى الشيء ، وهذا يخالف ما ذكره أبو هلال عن معنى هذه المادة ، إذ أن النظم

بمعنى ضم الشيء إلى يدخل فيه كل كلام منظوم خاضع لقوانين الأسلوب

العربي أو غير خاضع ، كما سنلاحظ ذلك عند الحديث عن معنى النظم عند

عبد القاهر الجرجاني وتتبع قوله فيه .

والنظم عند عبد القاهر : نظير النسيج والصياغة والبناء والوشي

والتحبير مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض ، ولذا يجيء النظم عنده

بمعنى الترتيب وترتيب الألفاظ في العبارة على حدو ترتيب معانيها في الذهن ،

بل النظم في حقيقته عند عبد القاهر ترتيب للمعاني في النفس ، فلا بد أن

يكون الهدف من هذا الترتيب صورة وصنعة إذ لا يكون ترتيب في شيء كما

(١) انظر الصناعيتين لأبي هلال ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ مطبعة الحلبي تحقيق علي البجاوي ومحمد

أبي الفضل إبراهيم .

النظم القرآني في سورة الرعد

يقول عبد القاهر_ حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصنعة ، وهذا القول يقضي بنا تتبع فكرة النظم عند هذا العالم إذ هي محور بحوثه البلاغية والنقدية ، فما معناها وما مفهومها عنده .

زيادة على ما مر ذكره عن معنى النظم عند عبد القاهر نلاحظ أن من معانيه أيضاً ((التعليق)) إذ يقول : ((وليت شعري كيف يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى .

ومعنى القصد إلى معاني الكلم أن تعلم السامع شيئاً لا يعلمه ، ومعلوم أنك أيها المتكلم لست تقصد أن تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها فلا تقول خرج زيد لتعلمه معنى خرج في اللغة ومعنى زيد كيف ؟ ومحال أن تكلمه بالألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف ولهذا لم يكن الفعل وحده من دون الاسم ، ولا الاسم وحده من دون اسم آخر أو فعل كلاماً . وكنت لو قلت ((خرج) ولم تأت باسم ، ولا قدرت فيه ضمير الشيء أو قلت زيد ولم تأت بفعل ولا اسم ولم تضمه في نقسك كان ذلك وصوتاً تصوته سواء))^(١) .



وفكرة النظم عند عبد القاهر تقوم على أسس ومعالم من أبرزها علم النحو لاشتماله على الألفاظ والتراكيب إذ يقول : ((النظم توحي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام)) ومعاني

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٣١٤ ، ٣١٦ ونظرية عبد القاهر في النظم للدكتور درويش الجندي ص ٥٣ .

النحو إذاً هي التي يتعلق بها الفكر وهي تمثل العلاقات بين معاني الكلم في النفس وإليها ستند ترتيب هذه المعاني في النفس ، ((ولا يتصور أن يكون للفظه تعلق بلفظة آخر من غير أن يعتبر حال معنى هذه مع معنى تلك ويراعي هناك أمر يصل إحدهما بالأخرى كمرعاة كون ((نيك)) جواباً للأمر في قوله : ((قفا نيك)) .

وكان تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خيراً عن الآخر أو تتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيداً له أو بدلاً منه أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون التالي صفة أو حالاً أو تمييزاً أو تتوخي في كلام هو لإثبات معنى : أن يصير نفياً ، أو استفهاماً ، أو تمنياً فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك ، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر ، فنجىء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف . وعلى هذا القياس . ذلك هو معنى النظم فلا نظم في الكلم ولا ترتيب إلا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوه^(١)

ويمضي عبد القاهر في شرح فكرة النظم قائلاً ما معناه : ((إذا كان النظم درجات يمكن أن ترد إلى درجتين أساسيتين ، الأول : لا تكاد تتعدى مرحلة الصحة والصواب ، والأخر تتعدى هذه المرحلة إلى مناط الفضيلة)) فليس النظم على كلتا الدرجتين كما يقول عبد القاهر إلا أن تضع كلامك

(١) نظرية عبد القاهر في النظم للدكتور درويش الجندي ص ٥٤ مطبعة الرسالة .

النظم القرآني في سورة الرعد

الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل منها بشيء ، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، منطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد .. وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك : إن تخرج أخرج . وأن خرجت خرجت وأن تخرج فأنا خارج وأنا خارج إن خرجت وفي الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه وينظر في الجمل التي ترد فيعرف موضع الفصل فيها من مواضع الوصل ثم يعرف فيها حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء .. إلخ .. ويتصرف في التعريف و التنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار فيضع كلاً من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له ((هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صوباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له فلا تر كلاماً قد وصف بصحة نظمه أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وكان مرجع تلك الصحة

وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ، وإلا وجدت ذلك الوصف يدخل في أصل من أصول النحو ويتصل بباب من أبوابه .
ودرجات النظم التي لا تتعدي دائرة الصحة إلى دائرة الفضائل والمزايا مرجعها عند عبد القاهر حسن التخيير في دائرة الحدود التي حدها النحو وإلى اهتداء الناظم إلى الأولى والأفضل وما يلائم المقام من معاني النحو .
وإذا حسن تخيير معاني النحو في الكلام وتوخي الملائم منها للمقام اتحدت أجزاء الكلام ودخل بعضها في بعض واشتد ارتباط ثاني منها بأول ووضعت في نفس السامع وضعا واحداً لا تفرق فيه فكان حال القائل لمثل هذا الكلام حال الباني يضع بيمينه هنا في حال ما يضع بيساره هناك .. وليس لما من شأنه أن يجئ على هذا الوصف حد بحصره وقانون يحيط به))^(١) .

وهكذا يفصل عبد القاهر في فكرة النظم على ما هو معروف في علم النحو من أن الكلام اسم وفعل وحرف وللتعليق بينها طرق معلومة ، ويتوسع في مفهوم هذه الفكرة فيجعل ((الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو فلا يتصور فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره ، ويرى أن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته من

(١) نظرية عبد القاهر في النظم للدكتور درويش الجندي ص ٥٧ ، ٦٢ ، ٧٠ مطبعة الرسالة

النظم القرآني في سورة الرعد

ذلك قول الله تعالى : ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ . فالمزية الجليلة في هذا لا ترجع إلى مجرد الاستعارة ولكنها ترجع إلى المجيء بالاستعارة على طريق ما يسند فيه الفعل إلى الشيء ... إلخ .

وإذا كان هناك من ملحوظة على عبد القاهر في شرح فكرة النظم وجعلها بسبب وثيق من النحو ((فذلك أنه لم يقف عند معاني النحو يبين أسرارها ووجه جمالها في معظم ما عرض من الأمثلة ، فإذا كان فيما جاء به من الأمثلة أن النظم هو توخي معاني النحو . فإنه لم يشرح معنى هذا التوخي ولا سر جماله ، فهل كانت المسألة من الوضوح عند عبد القاهر إلى درجة لا تحتاج منه إلى شرح وتبيين . كيف ؟ وهو يهدف منها إلى الإقناع بإعجاز القرآن بنظمه وهل يقتنع منكر الإعجاز بأن نقول له أن الكلمة مبتدأ وتلك خبر عنها وهذا فعل وذاك فاعل له ^(١) .

ولا شك أن عبد القاهر في كلامه هذا إنما يقصد كلام البشر الذين يتوخون مثل هذه المقاصد ويتعلمون لها ويؤلفون كلامهم على حذوها . وليس كذلك القرآن الكريم الذي لا تعمل فيه لأنه تنزيل من رب العالمين ينتظم التراكيب ومعانيها من غير حاجة إلى ما يحتاج إليه البشر في نظم العبارة أو تأليفها .

(١) عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية للدكتور أحمد أحمد بدوي ص ١١٦ ص ١١٧ .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام ((أن فكرة النظم عند عبد القاهر ابتدأت بنظرة فلسفية في اللغة حيث تحدث عن دلالات اللفظ وحكمه في المواضع ، وتأثيره مفرداً ومركباً ، ثم أنتهي إلى الذوق الشخصي الذي هو المرجع الأخير لكل باحث ودارس^(١))) وهذه الفكرة عنده تركز على دعائم ثلاث : اللفظ ، المعنى ، الذوق .

((وعنده أن دراسة النظم لا تقف عند أمر الصحة وعدمها بل تتعدي إلى الجودة . وبعبارة أخرى : يمزج عبد القاهر النحو بما سماه البلاغيون فيما بعد علم المعاني))^(٢)

وقبل أن نتجاوز فكرة النظم عند عبد القاهر إلى غيره ، يجدر بنا أن نشير إلى أن هذه الفكرة لم يكن عبد القاهر مخترعاً لها ومبتكراً ، ولكنه بسط القول فيها وألبسها ثوباً قشيباً ، فقد سبقه إليها : أبو عبد الله محمد ابن زيد الواسطي (ت ٣٠٧ هـ) الذي ألف كتاباً سماه : ((إعجاز القرآن في نظمه)) وهذا الكتاب مفقود لا يذكر عنه الباحثون شيئاً سوى اسمه واسم صاحبه ، إلا ما كان من ((الرافعي)) في كتابه ((إعجاز القرآن)) إذ يقول عن الكتاب الواسطي : ((ولأظن الواسطي بني إلا على ما ابتدأه الجاحظ . كما بني عبد القاهر في ((دلائل الإعجاز)) على الواسطي . والرافعي بهذا القول كالمطلع على الكتاب ذاته ، ولست أدري على أي شيء اعتمد ؟ وممن سبق عبد القاهر إلى

(١) انظر : في الميزان الجديد للدكتور محمد مندور ص ١٨٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٩

النظم القرآني في سورة الرعد

فكرة النظم : الجاحظ في كتابة المفقود ((إعجاز القرآن بالنظم)) وكذلك أبو هلال العسكري في الصناعتين حيث عقد باباً خاصاً بالنظم تحت عنوان ((الباب الرابع في البيان عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك وخلاف ذلك)).

وممن سبق عبد القاهر القاضي عبد الجبار صاحب المعنى ، بل ((إن فكرة النظم قد ظهرت واضحة في الصراع الذي أثاره امتزاج الثقافات وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم ، ودفاع حملة العربية عن تراثهم الخالد ومنهم ثقافتهم النحوية .

ومن مظاهر هذا الصراع : تلك المناظرة الحادة التي قامت بين أبي سعيد السيرافي النحوي (ت ٣٦٨ هـ) وبين أبي بشر متي بن يونس في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات



وأخيراً قد عرضنا في هذا الفصل لبعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، وتقصينا المعاني لمادة ((نظم)) عند اللغويين ، والبلاغيين ، والأدباء ، ومما تجدر الإشارة إليه : أن هذه المادة حين دخلت البحوث البلاغية أصبحت نظرية لها أصولها ، وقوانينها كما رأينا ذلك عند عبد القاهر الجرجاني وكما أوقفنا عليه جهود العلماء المعاصرين ممن تناولها بالبحث والدراسة .

ومن جملة من تناولها من الباحثين المعاصرين : الدكتور درويش الجندي في كتابه : ((نظرية عبد القاهر في النظم)) الذي بين فيه المعالم التي رسمها عبد القاهر لفلسفة هذه النظرية ، وكنت أتطلع إلى شرح واف يبرز تلك المعالم ويكشف عن غوامضها للدارسين الذين قد يلتبس على بعضهم مقصد عبد القاهر من كل فكرة يسوقها ، لما يتميز به أسلوبه من تداخل وقوة قد تحجب عن الأذهان ما يرمي إليه هذا العالم النحرير ، غير أن ما كتبه الدكتور ((درويش الجندي)) ما هو إلا عود على بدء ، وبلى مجرد نقل وحشر شواهد معظمها من دلائل الإعجاز .

وكان مما يتطلبه البحث في كتاب ((نظرية عبد القاهر في النظم)) أن يقفنا صاحبه على تتبع مادة ((نظم)) واستخلاص معانيها عند العرب من معاجم لغتهم ، وسياق الأمثلة من غير شواهد عبد القاهر ثم التعرض لها بالتحليل والتعليق حتى تكتمل معالم النظرية ، وتصبح شاهد عيان للدارسين . ومما ن فقد فيه تلك المعالم : ما كتبه الدكتور : أحمد أحمد بدوي عن عبد القاهر في سلسلة ((أعلام العرب)) وهو يعرض لفكرة النظم عنده إذ لم يزد على ما ذكره عبد القاهر شيئاً سوى تتبع آرائه من غير تحليل أو استقصاء ، ولا شك أن عملاً كهذا يصم البحث العلمي ، ويصيب آراء الدارسين بالعقم ، ألم تر أن الكاتبين معاصران ، وأن أحدهما قد أخذ عن الآخر ؟ فأي زيادة ، أو ابتكار ذكره أحدهما عن نظرية النظم عند عبد القاهر

النظم القرآني في سورة الرعد

سوي استقصاء آرائه وإعادة أمثلته وشواهد له كإن النظم معلق بتلك الأمثلة ،
وتلك الشواهد .

والآن نعرض طائفة من أقوال بعض العلماء في الإعجاز بالنظم ونتناول
بعض ما قالوه بشيء من التفاصيل ، وليكن أول من نومئ إليه عبد القاهر
الجرجاني لشدة تمكنه من فكر النظم ، ومناداته بها عبد القاهر الجرجاني
ورأيه في الإعجاز بالنظم :

نحن الآن مع شيخ البلاغة ، وإمامها الذي رفع قواعدها وأحكم بنائها ،
(ورأيه في الإعجاز بالنظم قائم على التربية الفنية . تربية الذوق والإحساس
والشعور ، وذلك بممارسة أي نص أدبي أو قرآني . حتى إذا ما ألف الذوق
النقد مارس النص القرآني باحثاً عن الجمال فيه ففي نظمه يكمن سر
إعجازه^(١) :

إذا كان عبد القاهر يقرر أن تربية الذوق احدي الدعائم التي يعين على
إدراك سر الإعجاز بالنظم في القرآن . فما دليله على ذلك ؟ . إننا نجد الدليل
واضحاً فيما يسوقه من الآثار الأدبية والنصوص القرآنية مفسراً ومحلاً اقراً
قوله في دلائل الإعجاز : ((إنكم تتلون قول الله تعالى : ﴿ قُلْ لِيَن آجَمَعَتِ الْآلِنُسُ
وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ فَأَتُوا بِعَشْرِ
سُورٍ مِّثْلِهِ ﴾ وقوله : ﴿ سُورَةٌ مِّن مِّثْلِهِ ﴾

(١) أنظر إعجاز القرآن البياني للدكتور حفني محمد شرف ص ١٠٢ مطابع الأهرام

فقولوا الآن : أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتحدى العرب أن يعارضوا بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذي جاءهم من قبله التحدي ولا بد في الجواب من ((لا)) لأنهم إن قالوا يجوز أبطلوا التحدي من حيث أنه - كما لا يخفى - مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف ، ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوماً للمطالب ويبطل ذلك دعوى الإعجاز أيضاً)) (١) .

وهذا الوصف الذي يمهد به عبد القاهر . أيكون في اللفظة المفردة ؟ أم في التركيب ؟ أم في المعاني ؟ أم في الحركات والسكنات ؟ أم في المقاطع والفواصل ؟ أم فيما يجد من صورة بدیعة مبنية على استعاره أو تشبيهه ؟ إذا امتنع إعجاز لدي عبد القاهر بهذا كله ففيما ذا يكون ؟ . إن الإشارة إلى المهد به لا يعين على فهمة إلا فحصة بتذوق النظم وحلاوته فبالنظم والتأليف يكون الإعجاز وليس هذا الأمر إلا في القرآن .

وهذا شاهد على ما ذكره عبد القاهر ، وذهب إليه في الإعجاز بالنظم إذ يقول : في كتابة دلائل الإعجاز : ((هل تشك إذا فكرت في قوله تعالى :

((وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَكَسِمَاءُ أَهْلِكَ وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ

عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠١﴾ . فتجلي لك منها الإعجاز وبهرك

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٤٦ طبعة المراغي.

النظم القرآني في سورة الرعد

الذي تري وتسمع . أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضاً ببعض

وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ،
والثالثة بالرابعة ؟ وهكذا إلى أن تستقربها إلى آخرها . وأن الفضل نتائج ما
بينها وحصل من مجموعها ؟

إذا شككت فتأمل هل تري لفضة منها بحيث لو أخذت من بين أخوتها
وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه ، وهي في مكانها من الآية ؟

قل ((ابلغي)) واعتبرها وحدها . من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما
بعدها ، وكذلك أعتبر سائر ما يليها . وكيف بالشك في ذلك ؟ ، ومعلوم
أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم كان النداء بـ ((يا)) دون
((أي)) نحوياً أيتها الأرض ، ثم أمرت ، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال
: ابلغي الماء ، ثم أن تبع نداء الأرض ، وأمرها بما هو في شأنها . نداء السماء
وأمرها كذلك بما يخصها ، وثم أن قيل : ((وغيض الماء)) فجاء الفعل مبنياً
للمفعول ، وتلك الصيغة تدل على أنه لم يغض إلا بأمر أمر ، وقدرة قادر ثم
تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : ((وقضي الأمر)) ، ثم ذكر ما هو فائدة
هذه الأمور وهو ((استوت على الجودي)) ، ثم إظهار السفينة قبل الذكر
كما هو شرط الفخامة ، والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة ((قيل)) في
الخاتمة ((بقيل)) في الفاتحة .

أفتري لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة ،
وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها ، تعلقاً باللفظ من
حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى في النطق ، أم كل ذلك لما يبين
معاني الألفاظ من الاتساق العجيب^(١)

وبمثل هذا الأسلوب التحليلي الرائع يصل عبد القاهر إلى ما يريد من
تقرير ما أسلف ، من أن الشأن للنظم كاملاً ، ولا شيء من الاعتبار للفظ
وحده قبل أن يدخل في هذا النظم المعجز ، ولا شك أن تحليل عبد القاهر للآية
الكريمة تحليل خبير بدرجات الكلام هداه إليه فكر ثاقب . وبصيرة نيره . وذوق
سليم .

ويشير الدكتور بدوي طبانة في كتابه ((البيان العربي)) إلى أن عبد
القاهر في عرضه لهذه الآية _ نسي فضل الألفاظ المختارة فهناك قبل هذا
النظم وهذا التلاؤم الذي فصله ، هذا الوضع للكلمات على هذا النسق العجيب
تخير لكل لفظ ، ولا شك أن هنالك ألفاظاً غير هذه الألفاظ كان يمكن أن
تؤدي بها هذه المعاني ، ولكن الفضل يظهر في التخير والانتقاء المبني على
تفضيل لفظ على لفظ آخر^(٢) .

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٣٢ ، ٣٣ طبعة المراغي .

(٢) انظر البيان العربي للدكتور بدوي طبانة س ٢٢٧ الطبعة الرابعة .

النظم القرآني في سورة الرعد

ولو أردنا استقصاء الأمثلة والشواهد التي ساقها عبد القاهر من القرآن الكريم ومأثور كلام العرب لأفضي بنا ذلك إلى الاستطراد . وما ذكره من ذلك قار في موضعة من كتابيه : أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز يمكن لأي باحث الوقوف عليه .

والآن نتجاوز عبد القاهر إلى غيره من العلماء ممن سبقه ، وممن جاء بعده ورأي الإعجاز بالنظم .

لعل من أقدم القائلين بالإعجاز بالنظم ((أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ)) (ت ٢٥٥ هـ) الذي ألف كتاباً عن إعجاز القرآن في نظمه ، غير أنني لم أجد هذا الكتاب ، وكل ما يذكره عنه الباحثون ((اسمه فقط)) ويستخرجون رأي الجاحظ ، وقوله في الإعجاز بالنظم من بين ثنايا كتبه على طريقته في - الاستطراد ، والخروج من مسألة إلى أخرى ، وخالصة ما يراه الإعجاز بالنظم يتضح من قوله الذي نقله المبرد في هامش كتابه ((الكامل)) ((إن محمد صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلاقة لها في العقل كموقع فلق البحر من العين

وذلك قول صلى الله عليه وسلم لقريش خاصة العرب عامة مع ما فيها من الشعراء ، والخطباء ، والبلغاء ، والدهاء ، والحكماء ، وأصحاب الرأي والمكيدة والنظر في العاقبة : إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي ، وصدقتم في تكذبي . قال الجاحظ : ولهم بعد ذلك أصناف النظم ،

وضروب التأليف : كالقصيد والرجز والمزدوج والمجانس . ثم هم بعد ذلك التحدي عرفوا عجزهم ، وأن ما طلب منهم لا يتهيأ فرأوا الإضراب عن ذكره والتغافل عنه أسلم لهم هذا في الباب ^(١) .

ومن رأي الجاحظ في الإعجاز بالنظم قوله : ((وفي كتابنا الذي يدلنا على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد . مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها ^(٢))) .

كما أن الجاحظ قد فطن إلى أن لألفاظ القرآن ميزة أزيد على غيره من حيث النظم . وهي : إتيان بعض ألفاظ المقترنة متصاحبة . لا تكاد تفترق . كالصلاة والزكاة ، والجوع والخوف ، والجنة والنار ، والرغبة والرغبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس ^(٣) .

وهذه الفطنة تدلنا أيضاً على رأيه وقوله بالإعجاز بالنظم ، وهذا محصل ما قاله في هذا الصدد وإلى جانب اهتمام الأدباء وأهل اللغة بإبراز مزايا النظم القرآني وأسلوبه تعرض أهل الحديث والفقهاء للرد على الشبهات التي أثيرت حول أسلوب القرآن ونظمه ، وبلاغته .

(١)، (٢)، (٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ ص ١٩ طبعة دار الفكر، والمجاز البياني للدكتور حنفي محمد شرف ص ٢٣، ٢٦ مطابع الأهرام، واثرا القرآن في تطوير النقد العربي للدكتور محمد زغلول سلام ص ٨١ الثانية المعارف

النظم القرآني في سورة الرعد

وفي جملة أولئك ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في كتابه ((تأويل شكل القرآن)) الذي يعد من الآثار الجليلية التي خدمت لغة القرآن ، وأسلوبه وقد عني فيه بالمجاز ، وتوسع في مفهومه ، والذي يهمننا منه في هذا المقام رأيه في الإعجاز بالنظم . إذ يقول في مقدمه كتابه :

والحمد لله الذي نهج لنا سبل الرشاد ، وهدانا بنور القرآن ، ولم يجعل له عوجاً . بل نزله قيماً مفصلاً بيناً . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وقطع بمعجز التأليف أطماع الكائدين ، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلمين ، وجعله متلو لا يمل على طول التلاوة ، ومسموعاً لا تمجه الآذان . وغضاً لا يخلق على كثرة الترداد . وعجيباً لا تنقضي عجائبه . ومفيداً لا تنقطع فوائده ... وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه ^(١) .

ها ملخص بعض أقوال ابن قتيبة في الإعجاز بالنظم ، ولم يزل الميدان فسيحاً لغيره فهذا الرماني (ت ٣٨٦هـ) في رسالته النكت في إعجاز القرآن يفصح عن رأيه قائلاً ضمن باب عقده تحت عنوان ((باب التلاؤم)) : ((التلاؤم نقض التنافر . والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف . والتأليف على ثلاثة أوجه : وذلك بين من تأمله والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد يظهر بسهولة على اللسان ، وحسنه في الأسماع وتقبله في الطباع . فإذا أنضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز)) .

(١) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٠ ، ورسالة في الإعجاز للدكتور مصطفى مسلم ص ٧٢ .

ويقول الرماني وهو يناقش الوجوه التي ذكرها في الإعجاز: إن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة . منها الشعر ، ومنها السجع . ومنها الخطب ، ومنها الرسائل ، ومنها المنشور الذي يدور بين الناس في الحديث ، فأني القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة^(١) .

وقد ساق الرماني مقارنة بين قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾

وبين القول المأثور عن العرب : ((القتل أنفي للقتل)) وهذه المقارنة من صميم قوله بالإعجاز بالنظم .

وبعد الروماني نلتقي بأبي سليمان حمد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) في رسالته : بيان إعجاز القرآن لنقف على رأيه في الإعجاز بالنظم .

قال بعد أن عدد بعض وجوه الإعجاز التي ذهب إليها بعض العلماء : ((إن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة)) ... إلي آخر ما ذكره عن أوصاف الكلام المحمود ، والكلام المذموم وبعد ينفذ إلي القول بإعجاز بالنظم على حد قوله :

((ولا تري نظماً أحسن تأليفاً ، وأشد تلوؤماً ونشاً كلا من نظمه فتفهم الآن ، واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني من توحيد الله عزت قدوته ، وتنزيه له في صفاته ،

(١) انظر النكت في إعجاز القرآن للروماني ص ٨٧، ٨٨ وما بعدها تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام مطبعة دار المعارف بمصر ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر .

النظم القرآني في سورة الرعد

ودعاء إلي طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته ، من تحليل وتحريم ، وحضر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن المنكر ، وإرشاد إلي محاسن الاخلاق وزجر عن مساوئها . واضعاً كل شيء في موضعه الذي لا يري شيء أولي منه ، ولا يري في صورة العقل أمر أليق منه . مودعاً أخبار القرون الماضية .

ويمضي الخطاب قائلاً : ((ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوي البشر . ولا تبلغه قدرهم فأنقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته^(١)) .

ومن بين من قال بإعجاز القرآن بالنظم أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) وشاهد لك قوله في ((الصناعتين وإنما يعرف إعجاز القرآن من جهة عجز العرب عنه وقصورهم عن بلوغ غايته . في حسنه وبراعته ، وسلاسته ونصاعته . وكمال معانيه وصفاء ألفاظه^(٢) وبهذا القول ومما سبق ذكره عن أبي هلال نري أنه يقرر إعجاز القرآن في بلاغته المتميزة بالنظم البديع ، وحسن التأليف وجودة التركيب ، ولم يذكر أن أبا هلال ألف كتاباً خاصاً عن إعجاز القرآن ، وإنما قيد الوصول إلي إدراك علم البلاغة والفصاحة بالوصول إلي إدراك أسرار إعجاز القرآن الكريم ، وهذا ما قدم به كتابه الصناعتين^(٣)) .

(١) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للروماني والخطابي وعبد القاهر ص ٢٤ ، ٢٥ . تحقيق محمد

خلف الله والدكتور محمد زغلول سلا .

(٢) انظر مبحث العناية بالدراسات القرآنية في هذا المبحث

(٣) انظر مقدمة الصناعتين لأبي هلال ص ٧ تحقيق علي البجاوي وأبي الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي .

وعبر تلك الجولة السريعة نلتقي بالقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ورأيه في الإعجاز بالنظم .

لقد كان من جليل مؤلفات ها العالم كتابه ((إعجاز القرآن)) والإعجاز بالنظم عنده يرجع إلي وجوه منها :

ما يرجع إلي الجملة ، ((وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه . واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظم جميع كلام الناس ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم)) .

ومنها : ((إن له أسلوباً يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتادة)) .

ومنها اشتماله على الفصاحة والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة من غير اختلاف . ﴿وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ، ويتضح هذا الوجه من أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ، ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من قصص ومواعظ ، واحتجاج وحكم ، وأحكام وأعدار وإنذار ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف . في الوقت الذي تري فيه اختلاف كلام الخطيب المصقع ، والشاعر المفلق . على حسب اختلاف هذه الأمور

ويمضي الباقلاني في استقصاء الأدلة على إعجاز القرآن بالنظم فيقول :

النظم القرآني في سورة الرعد

((ومنها نظمه البديع الذي وقع موقعات في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن والإنس .. فالجن يعجزون عن الإتيان بمثله كعجز الإنس ، ويقصرون دون بلاغته كقصور الإنس تماماً بتمام)) وهذا الوجه قد سبق إليه الباقلاني . ولكنه أريي على من سبقه بإيراد الأدلة من القرآن الكريم ومناقشتها وعرض المقارنات الكثيرة في ذلك . بل قد فصل القول في نظم سورتي غافر وفصلت وبين دلالاته على ذلك بالتفسير والتحليل . فلنقف معه على هذا الشاهد العظيم من سورة غافر ، وهو يعرض لنظم الآية الكريمة :

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ رَفِيعٌ
الَّذِي رَجَعَتْ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ
التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُونٌ لَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿١٦﴾ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ
الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٧﴾ ﴿١١﴾ .

قال الباقلاني : ((قف على هذه الدلالة ، وفكر فيها ، ورجع نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العالية ، والكلمات السامية ، والحكم البالغة والمعاني الشريفة ، تعلم ورودها عن الإلهية ، ودلالاته على الربوبية وتحقق أن الخطب المنقولة عن الخطباء ، والأخبار الماثورة عنهم في كلماتهم الفصيحة قد باينته الآية الكريمة .

فأي خاطر يتشوق إلي أن يقول :

(١) سورة غافر آية ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ ﴿١٦﴾﴾

وأي لفظ يدرك هذا المضمار ؟ وأي حكيم يهتدي إلي ما لهذا من الغور ،

وأي فصيح يهتد إلي هذا النظم ؟

ثم استقري الآية إلي آخرها . واعتبر كلماتها . وراع بعدها قوله تعالى :

﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث . على قريها . وعلى خفتها في

النظم وموقعها من القلب ... ((١)).

وبنحو هذا الأسلوب التحليلي ، واستقصاء وجوه الإعجاز بالنظم عند

الباقلاني يتضح رأيه فيه ولصاحب المغني القاضي عبد الجبار الهمداني

المعتزلي رأي في الإعجاز بالنظم ، ومذهبه في الاعتزال لا يمتنعنا من الوقوف

على رأيه في الإعجاز بالنظم . فما قاله في هذا المضمار جدير بالإشارة ، والغالب

على من سبق ذكرهم من العلماء الأخذ بمذهب المعتزلة ، وعذري في تتبع

أقوالهم في الإعجاز بالنظم أنهم فرسان هذا الميدان دون سواهم .

ألف عبد الجبار كتابة ((المغني)) وخصص الجزء السادس عشر منه

للكلام في إعجاز القرآن ، وبيان سره في ربط العبارات ، واختصاصه برتبة في

الفصاحة ، وللدرد على منكري الإعجاز على طريقته المتكلمين ، وخلاصة رأيه

في الإعجاز بالنظم ((أن القرآن الكريم جاء بطريقة فذة في النظم ، والتأليف

(١) انظر إعجاز القرآن الباقلاني ص ٥١ وما بعد تحقيق أحمد صقر مطبعة دار المعارف

النظم القرآني في سورة الرعد

مختصة برتبة في الفصاحة معجزة ، وأنه باعتبار الأمرين : الطريقة الفذة في النظم ، والاختصاص برتبة الفصاحة يكون الإعجاز^(١) .

وما أكثر العلماء الذين قالوا بالإعجاز بالنظم كابن الزمكاني والزرکشي حتى السكاكي صاحب العلوم المنطقية والعقلية ، ومن بينهم الرازي والألوسي في المحدثين ، ورافعي ، ومحمد دراز ، وسيد قطب ، في المعاصرين وما قالوه في هذا إضمار قار في مؤلفاتهم يمكن لأي باحث الرجوع إليه .



وبعد أن عرضنا لطائفة من أقوال أولئك العلماء حول الإعجاز بالنظم يجدر بنا أن نلقي على ما قالوه نظرة سريعة فاحصة .

باستعراض أقوال أولئك الباحثين في الإعجاز بالنظم نري طائفة منهم قد اتجهت وجهة واحدة ، ولخصت وجه الإعجاز بالنظم على نحو ما ستقر عليه رأي عبد القاهر الجرجاني .

ونري طائفة أخرى صاغت هذا الوجه ألواناً وصوراً بلاغية ، وعملت جاهده على سرد الأدلة ، والاستشهاد بالآيات القرآنية ولم يأتي بجديد حول ما أعادته كرة أخرى إلا ما كان من ابن أبي الإصبع فقد ذكر أنه استخرج من قول الله تعالى ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ نحواً من عشرين فناً من البديع لم

(١) انظر الإعجاز البياني لبنت الشاطئ ص ٩٥ والمغني لعبد الجبار الجزء السادس عشر ص ٣١٦ وما

بعدها مطبعة دار الكتب بمصر

يسبقه أحد إلي استخراجها . إذ يقول في كتابه ((بدائع القرآن)) : وما رأيت ولا رويت في الكلام .. كآية من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحداً وعشرين ضرباً من البديع وعددها سبع عشرة لفظة .

وطائفة ثالثة اكتفت بسرد آراء السابقين ، وحتى في الكثير من شواهدهم . كما مما يسترعي النظر . أن هؤلاء الإعلام في جملة أقوالهم حول الإعجاز بالنظم ، ولم يتجاوزا به حد اللفظ التركيب ، إلا ما كان عبد القاهر الجرجاني ، والرماني . فقد نبها على حسن تأليف الحروف المتلائمة وإن ذلك مدرك بالحس ، وزاد عبد القاهر في إدراك أسرار الإعجاز بالنظم : دعامة الذوق السليم .

كما أن من بينهم من راح يزجي المقارنات ، والموازنات بين كلام البشر ، وكلام الله جل وعلى . كما صنع ذلك الباقلاني في موازنته بين لامية امرئ القيس وتحليلها ، وبين بعض من الآيات الكريمات .

وعلى الرغم من أنه لا يقصد بهذه الموازنة سوي الوصول إلي القول بالإعجاز بالنظم فما أغناه عن هذه الموازنة لارتفاع المفاضلة بين كلام الله سبحانه ، وكلام البشر ، ولأن القرآن في الذروة العليا من كل كلام فهو من عند الله وكفي . ومثله صنيع الدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه من ((بلاغة القرآن))^(١)

(١) انظر من بلاغة القرآن لأحمد أحمد بدوي ص ٣٨٨ الطبعة الثانية مطبعة نهضة مصر

النظم القرآني في سورة الرعد

ولم أحد من هؤلاء الأعلام القول بالإعجاز بالنظم في السور والآيات إلا

ما كان الباقلاني في تفصيله في نظم سورتى غافر وفصلت



الفصل الثاني

عناصر النظم في سورة الرعد

الفصل الثاني

عناصر النظم في سورة الرعد

- ٢ -

لم يغب عن الباحثين من علماء الأدب ونقاده أن الأدب يؤثر فينا
باجتماع عنصرية الأصليين : اللفظ والمعنى ، وإن كانت الحقيقة أن اللفظ
والمعنى يمثلان تمثيلاً كاملاً ما يراد نقله إلي المتلقي فكراً وعاطفة أو انفعالا ،
أو تخيلاً ، أو تصويراً فهما في الحقيقة شيء واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر
إلا كما تفارق الروح الجسد فتتركه موتاً لا حياة فيه ، ولا يستدل على الروح
إلا إذا كانت متحيزة في ذات من الذوات أو جسد من الأجساد .

والفائدة كلها منوطه بالجملة التركيب ، أما أجزاء هذا التركيب فإنها
لاتغني وحدها .

ولكن مما لاشك فيه أن الكل تتكون قيمته بقيمة الأجزاء التي تكون
منها هذا الكل ، فإن البناء لا يكون سليماً قوياً قادراً على الحياة إلا بسلامة
الدعائم التي أقيم عليها ، وسلامة اللبنة التي تكون منها .

ومن هذا المنطلق تكلم أكثر علماء البلاغة في قيمة الألفاظ المفردة ،
لأن سلامة الكل تتبع سلامة الجزء فرب لفظة غريبة أو وحشية كدرت عبارة
طويلة ، وذهبت بسمات الحسن والجمال الذي اجتمع في كثرتها .

ومنذ قديم وجدنا من العلماء من تكلم في اللفظ الأدبي في حال إفراده، وجعل له صفات ومعالم تتأكد بها جودته ، ويفضل بها غيره من سائر الألفاظ . ومن هؤلاء الباحثين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٢٥ هـ) الذي صرح بمذهبه في تفصيل اللفظ ، وتقدير العبارة ، وغالي في هذا التفضيل حتى لقد ذهب إلي أن ((المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة وزن الكلمة ، وتميز اللفظ . وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ^(١))) .

وقد أعتنق رأي الجاحظ كثير من علماء الأدب منهم أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) إذ قال : ((ليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وإنما لشأن في جودة اللفظ ، وصفائه وحسن بهائه ...)) ^(٢) وهو بهذا ينقل رأي الجاحظ نقل يكاد يكون حرفياً .

ومن هؤلاء النقاد الذين يقدرّون اللفظ المفرد ، ويجعلون له صفات ذاتية قدامه بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) الذي يرأن مقياس الحسن للفظ أن يكون سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة مع الحدو من البشاعة ... ^(٣) وممن أشاد باللفظة المفردة ، وجعل لها خصائص تميزها

(١) انظر الحيوان للجاحظ ص ٤٤٤ الطبعة الأولى ١٢٨٧ هـ تحقيق فوزي عطوي مطبعة شركة الكتاب اللبناني ، بيروت .

(٢) انظر الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٦٣ ، ٦٤ الطبعة الثانية تحقيق علي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم مطبعة الحلب

(٣) انظر قدامه بن جعفر والنقد الأدبي للدكتور بدوي طبا نه ص ١٩٣ الطبعة الثالثة ١٣٨٩ هـ الحديثه .

النظم القرآني في سورة الرعد

بالحسن ، وتقبح إذا فقدت تلك الخصائص ابن سنان لخفاجي (ت ٤٦٦هـ) الذي تناول كتابه ((سر الفصاحة)) اللفظة المفردة من أذني جزئياتها من الصوت ، والمخرج والحرف ، وجعل لهذه اللفظة المفردة الجيدة ثمانية أوصاف هي :

١ - أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج

٢ - أن يكون لتأليفها في السمع حسن ومزية

٣ - أن تكون غير متوعرة ولا وحشية .

٤ - وأن تكون غير ساقطة عامية .

٥ - أن تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة .

٦ - وأن لا تكون قد غير بها عن أمر آخر يكره ذكره .

٧ - أن تكون معتدلة كثيرة الحروف .

٨ - أن تكون مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل

، أو ما يجري مجرى ذلك ^(١) .

ومع أن ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ) قد أنحي باللائمة على الخفاجي

بأنه في كتابه ((سر الفصاحة)) قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر

الأصوات والحروف ، والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها

مما لا حاجة إلي ذكره ^(٢) مع ذلك شغل كلام ابن الأثير عن اللفظة

(١) ، (٢) انظر ذلك مفصلاً في البيان العربي للدكتور بدوي طبا نه ص ١٩٤ ، ٢٠٦ الطبعة الرابعة

المطبعة الفنية الحديثة ١٣٨٨هـ

المفردة ، وصفات حسننها ، وأسباب قبحتها جزءاً كبيراً من أول دراسته في كتابه ((المثل السائر)) ، فقد نعت اللفظة المفردة بكثير من الأوصاف وجعل ألفة الكلمة وجريانها في اللغة الأدبية من الأسس التي تقوم بها الألفاظ ، وتستحق المزية والتقدير ، واعترف بالتفاوت بين الألفاظ التي يظن أنه من قبيل المترادف . فهو يقرر أن أرباب النظم والنثر من صناع الكلام غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها فاختاروا الحسن من الألفاظ واستعملوه ، ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحسن اللفظة سبب في استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ، وذلك سبب يدعو إلي وصف اللفظة المفردة بالفضاحة ، ولذلك يري أن الفصيح من الألفاظ هو الحسن ويقول إن هذا من الأمور المحسوسة التي شاهدها من نفسها ، لأن الألفاظ داخلية في حيز الأصوات ، فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن ، والذي يكرهه وينفر منه هو القبيح ، ويضرب لذلك مثلاً بأن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشجر ويميل إليها . ويكره صوت الغراب وينفر منه ، كذلك يكره نهيق الحمار ، ولا يجد ذلك في سهيل الفرس .

ويستمر ابن الأثير في الشوط إلي مداه في حسن الألفاظ المفردة وقبحها ، وير أن لفظه ((المرنه)) ((والديمة)) حسنة يستلذها السمع ، وأن لفظه البعاق قبيحة يكرهها السمع ، وهذه اللفظات الثلاث من صفة المطر وهي تدل على معنى واحد ، ومع هذا فإنك تري لفظتي ((المرنة)) و((الديمة)) وما جري

النظم القرآني في سورة الرعد

مجراها مألوفة الاستعمال . وتري لفظ البعاق وما جري مجراه متروكاً لا يستعمل . وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة . أو من كان غير ذي ذوق سليم ^(١) .

وإذا كان هذا الاتجاه نحو تقدير اللفظة المفرد ، والحكم عليها بمقتضى الحروف التي تألف منها ، وجرس أصواتها على السمع . أي جعل الكلمة المفردة ذات خصائص ذاتية تجعلها حسنة أو قبيحة ... إذا كان هذا يمثل رأي طائفة كبيرة من النقاد والعلماء فإن هناك رأياً مقابلاً لهذا الرأي . هو رأي عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) الذي يصرح ((بأن الكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخولها في التأليف ، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يفيد بها الكلام غرضاً من أغراضه في الأخبار ، والأمر والنهي ، والاستخبار . والتعجب . وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة . وبناء لفظة على لفظة ، وليس بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون أحدهما أدل على معناها الذي وضعت له من الأخرى ^(٢))) .

وليست العبرة عند عبد القاهر باللفظ في ذاته ، وإنما العبرة بالنظم ، ودليل ذلك قوله : ((فقد أتضح إذاً اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة و خلافها في ملاءمة معنى اللفظة لعنى التي يليها ،

(١) المصدر السابق ص ٢٧٣ .

(٢) انظر دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٣٥ التأثير محمد رشيد رضا .

أو ما أشبه ذلك مما ليس له تعلق بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر ..))^(١)

ولا شك أن تعصب عبد القاهر لفكرة النظم التي اعتنقها وشرحها في كتابيه ((أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز)) على ذلك النحو الذي أشرنا إليه من الآراء الجيدة في تقدير حسن الكرم ، فإننا لا نستطيع أن نجد قيمة اللفظة في ذلك النظم ، والذي هو ضم كلمة إلى كلمة ، ولا نجد أن اللفظ الجميل يزداد جمالا بحسن موافقة لما جاوره من الألفاظ ، وهذا التجاوز هو الذي يكشف عما فيه من جمال ويبين عن صفات الحسن الكامنة فيه ، ولا نستطيع أن نقر عبد القاهر على كل ما ذهب إليه ، وكذلك نختلف وع أولئك الذين يجعلون للألفاظ المفردة ذلك الاعتبار إذا لابد من مراعاة اللفظة المفردة بأجراسها ، ومقاطع حروفها ، والدقة في انتقائها ، ومراعاة توافر الحسن في جميع جزئياتها ومن ثم طريقة وضعها في الترتيب بحيث تتلاءم مع ما قبلها وما بعدها ولا نقلل من قيمتها على حساب النظم ، لأن الألفاظ هي اللبنة الأولى اللاتي بهن تتكون الجملة وشبه الجملة في تأدية المعنى المراد وكذلك نعطي الجملة قيمتها من حيث مراعاة حسن الجوار

(١) انظر دلائل الإعجاز لعبد القاهر ص ٣٣ طبعة المراغي

النظم القرآني في سورة الرعد

ووضع كل جملة بجانب أختها ونعطي المعنى قيمته حيث لا غموض ولا إبهام ولا تعمية ولا الغاز .

إذا تبين لنا المزية في النظم وأنه لابد مراعاة الدعائم التي يقوم عليها وهي اللفظ مفرداً والجملة مركبة والمعنى مسوقاً . فلنطبق تلك المزية ولنستظهر بعض أسرار هذا النظم وعناصر في سورة الرعد تلك السورة التي آثرنا أن تكون محور الدراسة في هذا البحث . ((والتي من أهدافها غرس عقيدة التوحيد في النفوس . وانتزاع ما يخالف تلك العقيدة من الضمير والدعوة إلى العمل الصالح المكون للإنسان المهدب الكامل ، الناهض بالجماعة بسن شريعة الإسلام من عند الله))^(١) ونخيلية طبيعة النبوة والرسالة .) مطوفة بالقلب البشري في مجالات وآفاق وأبعاد وأعماق إذ تعرض الكون كله في شتى مجالاته في السموات المرفوعة بغير عمد ، والأرض المبسوطة وما فيها من حركة وسكون كل ذلك لا فرار عقيدة التوحيد في النفوس .

وهي من أعاجيب السور القرآنية التي تأخذ في نفس واحد وإيجاز واحد من بديتها إلى نهايتها ، تفعم النفس وتزحم الحسّن بالصور والظلال والمشاهد والخوارج^(٢))) وهي سورة مكية غير آيتين هما قول الله تعالى : ((ولا يزال الذين كفروا نصيبتهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد)) وقوله تعالى : ((ويقول اللذين كفروا لست

(١) انظر من بلاغة القرآن لأحمد بدوي ص ٢٣٠ الطبعة الثانية . مطبعة نهضة مصر .

(٢) انظر ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الخامس ط بيروت ص ٦٣ ، ٤٤ ، ١١٠ .

مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب)) فإنها مدنيتان وعدد آياتها خمس وأربعون وقيل ثلاث وأربعون وعدد كلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف))^(١) .

وكان من واجبا في هذه الدراسة المتخصصة لهذه السورة الكريمة أن نلم ببديع نظمها وعجيب تركيبها ومحكم فوصلها ورائع صورها لولا أن تتبع ذلك كله واستقراءه لفظاً لفظاً وتركيباً تركيباً وفاصلة وفاصلة وصورة صورة من الآمال البعيدة عن طوق البشر، إذ أنه لا تكفي فيها الإشارات السريعة، أو اللمحات الخاطفة، ولكنها تحتاج إلى النظرة العميقة، والفحص الدقيق عن كل حرف من الحروف، أو صورة من الصور، ولذلك يجد الباحث نفسه مضطراً إلى أن يجتزئ بالقليل ليدل على الكثير. وكما قيل ((حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق)) .

ولذا سنتعرض لخصائص نظم تلك الألفاظ والحروف في طائفة من آيات السورة الكريمة، متفحصين كيف التحمت لبنات هذه الآيات ؟ انتظم من مجموعها ذلك العقد الفريد في أجمل صورة حية كل ذرة في خليتها وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه ؟ حتى يبرز اللفظ وقد أخذ مكانه المقسوم وفق خط مرسوم .

(١) انظر تنوير المقياس من تفسير ابن عباس لأبي طاهر محمد بن يعقوب الاستر ابادي

النظم القرآني في سورة الرعد

فإن دراسة أي نص قرآني تتطلب الوقوف عند لبناته الأولى التي هي المفردات ، لتبين مدى الإصابة في اختيارها ، ومدى تمكنها في موضعها من جملتها وقوة ربطها بأخواتها . ((وكلما ازداد الدارس تعمقاً في فهم النص القرآني ، واستجلأته لأبد أن يقف أمام جلال القرآن الكريم ليدرك معه لماذا أعى العرب وهم أصحاب اللسن والبيان عن الإتيان بسورة من مثله .

والآن لنتبع الآيات من قوله تعالى: ﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ . إلى قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ .. الآية)) .

ولنقف أمام جلال تلك الألفاظ وروعيتها ، ولنلاحظ أن أول ما يطالعنا في بدايتها تلك الفاتحة العجيبة ﴿الْمَرَّةَ﴾ التي لم يزد أن قال العلماء عنها ، وعن غيرها من فواتح السور بمثلها أنها سر هذا القرآن ، وهي مما استأثر الله بعمله .

وحول فواتح السور ذكروا : أن جملتها عشرة أنواع من الكلام منها : ((

الثناء على الله سبحانه)) كما في سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أُنزِلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لِمُعْجَازٍ﴾ والأنعام وغيرهما مما ابتدئ بهذا النوع ومنها الاستفتاح ((بالنداء)) كما أيها المزمّل ، ويا أيها المدثر ، والاستفتاح بالجمل الخبرية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ ، ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ ، ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا

تَسْتَعِجِلُوهُ ﴿١﴾ ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ الاستفتاح بالقسم ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًا﴾
﴿وَالذَّرِيَّتِ ذَرَوًا﴾ ﴿وَالطُّورِ﴾ ، ﴿وَالنَّجْمِ﴾ ، والاستفتاح بحروف
الهجاء كما في سورة البقرة وآل عمران ، والقصاص ، والنمل ، ومريم ، والرعد
وغيرهن إلى آخر ما ذكره عن جملة هذه الأنواع ، وأحصوه)) ولم يكتفي
بعضهم بالقول عن حروف الهجاء أنها سر هذا القرآن ، أو هي مما استأثر الله
بعلمه بل كثر حديثهم عنها وهذه طائفة من الأقوال التي ذكرها قالوا : ((
إن الحروف المقطعة في أوائل السور بمثابة أدوات التنبيه والغرض من استعمال
هذه الحروف إثارة انتباه السامع إلى ما يراد إقاؤه إليه .

وإذا نظرنا في فاتحة سورة الرعد . ألقينا أربعة أحرف هي الألف واللام
والميم . والراء . ولاشك أن مثل هذا الاستعمال أكثر لفتاً للنظر وإثارة الانتباه
مما جرت العادة باستعماله ، وذلك أن المألوف على السمع يمدون أن يحرك في
النفس ساكناً أو يوقظ في الفكر نائماً أو ينبه به غافل فإذا طرق السمع جديد
غير مألوف في أساليب الكلام تحرك الساكن وتنبه الغافل .

ومن هنا فقد جاءت فاتحة سورة الرعد من تحقيق التنبيه التام بما لا يزيد
عليه)) وقل مثل ذلك في السور الأخرى التي نهجت هذا المنهج من الفواتح
وذكروا أن الحروف المقطعة التي ابتدأت بها بعض السور : ((بيان
لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله مع أنه مركب من هذه
الحروف التي يتخاطبون بها ودليل ذلك أن السور المفتحة بالحروف المقطعة

النظم القرآني في سورة الرعد

يذكر فيها دائماً الانتصار للقرآن الكريم وأنه الحق الذي لا شك فيه وأنه الكتاب المعجز وغيره دونه .

فهذه سورة البقرة افتتحت بألف ، لام .. ميم . وبعدهن يأتي قوله تعالى :

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ، وهذه سورة آل عمران

والأعراف ويونس وهود وهذه سورة الرعد : ألف . لام . ميم . را . وبعد تلك

الحروف يأتي قول الله تعالى : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾

ومما نلاحظه في فاتحة سورة الرعد ((وإنها بدأت بحروف من جنس ما ورد فيها .

وهذا البدء آية في التناسب . بل لقد ختمت حروف فاتحتها بحروف الراء وفي

هذا تحقيق للتناسب التام في جو السورة العام الذي كثيراً ما يضطلع به هذا

الحرف كما في ذكر البرق والرعد)) ((ورفع السماوات بغير عمد وبسط

الأرض وبت الثمرات وجريان الأنهار)) .

قال أحمد بن فارس : وأقرب القول في ذلك وأجمعه قول بعض علمائنا أن

أولي الأمر نجعل هذه التأويلات كلها تأويلاً موحداً فيقال : إن الله افتتح

السور بهذه الحروف إرادة منه الدلالة بكل حرف منها على معان كثيرة لا على

معنى واحد فتكون هذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحاً للسور وأن يكون كل

واحد منها مأخوذاً من اسم من أسماء الله تعالى ، وأن يكون الله جل ثناؤه قد

وضعها هذا الموضع قصداً بها وأن كل حرف منها في آجال قوم وأرزاق آخرين ،

وهي مع ذلك مأخوذة من صفات الله جل وعز في أنعامه وأفضاله ومجده وأن

الافتتاح بها سبب لأن يستمع إلى القرآن من ثم يكن يستمع ، وأن فيها إعلماً للعرب أن القرآن الدال على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو بهذه الحروف المتعائلة بينهم دليل على كذبهم وعنادهم وجودهم وأن كل عدد منها إذا وقع في أول سورة فهو اسم لتلك السورة وهذا هو الجامع للتأويلات كلها من غير إطراح لواحد منها ، وإنما قلنا هذا لأن المعنى فيها لا يمكن استخراجه عقلاً من حيث يزول به العذر ولأنه المرجع إلى أقاويل العلماء ولن يجوز لأحد أن يعترض عليهم بالطعن وهم من العلم بالمكان الذي هم به ولهم مع ذلك فضيلة التقدم ومزية السبق والله أعلم ، بما أراد من ذلك)) .

ومن جملة ما قالوه عن فواتح السور. بحروف الهجاء أنها أسماء لسورها وهي سر القرآن وهي مما استأثر الله بعلمه . إلى أهم ما قالوه وأن كان لا يعدو أن يكون اجتهاداً ، ولذلك نجد أكثرهم يتحرزون عند الكلام على مدلول تلك الحروف التي بدئت بها بعض سور القرآن فتراهم يصرون على ذكر هذه العبارة ((الله أعلم بمراده بذلك)) تجنباً لمزالق الاجتهاد . ومن هنا لا نؤثر رأياً على رأي مما قالوه بل نظم أنفسنا إلى أولئك الذين بالغوا في الاحتياط فقالوا الله أعلم بمراده .

بعد هذه اللمسات حول فاتحة السورة ، نمضي مع الآيات متفحصين المفردة القرآنية في كل آية مما ذكرنا ، لننظر مدي ما تميزت به من جمال وقعها في السمع ، واتساقها الكامل في السياق، واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة

النظم القرآني في سورة الرعد

دلالات الكلمات الأخرى .. بل إننا بحاجة ماسة إلى التريث والتدبر فعلنا ندرك شيئاً من سر إيثار لفظة على أخرى ، ووجه ارتباطها بما قبلها وبما بعدها .

فلنأخذ مثلاً لفظة ((أنزل)) من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

الْحَقُّ﴾ ، ولنتأمل مخارج حروفها في القرب والبعد ، كيف جاءت بهذا

التناسق في الإيحاء بأمر المنزل ؟ الذي أضفي على جلاله قدره ، وعلو مكانته بناء تلك اللفظة للمجهول !! وأضف إلى تلك اللفظة ما بعدها من ألفاظ في

قوله تعالى: ﴿إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ وتأمل تلك الإضافة إلى ضمير المخاطب

في لفظة ((ربك)) ففي ذلك تكريم لمحمد صلى الله عليه وسلم . وسمو

بعبوديته لله وحده ، وانظر إلى تعريف ((الحق)) باللام ، ثم محبوه ختاماً لأمر

المنزل وهو القرآن ، وراع لفظة ((يؤمنون)) في آخر الآية . ما بالها اختيرت على

((يعقلون ، أو يتفكرون)) ؟ ما ذاك إلا أن الإيمان بهذا وبمن نزل من عنده ،

وبمن نزل عليه هو مطلب الآية الكريمة . وفي الذروة من هذا الإيمان المطلوب ،

الإيمان بالله خالق كل شيء . وإذا حسن اختيار ((يؤمنون)) على غيرها مما

ذكر وتخير ما شئت من لفظ في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ

تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ عمد ترونها ثم استوي على

العرش وسخر الشمس والقمر ..)) الآية ((وأطلق لنفسك العنان للحديث عن

تلك الألفاظ ووظائفها وسماتها تجدك لا تبلغ معشار ما تحدثت عنه من مدلول ومعنى .

إليك لفظة ((رفع)) تأمل لم أوتر التعبير بها على سمك أو بني أو أسس ما ذاك إلا لأجل تكامل الصورة العجيبة التي رسمتها الآية عن مشهد هائل في العلو ولفظة رفع ينطوي تحتها معنى السمك والبناء والتأسيس فهي أشمل وأوسع في المعنى وأليق في وصف هذا البناء المحكم الذي تتراء في كنهه العظمة معبر عنها ظلال رفع لابني أو أسس أو سمك ، ولاسيما وقد ذكر معها في السياق لفظ الجلالة ((الله)) على حد قوله سبحانه : ((الله الذي رافع السماوات)) وهكذا يمكن إثارة لفظة على الآخر في السياق القرآني فأنت ترى التعبير مثلا بلفظة ((بني)) جئ به في موضع آخر من غير أن يذكر معه لفظ الجلالة كما قال تعالى في سورة ق ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْفَهُمْ كَيْفَ بَيْنَيْنَاهُ ﴾ وفي سورة الداريات : ((وَالسَّمَاءَ بَيْنَيْنَاهُ بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ .

وخذ من الآية أيضا لفظة ((ترونها)) لم عبر بها دون تنظرونها أو تشاهدونها ذلك لأن صيغة ((ترونها)) تحمل معنى الرؤية الكاملة التي لا يحجها ما يبدد النظر يمنه ويسرة لوجاء التعبير ((يتنظرونها)) أو ((تشاهدونها)) . وإنما الرؤية هنا مسطرة على ملكوت السموات للتدبير ، والتفكر وللجمع بين الرؤية الحسية والرؤية العلمية المؤدية إلى اليقين ، ولا يفي بهذا المعنى لفظ ((تنظرونها)) ((أو تشاهدونها)) .

النظم القرآني في سورة الرعد

هذا بالإضافة إلى ما تتسم به لفظة ((ترونها)) من رقة وسلاسة وسماحة ومثل هذه الصفات مقطوع بوجودها في ألفاظ القرآن مع صفات الضخامة والحزاليه . والقوة . فالبحث عنها تحصيل حاصل . وإنما المهم البحث عن الأسرار التي بها صار القرآن مستجمعاً لتلك الصفات كلها .
واليك لفظة أخرى في سياق آخر تلك صيغة ((سخر)) من قول الحق سبحانه وتعالى ((وسخر الشمس والقمر..... الآية)) .

إنها لفظة موحية بالقوة والعظمة من خلال ظلالها وبنيتها إذ جاءت بلفظ الماضي المضعف ، فهي كبيرة في مدلولها ، قوية في بنيتها ذلك بجانب الحديث عن آيتين كبيرتين عظيمتين ، هما الشمس والقمر فاختير التعبير بها على غيرها مما يؤدي معنى ((التسخير)) ((كأمر)) ، أو ((جعل)) أو ((ذلل)) لأن الآية هنا ترسم مشهداً عظيماً فيه منافع جليلة لعموم المخلوقات ، ومثل هذه المنافع مجتمعة تقصير في أدائها لفظة أمر . أو جعل . أو ذلل . فأنت تلاحظ في آية أخرى حيث كان الحديث عن نعمة واحدة هي الإضاءة وتبديل الظلمة العتمة ، أنه كفي في هذا المعنى ما هو دون التسخير مبني ومعنى ذلك هو لفظ ((جعل)) من قوله تعالى ((وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجاً)) وإذا أنت أنعمت النظر في لفظة سخر وجدت أنها سيقت للحديث عن نعم كثيرة تفيدها الشمس والقمر مسخرين من عند الله ففي الشمس وطاقاتها الحرارية منافع للإنسان والحيوان والنبات وفي القمر زينة للكون

وتبصير الناس بضبط المواقيت والحساب وفيهما معاً دلالة لمن أراد التفكير في ملكوت الكون تدعو إلى الإيمان بخالقه ومبدعه وفي الإيمان طمأنينة لنفس المؤمن في الحياة الدنيا وثواب من الله في الحياة الأخرى ومن ذا الذي لا يطمع في الحصول على تلك المنافع ؟ ومن ذا الذي ليس بحاجة إلى منافع الشمس والقمر تلك المنافع التي لم يف في التعبير عنها لفظ غير صيغة سخر .

ونمضي الآن مع الآية الكريمة بحثاً عن الألفاظ كيف اتسقت وعلى أي

هيئة جاءت ، إليك قوله تعالى : ﴿يَدْبِرُ الْأَمْرَ يَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ إنك إزاء

صيغتين لفعالين مضارعين هما يدبر ويفصل وفي التعبير بهما على تلك الهيئة ما يفيد التجدد والحدوث والاستمرار لأن تسخير الشمس والقمر وما يجري معهما في العالم العلوي وما يفيد منها العالم السفلي كل ذلك في حركة دائبة ونهي وتدبير لا ينقطع ولا يفتر مع طول الزمن وتعاقب الأيام وأعظم من ذلك مجي الفعل ((يدبر)) يليه لفظ مفرد هو مفعول له . وهو لفظة ((الأمر)) من قوله تعالى : ((يدبر الأمر)) ثم يجئ الفعل ((يفصل)) وبعدها مفعول به جمع ، وهو ((الآيات)) من قوله تعالى : ((يفصل الآيات)) ذلك لأن التدبير يكون في شأن واحد ، والتفصيل يكون في أكثر من شأن ولذا جاء المفعول في السياق الأول بلفظ المفرد ، جاء المفعول في السياق الثاني بلفظ الجمع . بالإضافة إلى التغير حتى لا يسير الكلام على نمط واحد لأن هذا التعبير مدعاة لنشاط القارئ والسامع . واستمع لقول الحق جل ثناؤه : ﴿وَهُوَ

النظم القرآني في سورة الرعد

الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى
الَّيْلَ النَّهَارَ .

وتأمل ذلك التعبير البديع بلفظ مد . وجعل . ويغشي ، فتلك ألفاظ سهلة في مبناها قوية في معناها ، والذي يسترعي النظر هنا هو أيثار التعبير ((بمد)) دون بسط . أو وسع أو دحا أو خلق . أن في اختيار ((مد)) على غيرها من مرادفتها لدلالة على بعد أقطار الأرض وسعتها ، ودلالة على قدرة الله على تذليلها لكافة المخلوقات ، ولا يؤدي تلك المعاني لفظ أشمل من ((مد)) كبسط ونحوه مما ذكر إذ قد يتراخي للسامع أن البسط ، أو التوسعة كانا في جهة دون أخرى .

ولكن لما قال سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ دلنا هذا النظم على عظم القدرة على خلقها وبسطها من جميع جهاتها . وألاحظ الفعل ((جعل)) وما تضيفه ظلاله على معنى الإيجاد الذي لا يعجز الله وقوعه في أي وقت وفي أية بقعة من الأرض بل هو أهون عليه ، وافطن لللفظة ((كل)) في قوله : تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وتأمل ما تحمله تلك الصيغة من الدلالة على العموم المطلق بجانب الفعل ((جعل)) الذي لم يحدث تكراره خدشاً في تناسق الآية ، بل جميع الألفاظ جاءت رتيبة الجرس . والإيحاء في تناسق بديع مع لفظة ((مد)) السابقة عليها . ثم تدبر لفظة ((يغشي)) كيف لاءمت موقعها إذ

جاءت بجانب لفظة ((الليل)) لما توحى به حروفها من معنى للظلمة فهي غشاء سائر لضوء النهار .

واستشعر بديع تلك الصورة العجيبة التي رسمتها ظلال الألفاظ

التالية من قوله تعالى : ﴿ قَطَعَ مَتَجَوَّرَاتٍ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرَعَ وَنَخِيلٍ ﴾ .

والذي يعنينا هنا هو الوقوف على الألفاظ . كيف التأمت ، وتناسقت ؟

وأما الكلام على الجانب التصويري فسيأتي مفصلاً في موضوع آخر من هذا

الدراسة .

تأمل لم وصفت هذه القطع ((متجاورات)) ؟ ولم يقتصر على ذكر

الأعناب من بين سائر صنوف الفواكه ؟ ثم لم الجمع في لفظ جنات وأعناب

والأفراد في لفظ ((زرع)) والجمع في لفظ ((النخيل)) ؟ إنه نظم بديع محكم

نسخ إطراره من ألفاظ ذات رصف عجيب ، فلفظة جمع بجوار أختها ، وبينهما

مفرد لم يبعج حولاً عن مكانه ، ولم ينب عن قرينه ، ناهيك بسر الاقتصار على

لفظة ((أعناب)) واختيارها على غيرها من سائر أنواع الفواكه ففي ذلك

إيماءة إلى أن من عنده أدنى تفكير لا بد أن ينظر إلى هذا اللون من النعم ، في

حجمه وطعمه ، وشكله الشفاف ، الذي يحمل قطرة من الماء ثم يصبح من

أشهى ما يتناوله البشر.

وتأمل التعبير بصيغة ﴿ تَغِيضُ ﴾ و ﴿ تَزْدَادُ ﴾ وصيغتي : ﴿ الْكَبِيرُ ﴾

﴿ الْمَتَعَالِ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا

النظم القرآني في سورة الرعد

تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾
أي ألفاظ أوفي في أداء المعنى من ((تفيض وتزداد)) .

لِمَ لم يأت التعبير : بتنقص بدل ((تفيض)) وبتنمو بدل ((تزداد ؟))
تأمل بإمعان أن خلقة الجنين في الرحم متوارية ممعنة في الخفاء عن الأنصار لا يعلم أحد من البشر كنه هذه الخلقة ، وما يعتر بها من تقلبات إلا الله خالق كل شيء . ولفظة ((تفيض أكد في أداء المعنى ، وأبعد في الإحاطة مما يجري للجنين . من التعبير ((بتنقص)) توحى بذلك حروف)) تفيض المضفية صفة الجزالة على اللفظ ، أما التعبير ((يزداد)) فليس هنا لفظة أليق منها بمكانها لأن التأمل قد يلمس من وراء مدة الجنين بعد طولها ما يعينه على رعاية الحمل والتلطف في الإشراف على الجنين وعلى أمه حتى يزداد سلامة كلما ازداد خلقه .

وأما قوله : ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ فليست هناك ألفاظ أجزل ، وأفخم وأمعن في التدرج بوصف الذات العلية ، بالكبرياء ، والعلو المطلق منهما ، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئاً عن لفظة ((المتعال)) إلا أن يفسرها بها وكفي .

وتأمل لطائف التعبير بلفظة ﴿ مُسْتَخْفٍ ﴾ دون مخفف ، وسارب دون ذاهب أو سائر ذلك لما تحمله لفظة ((مستخف)) من كثافة في المعنى على أكمل وجه تقصير دونه لفظة مخفف ، أو يختفي . ولاشك أن الزيادة في المبني تدل على الزيادة في المعنى .

ومما يستوقف المتأمل مقابلة ((مستخف يسارب تلك اللفظة التي بظلمها تعطي زيادة في المعنى على مبناها ، فظلمها ظل خفاء ، أو قريب منه ولكن الحركة فيها هي المقصودة في مقابل الاستخفاء ...)) فتم التقابل العجيب الذي يدركه كل من يملك أدنى ذوق بأجواء التعبير يضاف إلى ذلك إيثار القرآن الكريم لهذه الألفاظ العالية التي لم تبتذلها ألسنة عامة أصحاب اللغة .

وانظر لحسن التناسب بين الألفاظ في قوله : ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ

شَدِيدُ الْحَالِ﴾ وراع حسن الجوار بين لفظة ((شديد)) ولفظة المحال وقوة الترابط بينهما ، إذ لما كانت لفظة ((المحال)) توحى بالقوة في مدلولها ومعناها ، تقدمتها لفظة ملائمة لهذا المدلول فجاء التعبير ((شديد)) دون عسير أو شاق مثلا ، وهذا كله عن الألفاظ مفردة فكيف بأسرار النظم في التركيب؟



وإذا كان هنالك خلاف في تقدير اللبنة الأولى في العمل الأدبي . وأعني بها اللفظة المفردة بين عبد القاهر وغيره من النقاد الذين أشرنا لم إلى آرائهم فيما سبق . فإننا لا نجد أثراً لهذا الاختلاف في مزية التركيب ، أو التأليف . أو النظم الذي تضم فيه اللبنة بعضها إلى بعض حتى تفيد الغرض الذي من أجله تصاغ العبارة . فإن أولئك الذين أشدوا باللفظة المفردة لم يستطع واحد منهم أن ينكر فضل التأليف ، أو النظم . أو التركيب . أي أنهم جميعاً يلتقون

النظم القرآني في سورة الرعد

مع عبد القاهر، في اعتبار قوة التركيب، وحسنه، وتنسيقه وأنه صاحب الأثر الأوفى في تقدير الكلام. فإذا كان قدامه بن جعفر مثلاً. قد وصف اللفظة المفرد مما أسلفنا من الأوصاف فإنه يولي النظم الذي يسميه ((بالائتلاف)) عناية كبيرة، فيقرر أن اللفظة قد تحسن من حيث هي لفظة مفردة، فإذا نظر إليها مؤتلفة أي منظومة مع معناها، ومع وزنها، ومع ما تقتضيه قافية البيت في الشعر اكتسبت مزية أخرى، أو أصابها شيء من القبح.

ويطلق قدامه كلمة ((النعوت)) على المحاسن التي يفيدها الكلام من هذا الائتلاف، ويجعل في مقابلها العيوب، وليس يسمح المجال في هذا المضمار ببسط تلك النعوت أو العيوب كما أوردتها.

وكذلك ضياء الدين بن الأثير. الذي نراه بعد أن أفرد الألفاظ المفردة بالبحث عن أسباب حسنها أو أسرار قبحها يتكلم طويلاً عن التركيب.

وإذا كنا قد أفردنا بالإشارة بعض الألفاظ المفردة في طائفة من آيات السورة، وذكرنا شيئاً مما تمتاز به على غيرها من مرادفاتها. فليس يفوتنا أن ننتبه إلى أن السياق كان له أبعد الأثر في تخير هذه الألفاظ على النحو الذي أشرنا إليه، فهذه الألفاظ وحدها في غاية السمو كما فصلنا، وازدادت جمالا وجلالا بنظمها في التركيب الجملي الذي اقتضاها دون غيرها.

وليس ما يفتش عنه النقاد هو محصل ما يصل إليه الكاتب أو الشاعر في صناعته من الجودة وعدمها قوة وضعفاً، لأن نظرتهم إلى القرآن الكريم في

أسلوبه لا تختلف بحال من الأحوال فهو آية في السمو ، والجودة ، والإعجاز البياني ، ((وإذا كان الكلام يتركب من ثلاثة حروف هي من الأصوات . وكلمات هي من الحروف ، وجمل هن من الكلم فسر الإعجاز في نظم القرآن الكريم هذه الأنواع كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة التي قامت به فألفاظه كيفما أدرتها ، وكيفما تأملتها ، وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها زمن أي جهة وافقتها فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة ، والحلاوة البادية ، والانسجام العذب)) ((وإذا صارت اللفظة مركبة فإن لتركيبها حكماً غيرها مفرده وذلك لأنه يحدث من أثر التركيب فوائد من التأليفات والامتزاجات ، حتى ليخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة)) وإذا فأسرار بدائع التركيب كامنة في النظم فلنبحث عن هذه البدائع في النص الكريم من قوله تعالى ﴿ الْمَرْتَلَاءَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ الآيات حتى قوله : ﴿ وَمَادَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ ولنتفحص الأسباب التي من أجلها قدم جزء ، وأخر جزء ، ولماذا حذف هنا وأثبت هناك ؟ ولم جاء التعريف هنا وهناك التنكير ؟ ولم استعمل الخبر في موضع الإنشاء ، ولم عبر بالمجاز مرة وبالحقيقة أخرى ، وكيف حسن هنا التشبيه ، وراق في موضع الجنس ، إلى غير ذلك من مباحث تتصل بشأن التركيب والمعنى في الجملة والجملتين)) .

النظم القرآني في سورة الرعد

وقبل أن نفضل القول في روعة نظم هذه الآيات ، أري من الواجب أن نجمل الأغراض والمقاصد التي نرمي إليها .

وأول ذلك افتتاح السورة بما يلخص موضوعها كله ، ويشير إلى جملة قضاياها فبعد الانتصار للقرآن الكريم ، وأنه حق لا مرية فيه يبدأ سياق الآيات في استعراض آيات القدرة ، وعجائب الكون . الدالة على قدرة الخالق ، وحكمته وتدبيره الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس ، وأن يكون هناك بعث ونشور ، وحساب وجزاء .

ويستمر السياق في تفصيل آيات القدرة ، فتعرض السماوات مرفوعة بغير عمد ، معروضة على الأنظار هائلة في شكلها وعلوها دون دعائم تقوم عليها ، ومن هذا المنظور الهائل ينتقل السياق إلى ما هو أعظم هولاً ، إلى المغيب الذي تتقاصر دونه المدارك والأبصار ، من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ ﴾ وتضح لكل ذي عين وعقل مدي قدرة الله المحيط بكل شيء فمع الاستعلاء والتسخير تقترن الحكمة والتدبير . كل يجري لأجل مسمى إلى حدود مرسومة ، ووفق ناموس مقدر ، ثم يهبط العرض التصويري الهائل من السماء إلى الأرض ، فيرسم لוחتها العريضة الأولى ، ويبدأ في تخطيطها وبسطها وانفساحها بخطوط جزئية أدق من الخطوط العريضة الأولى . إذ يقول تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْ مَّجْرُورَاتٍ مُّجْتَوِرَاتٍ وَمِنَ الْأَعْنَابِ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صَبْوَانٌ وَعَظِيرٌ صَبْوَانٌ ﴾ الآيات ، وثم يرمي السياق إلى ما هو أكبر وأسمى غاية ، ذلك

هو طلب الإيمان بخالق هذا الكون البديع ، وما فيه ، وهذا المقصد يأتي بطريق التعجب من أمر قوم يلزمهم الإيمان ، لكنهم يأبون إلا الكفر تجبراً وعناداً .

﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ أَلْفَىٰ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ما لهؤلاء لا

يؤمنون ؟ فإن الذي خلق هذا الكون الضخم ودبره على هذا النحو قادر على إعادة الأناسي خلقاً جديداً ، لكن إنما هو الكفر المسيطر على العقول والأفهام

﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ إن هذا الكفر لا يملك معه فرد من هؤلاء

المعاندين إلا الوقوف أمام المبلغ الكريم ((صلوات الله وسلامه عليه)) بطلب الخوارق والمعجزات ، وتلك حجة من غلب على قلبه الكفر والظلال واستحوذ على عقله العناد فلج في كبريائه الساقطة .

ويعرض السياق في الآيات : وجوه الهداية وطرق الإرشاد لهؤلاء

ولغيرهم ، وأن عليهم النظر ، والتأمل في أفاق الكون ، وآيات الله الماثورة في السماء والأرض ، وأن عليهم التفكير والاتعاظ فلينظروا إلى مصارع

الغابرين الذين استعجلوا عذاب الله فأصابهم ، وتركهم مثله يعتبر بها من

بعدهم ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ﴾ ،

ويمضي سياق الآيات مقدماً مغفرة الله على عقابه في مقابل تعجل هؤلاء

الكارفين الغافلين ، ليبدو الفارق الكبير بين الخير الذي يريده الله للناس والشر

الذي يريده الناس لأنفسهم ، ومن وراء هذا الشر يظهر انطماس البصيرة ،

النظم القرآني في سورة الرعد

وعمى القلب ، والانتكاس الذي يستحق درك النار . وتلك الأغراض تجمعها الآيات الكريمات من قوله تعالى :

﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالْوَلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

ويستمر عرض تلك المقاصد السامية منتهية بالجولة الأولى في الأفاق، والتعقيبات عليها حتى يبدأ السياق جولة جديدة في وادٍ آخر، في الأنفس والمشاعر والأحياء من قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ .. إلى قوله

تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ آفَافٍ لَمْ يَرُدَّهُمْ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ نلاحظ في مرامي تلك الأغراض والمقاصد : تقرير المبدأ وإبراز حالة تغيير الله ما يقوم .

إلى السوء لأنهم كانوا السبب في ذلك ((فليس الله بظلام للعبيد)) ثم يستمر العرض فيأخذ سياق تلك الآيات جولة جديدة أخرى في وادٍ آخر موصول بذلك الوادي الذي تحدثت عنه الآيات الأولى في مطلع السورة ، ذلك معرض تجتمع فيه مناظر الطبيعة ، ومشاعر النفس الإنسانية متداخلة متناسقة في الصور والظل في مشهد تخيم عليه الرهبة والضراعة ، والجهد والإشفاق ، وتظل النفس فيه في ترقب وحذر ، وفي تأثر وانفعال ، نلاحظ ذلك

في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ

الْثِقَالِ ﴿١١﴾ وَيَسِيحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ
بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴿١٢﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَمَادُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ﴿١٣﴾ (١)

ولنبداً الآن في تحليل نظم هذه المعاني ، وتلك المقاصد والأغراض التي

ضمها إطار الآيات من مطلع السورة إلى قول الله عز وجل ﴿وَمَادُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ﴿١٣﴾ وبأدنى تأمل نلاحظ أن أول ما يطالعنا في تركيب هذه الآيات . تنوعها ، وتفوتها من حيث الطول والقصر على حسب ما يقتضيه معنى هذه ، أو تلك . لفقد ساقط الآية الأولى من السورة معنى ((الانتصار للقرآن الكريم ، وأنه الحق الذي لا مرية فيه)) ، ولم يتطلب الموقف هنا سوي ثلاثة مقاطع من الآية هي قوله : ((تلك آيات الكتاب)) وقوله : ((والذي أنزل إليك من ربك الحق)) وقوله : ((ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)) ولما بدأت الآيات في عرض القدرة الإلهية جئ بثمانية مقاطع هي قوله : ((الله الذي رفع السماوات)) وقوله : ((بغير عمد ترونها)) وقوله ((ثم استوي على العرش)) وقوله : ((وسخر الشمس والقمر)) وقوله : ((كل يجري لأجل مسمى)) وقوله : ((يدبر الأمر)) وقوله ((يفصل الآيات)) وأخيراً ((لعلكم بلقاء ربكم توقنون)) . وهكذا حتى نستقرئ الآيات جميعاً في هذه المجموعة بل ستجد ما هو أبداع ، وأروع ، وذلك فيما يظهر من تنوع التركيب في كل مقطع من مقاطع الآية الواحدة من جملة اسمية ، إلى جملة فعلية .

(١) من تفسير سورة الرعد في الظلال لسيد قطب

النظم القرآني في سورة الرعد

فهذه مثلاً . جملة ((الله الذي رفع السماوات)) تعقبها متراخية عنها جملة ((ثم استوي على العرش)) وتأتي بعد ذلك جملة ((سخر الشمس والقمر)) فالأولى أسمية تعطي معنى الثبوت والاستمرار، فلا أحد غير الله سبحانه . رفع السماوات وثبتها بغير عمد، فهي مستمرة على هذا العلو المتناهي الثابت الذي لا يزول، وثمة جملة أخرى تفيد معنى التجدد والحدوث وذلك مثلاً في قوله تعالى: ((وسخر الشمس والقمر)) فمن ذا الذي يذلل هذين الفلكين . ويسخرهما لمصالح البشر، وفق قاموس طبيعي متجدد فنهار يعقبه ليل، وليل يعقبه نهارن في حركة متكررة دائبة لا تفتقر؟ لا أحد غير الخالق الكريم الذي أبدع خلقهما على هذا النحو العظيم . وتأمل بديع صلة قوله تعالى: ((ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)) بالجملة التي تليها من قوله في مطلع الآية الثانية ((الله الذي رفع السماوات)) ووجه الصلة بينهما: أن الأولى نعت الإيمان على كثير من الناس، لكن هذا الإيمان بمن؟ أنه الإيمان بالله الذي رفع السماوات بغير عمد . حقاً أنه تركيب تستلهم معناه القلوب، وترعاه العيون . يأتي بعده السياق معنى أدق وأعظم يغيب عن مدارك البشر جميعاً، ذلك هو قول الله سبحانه: ((ثم استوي على العرش)) ولأمر ما جاء العطف ((بثم)) دون غيرها من حروف العطف! إن هذا الحرف يعطي مهلة للتأمل لينظر أهو قادر على كتناه ذلك العلو المطلق، والاستواء الغيبي الذي لا تدركه الأبصار . ويأتي بعد ذلك في السياق العطف بالواو، الذي لا يقتضي غير التشريك بين

جملتين ، وفي هذا إيماءة إلى مدي إحاطة علم الله ، وقدرته . فكونه تعالى عليّ على خلقه بائن منهم فإن علمه وقدرته محيطه بكل شيء ، ولذا جاء قوله تعالى : ((وسخر الشمس والقمر)) بعد قوله : ((ثم استوي على العرش)) . وافطن إلى قوله تعالى : ((يدبر الأمر ويفصل الآيات)) ما لهذه الجمل

جاءت من غير عطف بثم أو الواو . أو حروف آخر من حروف العطف ؟

إن الأمر ليس يخضع لتقنين البلاغيين ومصطلحا تهم ، كقولهم : عطف على تلك الجملة لكمال الانقطاع ، وترك العطف لشبه كمال الاتصال ((مثلا)) وإنما الأمر أدق وأبدع من ذلك . ونلاحظ براعة النظم في عملية التدبير ، والتفصيل اللذين لا يعجز الله شيء منهما . فاتصاليهما مركبين في التعبير من غير عطف يتم عن اتصاليهما الوثيق بعلم الله ، وقدرته المسيطرة التي لا تنقطع ولا تنفصل بحال من الأحوال .

والحظ كيف ختمت الآية الأولى في السورة بقوله تعالى : ((لا يؤمنون)) دون ((لا يتفكرون أو لا يعلمون مثلا)) وختمت الآية الثانية ((بتوقنون)) دون تصدقون ليس هذا الختام لتوافق الفاصلة القرآنية فحسب ، وإنما لكون الآية الأولى ذكرت في سياقها معاني القدرة الإلهية من رفع السماوات والاستواء ، تسخير الشمس والقمر وتلك الأمور تستدعي أن يكون الختام ((بتوقنون)) دون تصدقون ، فدرجة اليقين أعم وأكبر من التصديق واليقين بالشيء أصل التصديق به .

النظم القرآني في سورة الرعد

والحظ هذا التناسق العجيب في سياق الآيات ، إذ لما انتهت من عرض القدرة الإلهية في العلوم ، أعقبت بعرض القدرة ومظاهرها في السفلى . على حد قوله الحق تبارك وتعالى : ((وهو الذي مد الأرض .. إلى قوله إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)) والإطار الذي يكتنف . عرض هذه المعاني الشريفة السامية منوع بجمل اسمية وأخرى فعلية ، مرة مؤكدة ومرة غير مؤكدة ومما يسترعي النظر في هذا السياق توالي ثلاث جمل مصدرة بفعل ماض من قوله تعالى : ((مد الأرض جعل فيها رواسي)) ، وقوله : ((وجعل فيها زوجين)) وبعد هذه الأفعال تأتي جملة ((يغشي الليل ونهار)) ما سر افتتاح هذا التركيب بالفعل المضارع ((يغشي)) ؟ أليس مد الأرض ، وبسطها وتشبيتها بالجبال الراسية ، وبث الثمرات في جنباتها من الدلائل على عظمة الخالق ، وقدرته ؟ أنه لذلك ، ولكن فرط ألفة الناس لهذه المخلوقات ، ويقاؤها صامته جامدة قد يهون عليهم أمرها ، دون تدبر واعتبار طويلين ، أما آية الليل ، وآية النهار فهما آيتان كبيرتان ، في أحدهما طلب المعاش ، وفي الأخرى طلب السكون فالكيفية البشرية فيهما متجددة نشيطة مستمرة .

ولذا جاء التعبير بالمضارع الدال على التجدد والحدوث . وأخيرا تأمل ختام الآية إذ جاء مؤكدا بأن واسمية الجملة ، وأنتها بقوله : ((يتفكرون)) دون يعقلون مثلا ، لأن في هذه المخلوقات ، وبديع صنعها ، وتسخيرها ما يستوجب التفكير ، والتأمل في ملكوت الكون ، ثم سر مع الآية من قوله : ((وفي الأرض

قطع متجاورات)) إلى قوله : ((لقوم يعقلون)) أنه نمط من القول رفيع ، تتوالى تراكيبه في عرض الجزئيان الدقيقة للأرض بعد رسم الخط العريض لخلقها والغرض منها ، فبعد أن قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ ثم بين فيها من منافع لعموم المخلوقات قال مفصلاً : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابٍ ﴾ وكذا وكذا . سبحان الله !! ما من تركيب أو جملة إلا وتأتي حاملة في ثناياها معنى أضخم وأعظم من إطارها فجملة ((وفي الأرض قطع متجاورات)) أربعة ألفاظ فقط ، لكن من ذا الذي يستطيع عد قطع الأرض ، وحصرها وجمع صفاتها ؟ إن هذا من بلاغة الإيجاز في أسلوب القرآن الكريم ، وأعظم منه طريقة حرث هذه القطع ، وما ينبت فيها وما يخرج منها وأعظم منها سقيها بماء واحد ثم اختلاف ما تنتجه . في اللون والطعم والحجم والرائحة ... ولسر ما جاءت جملة ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ مصدره بالفعل المضارع ((يسقي)) دون أسقيناه . ففي الأول استمرار لتنوع الثمرات ، واختلافها على الرغم من سقيها بماء واحد ، وفي ذلك استمرار القدرة المهيمنة على كل شيء . وأخيراً تأمل ختام الآية بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . نعلم أن في خلق هذه المخلوقات ما يستثير العقول ، ويدعوها إلى التدبر والتفكر، فليس الأمر مجرد حدث أو شعور ، ولكنه قضية تخاطب العقل أولاً ، وتستلهب الشعور ثانياً .

النظم القرآني في سورة الرعد

ومما نلاحظه في تراكيب هذه الآيات مجملة تنوعها من جملة فعلية إلى اسمية مؤكدة وغير مؤكدة، إلى ما هو مصدر بالاستفهام وغيره ، وكل ذلك أكسبها جدة وحيوية .

وخذ الآن قوله تعالى : ((وإن تعجب فعجب قولهم .. الآية)) واستشعر ارتباطها بما قبلها ، إنه تقرير ((لذكر مسألة المعاد ، لأنه سبقه عرض هائل لذكر الدلائل القاهرة على ما يحتاج إليه أمر المبدأ ^(١) فجاءت هذه الآية بهذا الربط المحكم البديع على الرغم من طول النفس بينها وبين إختوها . ولم يزل المعنى حياً ينبض بالحركة المتواصلة ، وثم اتل قول الله تعالى : ﴿أَمْ ذَا كُنْتُمْ بَرًا أَمْ نَأْتِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إلى قوله : ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وتأمل ما اشتملت عليه من الجمل فقد ضم إطارها ست جمل . على الرغم من قصر هذا الإطار والاهم من ذلك صفات تلك الجمل وطريقة نظمها ، إنها في عمومها جمل اسمية ، مصدرية بالاستفهام في بعضها ، وهذا الاستفهام إنكاري ، ذلك لأن المعنى الذي تسوقه : هو إنكار الكافرين مسألة المعاد ، ولما كان الإنكار منهم قوياً يؤكد عدم إيمانهم بما وضع لهم عن شأن . توالت التأكيدات بالجمل الاسمية حسماً للموقف

وتأمل ذلك الربط العجيب بواسطة حرف العطف ، وما أحدثه من تناسق صوتي يملأ جرسه الفم ، ويقرع الأذان . وراع ذلك التكرار بلفظة

(١) انظر تفسير الرازي الجزء ١٩ ص ٨ الطبعة الأولى ، المطبعة البهية بمصر ١٣٥٧

﴿أُولَئِكَ﴾ الذي بواسطته أدت الجمل معناها وافياً وقررت ما يستوجبه أمر هؤلاء المنكرين الذين غلت عقولهم أبوا إلا عمي البصيرة عن الحق . فالأغلال والنار جزاء لهم من جنس عملهم .

لقد تدرج وصف العذاب مما هو شديد إلى ما هو أشد إمعاناً في الكناية بهؤلاء المنكرين لإمعانهم في الكفر والضلال .

وانظر ختام الآية من قوله تعالى : ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وتأمل ما أحدثته بلاغة التقديم وتوسيط ضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ بين الصدر والعجز ففي ذلك تأكيد العذاب بالخلود فيه ، وليس لمنكري البعث فحسب ، وإنما للجمع المدلول عليه بقوله وسط الآية : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾^(١) وقد وافق توسيط الضمير في آخر الآية ، توسيط لفظ الكافرين في صدرها فأى إحكام يبلغ مثل ذلك ؟

ثم يمضي السياق في قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ إلى قوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهنا أربع جمل : اثنتان منهن في صدر الآية ونوعهما فعليتان _ الأولى فعلها مضارع - والثانية ماض مصدر بقصد . واثنتان اسميتان جاءتا في عجز الآية . مقابلة ونسج بديع فمضارع يدلي على التجدد والاستمرار ، لأن الآية تسوق معنى هو تمادي الكافرين في غيهم ،

(١) انظر تفسير أبي السعود الجزء الثالث ص ٢٠١ مطبعة السعادة بمصر

النظم القرآني في سورة الرعد

واستمرارهم عليه بعدم الإيمان الذي ينم عنه طلبهم تعجيل العذاب ، وماض مصدر بقدر تحقيقاً لوقوع العذاب إذ قد حل بمن قبل هؤلاء .

ثم تأتي النتائج المترتبة تحملها الجملتان المؤكدتان بالاسمية واللام وهنا مغفرة في جانب الحسنه ، وعقاب في جانب السيئة . تقابل عجيب من جنس ما يعمله الناس ، ومما يسترعي النظر ذلك الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾^(١) إن كان من منة فهذا أمن . بل شمول صفحه تعالى عن الناس ، ومغفرته لمن شاء منهم أرحب وأعظم . بعد ذلك راع ختام الآية الكريمة إذ جاء بهذه النقلة السريعة في الفاصلة المبنية على حرف الباء وقبله حرف مد يد الصوت هو ((الألف)) ، بينما فاصلة الآيات السابقة جاءت منتهية بحرفي الواو والنون ، وفي ذلك تنويع يتجدد معه نشاط السامع والقارئ .

واعلم أن هذه الآية ((قررت طعن الكفار في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبطلبهم استعجال العذاب ، وتكذيبهم بمسألة الحشر والنشر فتوالي السياق مثبتاً طعن الكفار في نبوة صلى الله عليه وسلم بطلبهم المعجزة والبينة^(١))) على حد قوله تعالى : ((ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكم قوم هاد)) هنا يبرز الترابط المحكم بين تراكيب الجمل إذ تكشف عما أراد كفار مكة ، واقترحوه على النبي صلى الله عليه

(١) انظر تفسير الرازي الجزء ١٩ ص ١٢ الطبعة الأولى ١٢٥٧هـ المطبعة البهية بمصر .

وسلم، وتبين صرف الله لهم عما طلبوا مقررة وظيفه النبي الكريم في الهداية والإرشاد.

وقد قال العلماء في وجه نظم هذه الآية : ((أنه تعالى لما حكي عن الكفار أنهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتى به رسول صلى الله عليه وسلم بين أنه تعالى عالم بجميع المعلومات فيعلم من حالهم أنهم هل طلبوا البيئات الأخرى للاسترشاد وطلب البيان ؟ أو لأجل التعنت والعناد ، وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات ، أو يزداد استكبارهم وإصرارهم .

لا جزم أنه سبق في علمه المحيط بكل شيء أن طلبهم هذا إنما هو لمجرد العناد المحض فمنعوا من تحقيق ما طلبوا^(١) .

وفي الانتقال من أسلوب الخبر إلى الإنشاء في تراكيب الآية الكريمة ما يجدد نشاط السامع ، ويعينه على فهم المعنى المراد ، وأخيراً تأمل تقييد طلب هؤلاء الكفار بقول الله عنهم : ((آية من ربه)) كيف وليه الجواب مقيداً . ومقصوراً ((بإيمان)) في قوله : ((إنما أنت منذر)) ثم عطف على هذا الجواب قوله تعالى ((ولكم قوم هاد)) إن في ذلك من حسن الختام ما يفحم كل خصم . وأعجب من ذلك تناسق الآية في مجمل تراكيبها وجملها ، تقاربها في مجموعها فهي من شقين :

(١) المرجع السابق ص ١٤، ١٥

النظم القرآني في سورة الرعد

الأول : في إيراد الله سبحانه مقاله الكفار . واستهزائهم برسوله صلى الله عليه وسلم وذلك بين من إسناد الرب إلى الضمير العائد إلى الرسول في قوله : ((من ربه)) أي كان رب له وحده . وليس رباً لهم في زعمهم .
والثاني : في الرد عليهم من جملتين اثنتين هما : ((إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد)) . وقد جاءتا مؤكدتين بالاسمية مع ما فيهما من قوة الحصر بإنما إحكام وتناسق عجيب .

وإمعن النظر في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ وتفحص أسرار هذا التراكيب في مدي تلاحمها ، وترابط جملها .

لقد قررت الآية السابقة ، والخاصة بمطالبة الكفار المعجزة من النبي صلى الله عليه وسلم أن علم الله محيط بكل شيء ، ولذا صرفهم عما طلبوا لعلمهم أنهم لا ينتفعون بهذا الطلب ثم جاء السياق مفصلاً علم الله الذي لا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ، ولا في السماء .

ولم يزل الترابط والإحكام في نسق الآيات متواصلاً إذا لما تحدثت الآية من قوله تعالى في أول السورة : ((وأن تعجب فعجب قولهم إذا كنا تراباً أنا لضي خلق جديد)) لما تحدثت عن مبدأ المعاد جاءت آية ((الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزداد)) ، لتقرر مبدأ الخلق والإيجاد مثبتة قدرة الله في الحالين .

والآن خذ الجملة من قوله : ((الله يعلم)) ، وتأمل سر تقديم لفظ الجلالة ((الله)) على الفعل يعلم . إن في ذلك تمكيناً لقدرة الله وتاماً لعلمه أفاده ما في العبارة من قصر وتخصيص استفيد من الجملة الاسمية .

والحظ هذه التقابلات العجيبة في صيغ هذه التراكيب المتفقة في الشكل فكلها من فعل واحد مضارع هو : يعلم ، تحمل ، تفيض ، تزداد ، وفي ذلك إشعار بالتجدد ، واستمرار علم الله ، وقدرته على الخلق ، ثم هذا الختام للآية في قوله : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ فهو يقدر الأمور بحكمته ، وعلمه ، وإرادته . لقد فصل في شق الآية الأولى ثم عمم في الشق الثاني سبحانه من لا تند عن علمه خاطرة فقد صورت الآية الكريمة علم الله بما في مكنونات الأرحام ثم عقب السياق بأن كل شيء ((عنده بمقدار)) والتناسق واضح بين كلمة مقدار وبين النقص والزيادة ، والقضية كلها ذات علاقة بإعادة الخلق فيما سبق من حيث موضوع السورة كما أنها . أعني آية - ذات علاقة من حيث الشكل والصورة بما سيأتي بعدها من ذكر الماء الذي تسيل به الأودية ((بقدرها)) في السيولة والتقدير ثم إنه في الفيض والزيادة تلك المقابلة المعهودة في جو السورة العام ^(١) .

وبعد أن عممت الآية وخاتمتها علم الله بكل شيء زاد أو نقص مما يتعلق بمدد استقرار الأجنة في الأرحام . أنتقل السياق في قوله تعالى : ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾

(١) انظر ظلال القرآن لسيد قطب الجزء الخامس ص ٧٦ الطبعة الخامسة . طبعة بيروت

النظم القرآني في سورة الرعد

وَالشَّهَدَةُ الْكَبِيرُ إلى ما هو أكبر وأعظم في التقسيم من حيث إحاطة علم الله بكل شيء ، فهذه الآية كسابقتها حيث عمت المعنى ثم فصلته : في جملتين اسميتين كما لا لتأكيد المعنى وقوته ، ومما يثير الإعجاب ويبعث على التأمل أن هذه الآية بجملتيها جاءت مركبة من خمسة ألفاظ كلها أسماء ، وليس بين هذه الأسماء من وسائل الربط سوي حرف واحد هو ((واو)) العطف ، بل هناك البراعة في تلاحم الأجزاء في الجملة الأولى من خلال ما يسميه البلاغيون ((بالتهذيب)) الذي هو فن من فنون البديع . وله أنواع منها : ما يكون بعد الضراغ من تأليف الكلام وهذا النوع قد عري منه القرآن لصدوره من عند الله سبحانه لا من عند البشر، إذا أن كلام البشر بحاجة إلى التنقيح والتهذيب ، أما القرآن فليس بحاجة إلى هذه النظرة الآتية من هذا النوع لصوره عن من هو أعلم وأحكم .

ومن أنواع التهذيب : ما يعضد المعنى ، وما تجتنب به العيوب اللاحقة لنظم الكلام . ((وهذان النوعان من التهذيب هما اللذان جاء نظم القرآن عليهما غير مقصود هذان النظم ، ولا متكلف ، لأنه كلام قادر مطلق القدرة وإنما الذي يتطلب النظر والتحرير هو كلام البشر لنقصهم ونقص أعمالهم ، ومن هنا فقد استخدمت الآية الكريمة هذا الانتقال العجيب بواسطة أسلوب التهذيب غير المقصود المتكلف . وارتبت على كل بلاغة ، إذ أن التهذيب فيه معنى الانتقال من الأدنى إلى الأعلى الترتيب . ولكن الآية هنا جاء الانتقال فيها من

الأبلغ وهو قوله تعالى : ((عالم الغيب)) إلى ما هو دون في المرتبة وهو قوله والشهادة ، وهذا ما يوحي به ظاهر الألفاظ ، ولكن بالاستقراء والتدليل يظهر للمتأمل أن الآية اتبعت طريق الانتقال من الأدنى إلى الأعلى وفق طريقة فذة في النظم . وبيان ذلك ما كره ((ابن أبي الأصبع)) في كتابه ((بديع القرآن)) إذ يقول : ((أن علم الشهادة في حق الله سبحانه أبلغ ، فإننا لا نعقل أن علم الشهادة بعلم إلا بواسطة الحواس ، ومنى فقدنا الحواس فقدنا علم الشهادة ، علم الغيب لا يغتفر في تحصيله إلى الحواس ، وقد ثبت البرهان القاطع تنزيه الحق سبحانه عن الحواس ، وثبت أنه يعلم علم الشهادة ، وحصول علم لا يعلمه إلا من له حواس امن لم تكن له حواس أبلغ وأعجب ، ومن حصول علم لا يعلمه إلا من له حواس لمن لم تكن له حواس أبلغ وأعجب ، من حصول علم لا يفتقر في حصوله إلى الحواس ، فثبت أن علم الشهادة ها هنا أبلغ ^(١))) .

وفي ختام الآية هذان اللفظان الفريدان ، اللذان هما قوله تعالى :

﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ وهذان اللفظان لا تملك إلا الوقوف أمامهما

خاشعين ، وقبل أن ننتقل إلى آية أخرى يجب أن نشير إلى ما ذكره ابن أبي

الأصبع وهو يعرض لروعة النظم في قوله الله تعالى : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾

إذ يقول : ((وحصول علم لا يعلمه إلا من له حواس لمن لم تكن له حواس أبلغ

(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الأصبع ص ١٥٩ تحقيق حفني شرف مطبعة نهضة مصر .

النظم القرآني في سورة الرعد

وأعجب ((فقلوه : ((لمن تكن له حواس)) صريح في نفي صفة البصر عن الله سبحانه لكن هذا النفي لا يعني به ابن أبي الإصبع في نفي الصفة ، وإنما يقصد نفي التشبيه اتباعاً لمذهب أهل السنة والجماعة الذين يثبتون لله من الصفات ما يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ، من جهة أخرى فإن الله سبحانه الذي اختص بعلم الغيب أهون عليه علم الشهادة وإدراك ما يستطيع البشر إدراكه بحواسهم .

وقف عند قوله سبحانه : ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ

هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ وتأمل هذا النظم البديع إذا لم قرر

السياق إثبات علم الله المحيط بالشاهد والغائب في الآية السابقة من قوله :

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ جاء قوله : ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ﴾ الآية . وفي

ذلك تفصيل لمدي علم الله جلت قدرته - بكل شيء ، ومن بديع هذا النظم

تلك المقابلات الفنية العجيبة بين الألفاظ ، ومن روائعه مقابلة مستخف

بسارب تلك اللفظة التي بظلمها تعطي عكس معناها ، فظلمها ظل خفاء أو

قريب منه ، ولكن الحركة فيها هي المقصودة في مقابل الاستخفاء^(١) ((

فتم التقابل العجيب الذي يدركه كل من له أدنى ذوق بفض القول .

(١) ظلال القرآن لسيد قطب ((تفسير سورة الرعد)) الجزء الثالث عشر من المجلد الرابع طبعة دار

الشروق ببيروت

وإن كانت المقابلة هنا غير حقيقية، بل تكاد تكون إبهاماً بالمقابلة، لأن المستخفي يقابله الظاهر الذي يكشف عن نفسه، أما السرب ففيه حركة خفية. ولذلك فهو قريب من الاستخفاء ففيه ما يمكن أن نسميه ((مشاكلة معنوية)) أو إبهاماً هذه المشاكلة. وقد فسر الطبري ((السارب)) بالظاهر: أي الظاهر بالنهار في ضوءه^(١) وهنا تتم المقابلة بين اللفظين.

ويمضي السياق مترابطاً إذ يقول سبحانه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ في هذه الآية ترابط عجيب لحظه التأمل في جو الآية السابقة حيث ترتب عليهن ذكر الأسباب الداعية إلى حلول عذاب الله بكل من يحيد عن الحق بعد ظهوره تكبراً وعناداً. وعلى ذكر الأسباب تترتب النتائج في أسلوب هذه الآية، والتي من عجيب نظمها عرض الأمور التي ما أن راقبها الإنسان إلا كان بمنجاة من عذاب الله ويطشه، تلك الأمور متمثلة في قوله تعالى: ((له معقبات)) وهذا على القول: بأن ألهما في ((له)) تعود إلى ((من)) في قوله: ((سواء منكم من أسرا القول ومن جهربه))... وعلى أن المراد ((بالمعقبات)) الملائكية الحفظة ((وهو الذي عليه الجمهور^(٢))).

(١) تفسير الطبري الجزء الثالث عشر من المجلد السابع ص ٧٥ الطبعة الثانية دار المعرفة بيروت.

(٢) انظر تفسير الرازي الجزء ١٩ ص ١٨ الطبعة الأولى ١٣٥٧هـ الطبعة البهية بمصر.

النظم القرآني في سورة الرعد

ويتبين بديع الرصيف والتأليف في ذكر الأسباب الداعية إلى حلول العذاب ثم في ذكر ما من شأنه الحيلولة دون عذاب بحكمه ومشيتته ، وهو عمل الملائكة الموكلين بحفظ البشر ومراقبتهم فمتى اذكر هذا الشأن وروقت حصل الخلاص من عذاب الله بأمره وحكمته وإن لم يراقب الإنسان ربه في سره وجهره فليس بمنجاة من العذاب ، وهذا ما جاء مرتباً في السياق من قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوهُمَا بِنَفْسِهِمْ﴾ وقوله : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ أَفْلًا مَرَدَلَهُمْ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ .

ومن بديع النظم في الآية أن وردت تراكيبها مصدرة بالجملة الاسمية في

قوله : ﴿لَهُمْ مَعْقِبَاتٌ﴾ .

مع بلاغة التقديم والتأخير هنا ، وفي ذلك تمام التوكيد وقوته ثم

التنوع في العبارة بمجي الجملة الفعلية من قوله : ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾

والفعل هنا مضارع ، وصيغة المضارع تفيد معنى التجدد والحدوث ، وهذا هو ما

يتناسب مع عمل الملائكة الموكلين بالأدميين في جيئة وذهوب ، وحدوث

واستمرار ، وفي تكرار الفظة قوم ، وتنكيرها ما يوحي بملاءمتها للفعل ((يغير))

إذ سيق لمعنى الانتقام والعذاب ، وفي تكرار لفظ الجلالة ((الله)) ثلاثاً ما

يعضد المعنى قوة ووضوحاً إذ البطش والعذاب قوة . والله لأغيره القوي القادر

العزيز .

وأخيراً تختتم الآية بالجملة الاسمية في قوله : ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَالَهُمْ مِّنْ

دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ . وفي ذلك تأكيد لتقوية المعنى كما تقتضيه الجملة الاسمية ، وانظر لم خطفت الياء من لفظه ((وال)) ؟ فليس ذلك لمجرد تناسق الفاصلة ، وإنما في ذلك تعبير عن إنزال العذاب ، وسرعته ، وعدم القدرة على رده والإفلات منه .

ولم تنزل الآيات في تراكيبها متلاحمة متلاصقة إذ ترسم الآيتان

الكريمتان من قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ حتى

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ . مشهداً علوياً هائلاً يؤذن بالرعب والخوف الشديد .



تلك نقلة عجيبة في سياق الآيات بارعة في نقل الحس والشعور ، فمن

روائع النظم هنا ذكر البرق ، والرعد ، والسحاب الثقيل ، وبجانب تلك

الظواهر تساق لفظتان هما ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ إذ أن الظواهر السابق ذكرها

من برق ورعد وسحاب تحدث في النفس البشرية أمرين هما الخوف والطمع ولا

ثالث لهما ، وهذا التعبير من براعة صحة الأقسام الذي هو عبارة عن استيفاء

المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو أخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئاً ، وكل


ذلك أتت عليه الآية الكريمة فليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق ،

النظم القرآني في سورة الرعد

والطمع في الغيث . ومن بدائع النظم في الآية هنا تقديم الخوف على الطمع ،
وإذ أن الصواعق يجوز وقوعها من أول برقة ، ولا يحصل المطر إلا بعد تواتر
الإبراق ، فيبقي عامل الخوف مسيطراً على النفوس ، أما إذا تواتر الإبراق ففي
ذلك توقع لنزول المطر . ولذا كانت العرب تعد سبعين برقة ثم تنتجع فلا
تخطئ الغيث والكأ ، وإلى هذا أشار المتنبي بقوله :

وقد أرد المياها بغير هاد سوي عدي لها برق الغمام ❖

ولما كان الأمر المخوف يجوز وقوعه من أول برقة واحدة أتى ذكر
الخوف في الآية مقدماً لكون الواحد أول العدد ، ولما كان الأمر المطمع من
البرق إنما يقع بعد عدد من الإبراق أتى ذكر الطمع ثانياً لكونه لا يقع إلا في
أثناء العدد ، وليكون الطمع ناسخاً للخوف . كمجئ الرخاء بعد الشدة ،
والفرح بعد الكربة والمسرة بعد الحزن ، فيكون ذلك أحلي موقعا في القلوب ،
ويشهد لهذا التفسير قوله تعالى :

وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ^ع  (٢) ❖

❖ ❖ ❖

(١) انظر التبيان في شرح الديوان للعكربي ص ٤١ مطبعة بولاق

❖ ❖ سورة الشورى الآية ٢٨ .

(٢) انظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٦٥ ، ٦٦ تحقيق حفني شرف الطبعة الثانية مطبعة

نهضة مصر

وقد حصل في هاتين اللفظين اللتين هما بعض من الآية مع صحة التقسيم حسن الترتيب والتهديب ، ومن تمام المعنى وحسن النظم ختام الآية بقوله : ((ينشئ السحاب الثقال)) ، فقد جاءت هذه الخاتمة بعد قوله : ((وطمعاً)) فمن ذا الذي لا يطمع فيما تحمله السحاب من خير ، وفي وصف السحاب ((الثقال)) ما يضي على المشهد روعة وجلالا وقوة تشهد أنه من صنع الله .

ثم عطفت الآية الثانية بالواو من قوله : وسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . فهنا مشهد آخر ذو حركة مليئة بالخوف متمثلة في زمجرة الرعد وقصف الصواعق المدبرة بمشيئة الله ، والإطار المتضمن لتلك المعاني متحرك أيضاً يلحظ ذلك في الأفعال المضارعة ، يسبح ، يرسل ، يصيب ، يشاء ، يجادلون ، وراع العطف بالواو الذي وليه عطف بالفاء في قوله : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ ففي ذلك الدلالة على نفاذ أمر الله وسرعته من غير ما تباطؤ أو مانع يحول .

وبعد أن قررت هذه الآية أموراً كلها من عند الله ، وأزمتها طوع إرادته من خير أو شر يصيب به العباد أو يصرفه عنهم ، جاء قوله : ﴿ لَهُمُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ﴾ .

النظم القرآني في سورة الرعد

وهنا ينضح الترابط المحكم بين الآيات . فقولته : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ حتى آخر الآية تقرير بأنه ما من شيء سبق ذكره في الآية السابقة ، إلا وهو مسير ومدبر بمشيئة الله وإرادته ، وأن ما دونه من المخلوقات لا تملك من الأمر شيئاً . وإذن له دعوة الحق لا لغيره .

والآن - لتفحص بغض تراكيب هذه الآية ، ولننظر في مدى تلاحم كل لفظة مع أختها ، وقيام كل تركيب بوظيفته فيما يخدم المعنى ويوضحه .

انظر لأول الآية فقد صدر بالجار والمجرور مقدماً على خبره وفي ذلك تخصيص بأن مصدر كل شيء من عند الله وإليه وله ، فإذا ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ ، وراع تلك الإضافة في قوله : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ لأي غرض تلك ؟ ((إنها من إضافة الموصوف إلى الصفة ، فحاصل المعنى أن الذي يستحق أن يعبد هو الله تعالى لا غيره فهو حق وله دعوة الحق ^(١))) ، ويعضد ذلك المعنى ويقويه قوله بعده : ((والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء)) .

ويعيننا في نظم تلك الآية الوقوف على كنه التركيب فيها وطريقته . فبعد قوله : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ خذ من الآية قوله : ﴿إِلَّا كَبَسِطَ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ وانظر لسلسلة تلك الألفاظ وسهولتها ، مع أنه تعبر عن مشهد يتطلب ألفاظاً أقوة واشد ، ولكن عدل عن غيرها إليها ، لأن التصوير جاء منتزعاً من

(١) انظر روح المعاني للالوسي الجزء الثالث عشر ص ١٢٣ مطبعة إحياء التراث . بيروت .

القريب الواقع فجئ له بألفاظ قريبة المتناول ، ثم الحظ لم التعبير ((بكفيه))
دون كفه وما السري في تعريف لفظة الماء باللام ، كل ذلك معين بأداء المعنى
على أكمل وجه ، في أكمل صورة وأبدع تركيب .



وهذا شأن الأسلوب القرآني في إتباع طريقة التصوير إذ يعمل على
تقريب المعنى وتقريره في الأذهان ، وسيمر معنا القول في ذلك مفصلاً في حينه
إن شاء الله .

وأخيراً تأمل تكرار النفي في سياق الآية من قوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِبَالِغٍ عِندَ مَا دُعَاءُ
الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ ثم لم لم يعبر بخسارة أو ضياع ؟ ذلك التكرار لنفي
والتعبير بضلال يبقي المعنى مستمراً يشهد بخسران ما يعمله الكافر .



نسق الفواصل في سورة الرعد

قبل أن نستوضح نسق الفواصل في هذه السورة، و نتبين أكثر الحروف التي بنيت عليها هذه الفواصل، وخصائص هذه الحروف يحسن أن نشير إلى مفهوم الفاصلة القرآنية، وقيمتها اللفظية والتركيبية والمعنوية .



ليس هناك عالم من علماء الأدب، أو نقد من نقاده إلا وقف عند أجراس الحروف التي تنتهي به الجمل والتراكيب، فأن هذه الأجراس والأصوات إذ اتفقت طربت لها الأذان، ووجدت طريقها إلى القلوب .

وسموا هذه الظاهره ((بالسجع))، وشاعت هذه التسمية عند جمهور العلماء من قديم الزمان إلى اليوم، ولعل من أقدم علماء الأدب الذين قيدوا هذه الظاهرة في الكلام المنثور - أبا عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي أطل في سرد كثير من النصوص المسجوعة من ما أثار عن أمراء البيان، ونقل كثير من الخطب والمواعظ الزاجرة التي تزجر بالسجع الرائق الجميل غير المكلف . وليس يسمح المجال لذكرها خشية الإطالة والاستطراد، ويمكن لأي باحث الرجوع إلى ذلك في كتب الجاحظ، ولأمانع أن نسوق شاهداً واحداً لندل على ما ذكرنا فقد ذكر الجاحظ كلمات كان يخطب بها ((سليمان بن عبد الملك)) ومنها قوله : ((اتخذوا كتاب الله إماماً، وارضوا به حكماً، واجعلوه قائداً، فإنه ناسخ لما قبله ولم ينسخه كتاب بعده)) إلى غير ذلك من

الأمثلة التي بلغت الذروة في البيان كنقل الجاحظ خطبة النبي - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع ^(١) .

ومن أمثلة الجاحظ على السجع كثيراً ما يختلط السجع بالازدواج . وهو توافق الفاصلتين في الوزن .

وتتابع بعد الجاحظ كثير من العلماء الذين حاولوا تحديد مفهوم كلمة السجع ، وضربوا لها أمثلة كثيرة من القرآن الكريم . وغيره من الكلام البليغ . فقد تحدث عنها : أبو الحسن على بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦ هـ) في رسالته ((النكت في إعجاز القرآن)) تحت عنوان ((باب الفواصل)) وذكر : أن الفواصل ((حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني ، والفواصل بلاغة والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها ، وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها ، وإنما أخذ السجع في الكلام من سجع الحمامة ، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة كما ليس في سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة إذ كان المعنى لما تكلف من غير وجه الحاجة إليه ، والقائدة فيه لم يعتد به فصار بمنزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة . . والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع ، وتحسينها الكلام

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ص ٢٠١ وما بعدها ط دار الفكر .

النظم القرآني في سورة الرعد

بالمتشاكل ، وإبداؤها في الآي بالنظائر^(١) .

وتحدث عن السجع والفاصلة القرآنية : بدر الدين والزركشي (ت ٧٩٤هـ)
في كتابه ((البرهان في علوم القرآن)) وفصل القول في الفواصل ، ورؤوس الآي ،
ونقل ما فرق به الإمام ((أبو عمرو الداني)) بين الفواصل ورؤوس الآي : من
الفاصلة هي الكلام المنفصل مما بعده ، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية
فاصلة ، وكذلك الفواصل . يكن رؤوس آي وغيرها ، وكل رأس آية فاصلة ،
وليس كل فاصلة رأس آية ، فالفاصلة تعم النوعين ، وتجمع الضربين .

ويشير الزركشي إلى أن الفاصلة القرآنية تقع عند الاستراحة في الخطاب
لتحسين الكلام بها ، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام ، وتسمي
فواصل ، لأنه ينفصل عندها الكلامان ، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما
بعدها ، لم يسموها أسجاعاً ، فأما مناسبة فواصل : فلقوله تعالى : ((كتاب
فصلت آياته)) ، وأما تجنب الإسجاع : فلأن أصله من سجع الطير فشرف القرآن
الكريم أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت طائر^(٢) .

وكلمة السجع عند العلماء : مأخوذة من سجع الحمامة إذا رددت صوتها
وعن سجع الحمام نقلوا هذه اللفظة إلى الكلام المنثور المقضى ، إذا وإلى المتكلم

(١) النكت في إعجاز القرآن الرماني ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الرماني والخطابي
وعبد القاهر تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام الطبعة الأولى مطبعة دار المعارف
بمصر

(٢) انظر البرهان للزركشي الجزء الأول ص ٥٣ ، ٥٤ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم .

الكلام على روي ، أي أن السجع في الكلام المنشور مثل الروي ، وعرف بعضهم بأنه: ((تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد في الآخر . أو هو نفس الفاصلة الموافقة الآخر ، والسجع في أصله هو هدير الحمام . ثم نقل لهذا المعنى فلا يصرح بوجوده في القرآن ، لا لعدم وجوده في نفس الأمر بل لرعاية الأدب ولتعظيم القرآن ، وتنزيهه عن التصريح بما أصله في الحمام ، ولكونه من نغمات الكهنة في كثيرة أصل إطلاقه ، ولا يقال في قرائن القرآن الكريم أسجاع بل فواصل^(١))) ، ويصرح الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) بنفي السجع من القرآن الكريم ، ويسميه فواصل .

إذ يقول :

((كيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة في نفي الشعر ، لأن الكهانة تناهت في النبوات . وليس كذلك الشعر ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعاً - متقارب الفواصل متداني المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه ، وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، في السجع غير مرضي . ولا محمود^(٢))) من خلال ما مر ذكره نري أن بعض العلماء : أراد أن يفرق بين القرآن وغيره . فاحتفظ بكلمة السجع لغير القرآن ، وخص ما يكون منه في القرآن باسم الفواصل .

(١) شرح التلخيص لسعد الدين التفتازاني الجزء الرابع ص ٤٤٥ وما بعدها . مطبعة الحلبي
(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٥٨ ، ٥٩ الطبعة الثالثة ١٩٧٢ م . مطبعة دار المعارف تحقيق أحمد صقر .

النظم القرآني في سورة الرعد

والحقيقة أنه لا يروقنا هذا التفريق في المصطلح إذا اتحد المفهوم فإن حجة الذين فرقوا في التسمية ، فخصوا ما في القرآن باسم الفواصل ، وما في غيره بسم السجع . حجة واهية وهي قولهم .

((إن السجع موصوف بالتكلف لأنه من صنع البشر)) .

وحاشا أن يكون شيء من هذا التكليف في كتاب الله عز وجل ، ولا نري رأيهم ، لأن المفهوم إذا اتحد وجب أن يتحد المصطلح . أما قولهم : إن السجع فيه تكليف ، فإن كثيراً من السجع لا نرفيه أثراً لهذا العيب ، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير من الكلام المسجوع الجميل الرائق ، وحاشا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم من المتكلفين . ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ وكذلك ورد في المأثور من كلام كثير من أهل اللسن والبيان من السجع ما هو رائع مطبوع ، لا يلحظ فيه شيء من التكلف الذي يشير إليه هؤلاء العلماء ، وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك أثناء الحديث عما ذكره الجاحظ عن ((السجع)) وليس معنى هذا أننا ننكر أن في السجع ما هو متكلف مصنوع ولكن ذلك يختلف من أديب إلى أديب ، ومن خطيب إلى خطيب ، ومن كاتب إلى كاتب ، بحسب تمكن كل واحد من هؤلاء من فنه الأدبي ، والذي كان ينبغي أن يقال : حتى لا يكون هذا التفريق المصطنع أن يلجأ أولئك الذين فصلوا بينهما إلى الموازنة بين سجع القرآن وسجع غيره من

ضروب الكلام ، ومن حقهم بعد ذلك أن يفاضلوا بين الضريبين وأن يحكموا بعد الدراسة الواعية والتدقيق السليم بجودة سجع القرآن وتفوقه على سجع البشر . على أن من العلماء من ساوي بين الأسجاع والفواصل في المفهوم فأطلقوا لفظ الفاصلة على كل موضع فيه سجعه وأطلقوا لفظ السجع على ما قد يقال أنه فاصلة . وفهم صاحب القاموس الذي يقول : ((إن السجع هو الكلام المقضى أو موالة الكلام على روي والجمع سجاع كالأسجوعة بالصم وجمعها أساجيع وكنع نطلق بكلام له فواصل ^(١) .



وإذا تتبعنا حروف الروي في فواصل الآيات من سورة الرعد فإننا سنجد تنوعاً في الفواصل أي تنوعاً في حروف الروي التي تنتهي بها كل آية من آيات هذه السورة . وإذا ألقينا نظرة على هذه الحروف وجدناها على الترتيب التالي من حيث الكم .

حرف النون في الآيات الخمس الأول من السورة فقد انتهت كل آية بهذا الحرف كما في قوله تعالى : ((يؤمنون ، توفنون ، يتفكرون ، يعقلون ، خالدون)) حرف الباء في خمس عشرة آية تنتهي بقوله تعالى : ((العقاب ، الألباب ، الحساب ، باب ، مآب ، متاب ، عقاب ، مآب ، كتاب ، الكتاب ، الحساب ، الكتاب)) .

(١) انظر القاموس المحيط ٣٨٠٣ للفيروز أياي .

النظم القرآني في سورة الرعد

حرف الدال في أربع آيات تنتهي بقوله تعالى: ((هاد ، المهاد ، الميعاد ، هاد)) .

حرف ((الراء)) في سبع آيات ختمت كل منهن بقوله تعالى ، ((بمقدار ،

النهار ، القهار ، الدار ، الدار ، الدار ، النار)) .

حرف اللام : وهي من أكثر الحروف التي بنيت عليها الفاصلة في هذه

السورة الكريمة فقد وردت في سبع آيات انتهت بقوله تعالى : ((المتعال ، وال ،

الثقال ، المحال ، ظلال ، الأصال ، الأمثال)) ومثل اللام في العدد ((الراء)) في

سبع آيات كما مر ، وأكثر منهما حرف ((الباء)) فقد وردت في خمس عشر

آية كما ذكر :

حرف ((العين)) في آية واحدة فقط : هي قوله سبحانه : ((الله يبسط

الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع)) .

حرف ((القاف)) في آيتين اثنتين متساويتين مبني ومعنى هما : لفظتا

((واق)) .

وقد تمت حرف الروي في فواصل السورة من سبعة أحرف هي : ((النون)) و

((الباء)) و ((الدال)) و ((الراء)) و ((العين)) و ((القاف)) كما هو مبين في

الإحصائية السابقة .

ومما يأسر الأسماع ويجذب القلوب ويشنف الأذان أن جميع الفواصل التي

اشتملت عليها هذه السورة الكريمة يوقف عليه بالسكون مسبقاً بحرفي مد هما

الألف والواو ، وذلك علامة على وحدة الجرس في حرف الروي وما قبله لأن للسكون بعد المد وقعاً ترتاح له الأذن .

وهناك ظاهرة تستوقف الباحث المتأمل في نظم الفواصل في هذه السورة الكريمة وتلك الظاهرة هي تماسك البناء فإننا نجد الآيتين والثلاث آيات والأربع آيات تتوالى على حرف واحد روي واحد ثم يقطع هذا الحرف في آيتين بحرف آخر أو بفاصلة تبدو أنها منفردة ولكن القارئ أو السامع سيجد نفسه بعد قليل في الفاصلة التالية وقد عاد إلى الفاصلة التي سبقت بآيتين أو بآية واحدة ثم يكون هنالك عود إلى هذا الحرف بعد آيتين أو ثلاث ، ومعنى ذلك تمام الاتصال وتمام ائتلاف وجمال النظم الذي يجعل السورة الكريمة بناء منسقاً متماسكاً تأخذ كل آية بأختها وتدل أو ليأتها على أخرياتها .

إن الحروف التي بنيت عليها الفواصل هنا حروف معدودة من حروف الهجاء ومنها النون ، والذال ، والباء ، والراء ، كما سبق . والتأمل يري أن هذه الحروف تميزت بالوقف الذي سبق على أعذب مقطع ، وأسهل موقف وشارع فيه مقابلة المجرور بالمنصوب ، والمرفوع بالمجرور ، من ذلك قول الحكيم سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ يقابلها - أعلى الآية - قوله تعالى : ﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ فلفظ الفاصلة في الأولى مجرور ، وفي الثانية منصوب ، وقوله عز اسمه : ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ جِهَةٌ وَيُنسِلُ لَهُمُ الْمَاءَ الْمُرْفُوعَ ﴾ لفظ هذه الفاصلة مرفوع ، وقوبل بفاصلة لفظها مجرور ، من قوله : ﴿ إِنَّمَا يَذُكُرُ آبَاءَهُمْ الْأَبْتَابِ ﴾ .

النظم القرآني في سورة الرعد

ومما يسترعي النظر أنه لم يرد في أصوات فواصل السورة من الحروف الشفوية سوي ((الباء)) ذلك الحرف الذي تكرر في خمس عشرة آية .

والباء من الحروف التي يسبق نطقها في المخرج ، بل لشدة سهولتها نسمع الطفل الصغير ينطقها في يسر أول عهده بالكلام .

وإذا تتبعنا بقية الحروف في فواصل هذه السورة ، ألفيناها جميعها من الحروف اللسانية ، وهي : النون ، واللام ، والراء ، والقاف ، والذال . وهي حروف متوسطة من حيث سهولة المخرج على لسان المتكلم .

أما الحروف الحلقية ، وحروف ألهاء ، وهي أعسر الحروف ، وأشقها في النطق ، وهي : الهمزة ، والهاء ، والعين ، والغين ، والحاء ، والخاء . فقد خلت فواصل تلك السورة الكريمة منها ، عدا حرف العين الذي ذكر في فاصلة واحدة فقط ، ولم يكرر في الفاصلة التي تليها ، أو في آية فاصلة غيرها ، على أن هذه الفواصل وإن اتحدت في حرف الروي لا يستطيع القارئ أو السامع أن يلحظ أي تكلف في إيراد تلك الفواصل على هذا النحو ، فإن المعنى في كل آية يقتضي فاصلة أشد اقتضاء حتى لقد نجد بعض الفواصل المسجوعة وقد اتحدت الكلمة كلها بجميع حروفها ومعانيها في القرينتين أو في ختام الآيتين المتابعتين وذلك راجع لشدة اقتضاء المعنى فأنت تري مثلاً في قوله تعالى :

((لكل أجل كتاب)) وقوله : ((يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب))

إن لفظة كتاب تكررت في آيتين متواليتين وذلك لاقتضاء المعنى ، فالكتاب في

الأولى يقصد به معنى لكل وقت حكم يكتب على العباد أي يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم ((والكتاب في الثانية معناه ((أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ لأن كل كائن مكتوب فيه ^(١))) ومن أبرز خصائص حروف الفاصلة في السورة تناسب الحروف في مخارجها وانسجامها مع المد الناشئ في آخر كل آية الذي ينشأ عنه التأثير الروحي في جو السورة العام من خلال النغم الممتد عبر كل مقطع، وفي هذا ما يحدث في النفس نوعاً من الاطمئنان والراحة النفسية، وبنظرة شاملة إلى مقاطع الفاصلة في السورة كلها يحس المتأمل بعد التفاوت في مخارج الحروف وكل حرف جاء ملائماً لما بعده في السياق من حيث الرصيف والبناء .

ومن حيث التناسق الصوتي في الشدة واللين والتفخيم والترقيق . خذ مثلاً قوله تعالى : ((ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)) وتأمل مخارج الحروف في لفظة يؤمنون كيف تشكل الحرف إحياء صوتياً عندياً . لا يميل ترده إذ جاءت المخارج متناسبة في القرب والبعد فالياء من أسفل الفكين والهمزة من أقصى الحلق والميم من الشفتين والنون من طرف اللسان والواو من أعلى الشفتين دون إطباقهما حتى لا ينقطع النفس وحتى يظل الجرس مديداً لا يمل .



(١) انظر تفسير الكاشف الزمخشري طبعة دار الفكر بيروت

النظم القرآني في سورة الرعد

- ٣ -

ولقد كانت الفواصل أبرز مظاهر الائتلاف والتلاؤم . ولعلنا استطعنا في الكلمات السابقة أن نكشف عن طبيعة هذه الفواصل وعن التلاؤم في أجراسها ومعانيها وأثر ذلك كله في نظم السورة الكريمة وخصائص هذه النظم .



ولكن هنالك جواب آخر لذلك التلاؤم في جزئيات هذه السورة وفي كلياتها ، بل في داخل كل آية من آياتها ، فهناك ملائمة بين اللفظ ومعناه وملائمة بين اللفظ وجبرته من الألفاظ من ناحية الأصوات والدلالات ، وهنالك تلاؤم يجمع شمل الوحدات المتعاقبة في هذه السورة الكريمة ويقتضي هذا البحث المتخصص الإمام بكل جانب من هذه الجوانب .

ومن واجبنا قبل الشروع في تحقيق هذه الغاية أن نلم بمفهوم كلمة التلاؤم وتحديد العلماء لمعناها سواء أكانوا من علماء اللغة ومؤلفي المعجمات اللغوية أو كانوا من علماء الاصطلاحيين الذين تحدثوا عن ذلك التلاؤم في القرآن الكريم بخاصة وفي التعبير الأدبي بعامة .

وإذا بحثنا عن مفهوم التلاؤم ومعناه عندهم وجدنا لهذه اللفظة أكثر من معنى في أكثر من لفظ جاء في لسان العرب مما نحن بصدده في معنى هذه

المادة :

١- اللام : الاتفاق ، وقد تلاءم القوم وتأملوا : اجتمعوا وانفقوا وتلاءم
الشيئان إذا اجتمعا واتصلا . وقال : التأم الفريقان والرجلان إذا تصالحا
واجتمعا ومنه قل الأعشى :

يظن الناس بالملك بين أنهما قد التأما
فإن تسمع بلأمهما فإن الأمر قد فقما

٢- وهذا طعام يلائمني . أي : يوافقني ولا تقل يلاومني ، وفي حديث ابن أم
مكتوم :

((لي قائد لا يلائمني)) أي يوافقني ، ويساعدني ، وقد تخفف الهمزة
فتصير ياء ، ويروي يلاومني بالواو ولأصل له ، وهو تحريف من الرواة لأن
الملاومة مفاعلة من اللوم .



وفي حديث أبي ذر : ((من لا يمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون
)) قال ابن الأثير :

((هكذا يروي بالياء منقلبة عن الهمزة ، والأصل ، لاءمكم)) .

٣- ولأم الشيء ، لأما ، ولأعمه ، ولأمه ، ولأمه : أصلحه فالتأم وتلام .

٤- واللئم : الصلح . مهموز ، ولأعمت بين الفريقين : وإذا أصلحت بينهما ؛

ولأعمت بين القوم ملائمة : إذا أصلحت وجمعت ، وإذا اتفق الشيئان فقد

النظم القرآني في سورة الرعد

التأما ، ومنه قولهم : هذا طعام لا يلائمني . ولا يلاومني . فإن هذا من اللوم ، واللثم : الصلح والاتفاق بين الناس . أنشد ثعلب :

إذا دعيت يوماً نمير بن غالب رأيت وجوها قد تبين ليمها

٥- وريش لؤام : يلائم بعضه بعضاً . وهو ما كان بطن القذة منه يلي ظهر الأخرى ، وهو أجود ما يكون ، فإذا التقى بطنان أو ظهران فهو لغاب ولغب^(١) قال أوس بن حجر :

يقلب سهماً رأسه بمناكب ظهار لؤام فهو أعجف شاسف^(٢)

٦- والتأم الجرح : التئاماً : إذا برأ والتحم ، قال الليث : ألأمت الجرح بالدواء ، ولأمت القمقم : إذا سددت الصدوعه ، ولأمت الجرح والصدع إذا سدته فالتأم .

٧- وفلان لثم فلان، ولثامه أي : مثله وشبهه والجمع الأم ولثام . عن ابن الأعرابي وأنشد :

انعقد العام لا نجني على أحد مجندين وهذا الناس ألام



(١) لغاب ولغب : الغب الريش القاسد مثل البطنان منه ، ومنهم لغب ولغاب قاسد لم يحسن عمله . لسان العرب مادة لغب .

(٢) لنجف شاسف : الأعجف الهزيل ، والنصل الرقيق .. والشف : القاحل الشامرواليابس لسان العرب مادة أعجف وشف .

وقالوا : لولا الوئام هلك اللئام قيل معناه الأمثال وقيل : المتلائمون وفي حديث عمر : أن شابة زوجت شيخاً فقتلته ، فقال : أيها الناس لينكح الرجل لمتته من النساء ولتنكح المرأة لمتها من الرجال . أي شكله وتربيته ومثله ، والهاء عوض من الهمزة الذاهبة من وسطه ، وأشد ابن بري :

فإن نعبر فإن لنا مات وإن نعبر فنحن على ندور

أي ستموت لا محالة . وقوله مات أي أشباه .

هذا بعض ما أورده ابن منظور من المعاني التي يستعمل فيها لفظ التلاؤم ومشتقاته إلى غير ذلك من معاني أخرى ليس لذكرها حاجة فيما نعرض له ونقصد إليه .

وأورد الزمخشري في الكشاف :

١- لأم : صدع ملتئم ومتلائم ومتلائم ، وقد لأئمته ظلاءمة ولأمته ، وفلان

لا يلائمني : لا يوافقني .

٢- وريش لؤام خلاف لغاب إذا التقى بظن فذة وظهر أخرى ، وسهم لأم

مريش اللؤام وبه فسر : كرك لأمين على نابيل ، ولبس لأمته وهي الدرع المحكمة الملتئمة .

٣- ولبسوا اللأم وقيل اللؤم كقرية وقري قال المتلمس :

وعليه من لأم الكتاب لأمة فضفاضة فيما يقوم ويجلس

٤- واستلأم : أي تدرع .

النظم القرآني في سورة الرعد

٥- ومن المجاز والكناية : هذا طعام لا يلائمني .

٦- وما التأممت عيني حتى فعل كذا : أي ما ثقفه بصري .

٧- وهذا كلام لا يلتئم على لساني . ورجل لؤمه : أي يحكي ما يصنع غيره.



وبتأمل تلك المعاني التي أوردها أصحاب اللغة مما سبق ذكره يتضح لنا

أن معنى التلاؤم ومفهومه : الاتفاق ، والاجتماع والاتصال والتناسق .

وتلك المعاني وثيقة الصلة بالمعنويات ، كما هي وثيقة الصلة بالحسيات :

فإنك تقول : تلاءم القوم إذا اجتمعوا واتفقوا ، كما تقول : تلاءم الكلام إذا

اجتمعت ألفاظه في إطار حسن جميل ، وتوافقت أولياته مع أخرياته ، ومن

معانيه التلاحم ، والاتحام كما قال صاحب اللسان :

التأم الجرح التأمًا إذا أبرأ والتحم)) ، وهذا المعنى في الكلام من صفات

حسنه إذ يقال : كلام متلاحم الأجزاء ، ومن معاني التلاؤم : الشبه ، والترب

والمثل . كما قال صاحب اللسان : فلان لئم فلان ، ولئامه أي : مثله ، وشبهه ،

وهذا المعنى يرد وصفاً للكلام إذا تشابهت أطرافه ، وتلاءمت ، وأصبح بعضه

بسبب من بعض .

ونورد في هذا السياق شيئاً مما ذكره علماء البلاغة والأدب فيما يتعلق

بمعنى هذه اللفظة ومفهومها .

هنالك ألفاظ اصطلاحية أثرها بعض أولئك العلماء على لفظه ((

التلاؤم)) مما يؤدي معناها من مترادفات اللغة ، ومن هذه الألفاظ :

١. التناسب . والمناسبة . بل إن البلاغيين استخرجوا فناً من فنون البديع

سموه ((مراعاة النظر)) ويسمي ((التناسب)) ((والتوافق)) ، ((والائتلاف))

((التلفيق)) أيضاً ، ويؤخذ من معناه ، وجه التسمية ، وهو أي ((مراعاة

النظر)) جمع أمور ما يناسبه . أي أن يجمع بين أمرين متناسبين ، أو أمور

متناسبة لا بالتضاد . بل التوافق ، في كون ما جمع من واد واحد . لصحبته في

إدراك ، أو مناسبة في شكل ، أو لتوقف بعضه على بعض .

والجمع في هذا الباب قد يكون بين أمرين نحو قول الله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ

وَالْقَمَرُ بِحَسَابٍ ﴾ فقد جمع بين أمرين هما الشمس والقمر ولا يخفي تناسبهما

وقد يكون بين ثلاثة ... ، ومن ((مراعاة النظر)) ما يسميه بعضهم تشابه

الأطراف . وهو : أن يختم الكلام بما يناسب ابتداءه ، كقوله تعالى : ﴿ لَا

تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

فإن اللطيف يناسب ((لا تدركه الأبصار)) والخبير يناسب : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ

الْأَبْصَارَ ﴾ (١) .

(١) انظر شروح التلخيص ص ٣٠١ وما بعدها لسعد الدين التفثا زاني الجزء الرابع مطبعة الحلبي .

النظم القرآني في سورة الرعد

وأما المناسبة فهي على ضربين : ((مناسبة في المعاني ، ومناسبة في الألفاظ فالمعنوية هي : أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يتم كلامه يناسب معنى دون لفظ والفرق بين الضرب ، وبين الملائمة هو : أن الملائمة تكون في مفردات الألفاظ ومعانيها ، وهذا الضرب من المناسبة بين الجمل المركبة ومعانيها)) .

واللفظية : هي عبارة عن الإتيان بلفظات متزنات مقفاة وغير مقفاة .

فالمقفاة مع الاتزان . مناسبة تامة ، والمتزنة من غير التقفية مناسبة ناقصة .

٢. زمن الألفاظ التي يؤثرونها على غيرها في شرح معنى التلاؤم :

((المشاكلة)) بل لقد يتوسعون في مفهومها فيخصصون باباً يسمونه :

باب المشاكلة وهي عندهم التعبير عن الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا .

٣. ومنهم من أثر كلمة الائتلاف وأمامهم في هذا القدامة بن جعفر ((ت

((٣٣٧ هـ))

الذي جعل عناصر الشعر أربعا هي ك اللفظ ، والوزن . والمعنى والقافية

وذكر لكل عنصر من هذه العناصر ما يحسن به وما يقبح عند النظر إليه

مفرداً ثم عاد فذكر الائتلاف بين عنصر وعنصر آخر من هذه العناصر حيث

فصل القول في ائتلاف اللفظ والمعنى وذكر له أنواعاً ستة هي :

المساواة ، والإشارة ، والإرداف ، والتمثيل ، والتطبيق ، والتجنيس ... وائتلاف

اللفظ والوزن وهو من دلائل نضج الشاعرية واستوائها حيث طواعية الألفاظ

للنغم الذي يؤثره الشاعر وانقياد هذه الألفاظ للوزن التي يتخيرها ، وائتلاف المعنى والوزن وهذا لا يعدو ائتلاف اللفظ مع الوزن فبالشاعرية المطبوعة وجودة التناسق التام بين الألفاظ يبسط الشاعر معانيه دون أن يحد هذا الوزن من الرغبة في هذا البسط ويركز ما أراد التركيز ويدقق ما يشاء أو يكتفي باللمحة الدالة حين يريد من غير أن يضطره الوزن إلى شيء من الزيادة وذكر قدامة ائتلاف القافية مع ما يدل عليه معنى البيت . والقافية إنما هي لفظة مثل ألفاظ سائر البيت من الشعر فائتلافها كسائر لفظ الشعر المؤتلف مع المعنى^(١) وممن فصل القول في ائتلاف ابن أبي الأصبع في كتابه ((بديع القرآن)) وملخص الائتلاف عنده : أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضاً ليس فيها لفظ نافرة عن أخواتها غير لائقة بمكانها كلها موصوف بحسن الجوار بحيث إذا كان المعنى غريباً قحاً كانت ألفا

غريبة محضة وإذا كان المعنى مولداً كانت الألفاظ مولده وإذا كان المعنى متوسطاً كانت الألفاظ كلك ... ومن أمثلة الائتلاف قوله تعالى :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأْتُمْ ذَكَرَ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا ﴾^(٢) أو تكون من الهالكين فألفاظ هذه الآية الكريمة آية في التناسب والائتلاف والذي ينبغي أن ننبه عليه

(١) انظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبي للدكتور بدوي طباعة ط الثالثة ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ،

٣٢٢ المطبعة الفنية الحديثة بمصر ١٣٨٩ هـ .

(٢) انظر بديع القرآن لأبن أبي الأصبع تحقيق حنفي محمد شرف ص ٧٧ الطبعة الثانية مطبعة دار

طبعة مصر .

النظم القرآني في سورة الرعد

في هذا المقام أن من جودة الائتلاف بين ألفاظ هذه الآية حسن الوضع في النظم بحيث جاورت كل لفظة أختها وجعلت من جنسها في الغرابة أو الاستعمال رغبة في ائتلاف المعاني بين الألفاظ وتناسبها وتعادلها في النظم .

٤. ومن البلاغيين الذين عالجوا مفهوم التلاؤم ومعناه أمام البلاغة عبد

القاهر الجرجاني ((ت ٤٧١هـ)) الذي يهيم بكلمة النظم ويؤثرها على كل اصطلاح وإن كان التلاؤم أبرز ما درسه في فكرة النظم ويكفيها شاهدا على مفهوم لتلاؤم وإن من معانيه النظم عند عبد القاهر ، ذلك الأسلوب التحليلي

للآية الكريمة التي هي قول الله تعالى : ((وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي

وَعِضْ أَمَّاكُ وَفِضَى الْأَمْرِ وَأَسْتَوْتِ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠١﴾ وقد

صدقت الإشارة إلى الآية الكريمة أثناء البحث عن النظم وأنه وجه من وجوه

الإعجاز الذي يعيننا في هذا المقام وهو الطريقة التحليلية للآية الكريمة كما

شرحها عبد القاهر حيث يرى أن مما يذخر به نظم الآية هنا حسن مجاورة

الألفاظ وجعل بعضها بسبب من بعض حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة

بالرابعة وأنه لاعلاقة للفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في

النطق ولكن مرد ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب " وهذا ظاهر

في كل كلام تلاءمت ألفاظه وتراكيبه ومعانيه ، ودليل آخر على ما ذهب إليه

عبد القاهر في الأخذ بالنظم في معنى التلاؤم هو قوله : ((ولكن الألفاظ تثبت

لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك

مما تعلق له بصريح اللفظ ومما يشهد لذلك أنك تري الكلمة تروكك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر^(١) وإذا لابد من مراعاة وضع اللفظة بجانب أختها حتى يتم التلاؤم بين أجزاء الكلام كله .

ويشير الروماني في ((النكت)) إلى معنى التلاؤم بأنة نقيض التنافر وأنه تعديل الحروف في التأليف ، وفائدته حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن السورة ، وطريق الدلالة))^(٢)

والتلاؤم في حقيقة معناه ، وطبيعة مداه ، ((كلمه جامعة لكل وصف لابد منه في اللفظ ليكون الكلام خفيفاً على اللسان ، مقبولاً في الأذن ، موافقاً لحركات النفس ، مطابقاً لطبيعة الفكرة ، أو الصورة ، أو العاطفة التي يعبر عنها الأديب))^(٣)

إذا كان من مفهوم التلاؤم : المناسبة بين الألفاظ ، والمشاكله بينها ومن معانيه الاتفاق ، والاتساع ، كما مر ذكره عند أصحاب اللغة ، وعلماء البلاغة ، والأدب فلنبداً الحديث عن مظاهر التلاؤم بين اللفظ وجيرته .)) في

(١) انظر البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ ط الرابعة المطبعة الفنية الحديثة ١٣٨٨ هـ .

(٢) أنظر النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٨٧٦ ، ٨٨ تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام .

(٣) انظر دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات ص ١٢٢ الطبعة الثانية مطبعة الاستقلال بالقاهرة

النظم القرآني في سورة الرعد

سورة الرعد ((لنري مدي تلاؤم اللفظة في الآية القرآنية من هذه السورة الكريمة ، من حيث حسن الجوار والتلاحم في الحروف من جهة مخارجها ، وأثر ذلك في نظم السورة ، متبينين تلك الظاهرة في عدد من آياتها . قال تعالى :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءُ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ﴾

تخير ما شئت من ألفاظ تلك الآية ، وتأمل طريقة نظمها من حيث

تلاؤم الحروف، واستواء كل لفظة بجانب أختها . خذ مثلا قوله تعالى : ﴿ثُمَّ

أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وبدا في تحليل الألفاظ الثلاثة الأولى :

استواء على العرش ، نعم إنه استواء مطلق يليق بجلال الله تعالى . ترسمه الآية

هنا على طريقة القرآن في تقريب الأمور المطلقة الغيبية إلى مدارك البشر

المحدودة ، ثم راع قرب مخارج الحروف ، واعتدالها في هذه الألفاظ . فالسين

والتاء في لفظة ((استوى)) من أول الفم ومن طرف اللسان ، وبعدهما حرفاً

مد : هما الواو و الألف المقصورة مما يغطي النفس إعانة في النطق . وراحة في

الأداء ، ثم لم التعبير بعلى دون فوق تلك التي تؤدي معنى العلو ؟ ذلك لأن

لفظة ((على)) تعطي المعنى على أتم وجه يتناسب مع العلو المطلق التي رسمته

لفظة ((استوى)) ، وأعجب من ذلك تقارب الحروف في قوله ((على العرش))

فالعين من أقصى الحلق ، واللام من طرف اللسان ، وبعدها لام أخرى في لفظة

((استوى)) لكان الناطق بالحرفين يؤدي حرفاً واحداً لسهولة النطق . وقرب المخرج ، لي نظم يساوي ذلك التعديل والتلاؤم ؟

ثم أخلص إلى الألفاظ الثلاثة الأخرى في قوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ ﴾^ط فالى جانب اللمسة الأولى في العلو المطلق تأتي اللمسة الثانية في جانب العلو المنظور ، واللمستان تتجاوران وتتسقان في السياق^(١) وبجانب هذا التجاور انظر الجمال ذكر الشمس بجانب القمر ، وأروع منه وصف تلك الحروف بالكلمة الأولى تنتهي بحرف الراء كما في سخر . والكلمة الثالثة تنتهي بها أيضاً كما في لفظ القمر .

ولكن أذكر الشمس قبل ذكر القمر لأجل ذلك التآلف في الحروف فحسب بحيث تأتي الراء في الأولى وفي الثالثة متقابلتين ؟ ليس ذلك لأجل هذا بل هناك حكم لا يعلمها سوي اللطيف الخبير . ولعل في تقديم ذكر الشمس على القمر التنويه بأنعام الله بها على سائر المخلوقات .

أما حروف الألفاظ الثلاثة فمعظمها من الحروف لهامس كالسين في سخر والشين والسين في ((الشمس)) وهذه الألفاظ مجتمعة تؤدي معنى العظمة الكاملة ، والقوة القادرة ، وهذه الحروف في همسها وصغيرها كأنما تتبع أحداث هذين الكوكبين العظميين ، وسريانها في جوانب الكون الفسيح المترامي الأطراف وإذا فهذا التلاؤم تلاؤم في الحرف واللفظ والمعنى .

(١) انظر ظلال القرآن لسيد قطب الجزء الخامس ص ٧٠ طبعة بيروت .

النظم القرآني في سورة الرعد

إذا كان هذا بعض ما أدركناه عن تلاؤم الستة الألفاظ السابق ذكرها في آية واحدة ، فكيف بالحال لو استعرضنا تراكيب السورة بأكملها وبجميع جزئيات هذا التراكيب ؟ مثل ذلك لا يأتي لباحث إلا بعد جهد وتوفر طويلين ، فلنأخذ بعض آيات آخر .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ اثْنَيْنِ ﴾ الآية .. إلى قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

الآيات هنا جاءت لرسم خط عريض للجانب السفلي من الكون . وفي ذلك تلاؤم تام إذ أن ما سبق هذه الآيات سيق عن الجانب العلوي من مخلوقات الله تعالى .

وقد مر معنا في معرض الكلام على نظم تلك الآيات ما يكفي عن استعراض كثير من ألفاظها ، وإذا سنوئنا إلى مظاهر التلاؤم بين الألفاظ هنا ما وسعنا الجهد إن أول ما يبدو من مظاهر التلاؤم بين ألفاظ تلك الآيات وحرورها ذلك الهدوء الذي يتطلب الأمر بالتأمل والتفكير في ملكوت الكون فلاحظ مثلا خفة التعبير بلفظة ((جعل)) مكررة في موضعين ، ولاحظ التعبير ((يفكرون)) إذ جئ به فيما يستوجب التفكير ، والتعبير ((بيعقلون)) فيما يستوجب التعقل ، وانظر لتمام التلاؤم بين لفظي ((جنات من أعناب)) فلم التعبير بقوله : ((من أعناب)) دون من نخيل أو زيتون أو رمان ؟ إن في ذكر الأعناب ما يدعو إلى التأمل . وتمام التلاؤم واضح . فإن الجنة في

اشتقاقها مأخوذة من جن أي ستر وغطي ومنه الجنين في الرحم لستره عن
الأنظار ومنه جن الليل أي ستر.....

وشجرة العنب في شكلها ليست فارعة كغيرها من أنواع الأشجار
الأخرى وإنما هي مرسلة تغطي ما تحتها وتستره . فتلاءم أعناب بجانب لفظ
جنات معنى . بل ولفظا فهما جمعان .

وراع التعبير : بلفظتي ((يسقي بماء)) فقد جاءتا بعد تعداد أصناف من
الثمار والزرع، فلو أن متحدثاً أطال النفس عن ذكر هذه الأصناف كما طال
ذكرها وتعدادها في الآية ، لذكر بعد كل صنف أو صنفين ذكر السقي
بحكم قصوره البياني ، ثم ما حياة تلك الأصناف ، وما قيمتها بغير السقي
بالماء هنا يبدو سر التلاؤم في نسق الآيات جميعها طالت أو قصرت وإذا كانت
هذه لمحات عن التلاؤم في الألفاظ فكيف بأسرار التلاؤم في التراكيب إذ طلبه
عسير على كل متحدث ، لكنة في القرآن الكريم غير شاق ولا عسير ، لصدوره
عن من هو أعلم ، وأحكم



مظاهر التلاؤم في التراكيب

إن دراسة الآية القرآنية تتصل اتصالاً مباشراً بدراسة اللفظة المفردة ، لأن هذه أساس تلك ، ونعد في دراستنا هذه كل آية من القرآن قائمة مقام الجملة، وذلك إيثار للإيجاز. أي أننا نعد الآية وحدة السورة غير غافلين عن معنى الجملة في علم العربية .

وإذا عرضنا لدراسة التراكيب ، وتلاؤمها في سورة ((الرعد)) فإنما نعرض لدراسة الآية . مستوضحين كيف أحكمت أدق تنسيق بحيث لا نحس فيها بكلمة يضيق بها مكانها ، أو تنبؤ عن موضعها أولاً تعيش مع أخوتها متبينين في كل آية مما نختاره شاهداً على في التركيب ، عن كون تلك الآية مكمله لما قبلها ، وتلك مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها وما سيقت له . بالإضافة إلى تلاؤم الجمل داخل الآيات .

فالفصلة بين كل آية وأخرى هي مظهر التلاؤم في التراكيب ، وقد عرضت سورة الرعد في جميع آياتها لجمل كثيرة جاءت آية في الأحكام والترابط والتلاؤم الذي جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض فصار البناء المحكم المتلائم الأجزاء .

خذ مثلاً قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ

أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إلى قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ .

تأمل كم جملة اشتملت عليها هذه الآية فهي تسع جمل . كل جملة وثيقة الاتصال بما قبلها ، وما بعدها . وقبل أن نوضح مظاهر التلاؤم بين تلك الجمل يجب أن نبحث عن صلة تلك الآية بما قبلها ، فذلك معين لنا على التعرف على مظاهر التلاؤم بين أجزاء جملها .

وأن وجه صلتها بما قبلها ((هو أن سابقتها تضمنت أن كل من في السماوات والأرض ساجد لله فلزم الإنكار على عبدة الأصنام ، والتوجه إليهم)) ((بقل)) ((يا محمد)) ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية (١) ٩

ويوضح وجه الصلة أن الآية السابقة على تلك هي قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ

يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلِّلُتْ لَهُمُ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ف جاء التلاؤم المحكم بين الآيتين .

والآن لندخل في تفصيل ذلك التلاؤم والترابط بين جمل تلك الآية .

أعني قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ...

(١) انظر تفسير الرازي الجزء ١٩ ص ٣١ ط الأولى ١٣٥٧ هـ المطبعة البهية بمصر .

النظم القرآني في سورة الرعد

إن أول جملة تطالعنا في الآية الكريمة هي تلك الجملة المركبة من فعل الأمر ((قل)) وفاعله الضمير المستتر وجوباً والعائد على محمد صلى الله عليه وسلم .

إنها جملة أمره تترك في النفس بعد انقضاء زمن التكلم مشرئبة متطلعة إلى ما سيلقي إليها ، وإلى ما ستؤمر به ، وقد حصل مفهوم ذلك الأمر في جملة ((من رب السماوات ولأرض)) .

والذي يستدعي النظر في هذا التركيب . هو التعبير بلفظة ((رب)) دون موجد أو خالق ، إذ في لفظة ((رب)) من معنى الإلهوية ما هو أعم وأكمل فيدخل تحتها معنى الخالق الموجود المتصرف رب كل شيء .

ثم تمضي الآية في سرد تلك التراكيب والجمال المحكمة فيأتي الجواب في جملة ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ ، ((ولما كان هذا الجواب جواباً يقربه عبدة الأصنام ويعترفون به ، ولا ينكرونه . أمر الله نبيه بأن يكون هو الناكر لهذا الجواب تنبيهاً على أنهم لا ينكرونه البتة))

ولما بين سبحانه أنه الرب لكل المخلوقات قال : قل لهم : ((فلم اتخذتم من دون الله أولياء)) ، وهي جمادات لا تملك لنفسها نفعا ولا ضراً فعبادتكم إياها محض العبث والسفه ، ولما ذكر سبحانه هذه الحجة الظاهرة بين أن من يمثلها يكون كالأعمى ، والعالم بها كالبصير . وأن الجهل بها كالظلمات ، والعلم بها كالنور .

وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوي العالم بها فكذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوي البصير ، وأن الظلمة لا تساوي النور ، وقد أكد الله سبحانه هذا البيان بالجمل المتساوقة في قوله : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) ثم جاء ما يتلاءم مع هذا التوكيد ، وهو قوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الاسميتين .

أما قوله : ﴿ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فيستوجب أن يأتي بعده في السياق قوله : ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ وقد حصل ، لأن خالق كل شيء ثلاثمه وتثبت له صفة الوجدانية ، والقهر والقوة . إن هذا النظم من براعة الاتساق ، والتلاؤم في تركيب كل جملة وصلتها بأختها .



وهذا شاهد آخر من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ وَأُولَئِكَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ إلى شأن الكفار : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴾ .

في هذا النص ست آيات كل آية اشتملت على أكثر من جملة ، وكل جملة اشتملت على تركيب جاء آية في الإحكام والتناسق . إذ كل آية بنيت

(١) انظر تفسير الرازي ص ٣١ الجزء ١٩ الطبعة الأولى ١٣٥٧ هـ المطبعة البهية بمصر

النظم القرآني في سورة الرعد

على صلة وثيقة بما قبلها وما بعدها . ففي الأولى نلاحظ أنه سبقها آية تشيد
بنكر أولي الأبواب ذوي التفكير ، والتدبر ، والإيمان على حد قوله تعالى
﴿ إِنَّمَا يَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

ومن هنا جاءت الآيات الخمس الأولى مرتبطة في تراكيبها بما سبقها
متلائمة في النسق ، إذ لما انتهى نفس الآية السابقة عليهن عند قوله ﴿ أُولُو
الْأَلْبَابِ ﴾ . شرعت الآية الأولى من الخمس المذكورة ، في صفات ذوي الأبواب ،
وأنهم السعداء لمحافظتهم على العهد المطلق ، والميثاق المطلق والعهد الأكبر
الذي تقوم عليه العهود كلها ، هو عهد الإيمان ، والميثاق الأكبر الذي تتجمع
عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان .

هكذا يمضي التركيب في الآية مقررًا أن وفاء هؤلاء البشر من الناس
بالعهد الإلهي ، والميثاق الرباني داخل تحته الوفاء بالعهود والمواثيق مع الناس
كافتهم .

ثم يمضي التركيب مقررًا في إجمال صفات أولئك السعداء وأنهم أهل
طاعة كاملة واستقامة واصلة ، وسير على السنة بلا انحراف ، ولا التواء^(١)

بعد ذلك تتوالى التراكيب مقرررة جزاء هؤلاء الناس على صنيعهم

وأنه الجنة التي هي مطمع كل مؤمن ﴿ أُولَئِكَ هُمْ عَقَبَى الدَّارِ جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾



(١) انظر ظلال القرآن لسيد قطب ج ١٣ ص ٨٩ طبعة بيروت .

وبعد أن رتب الجزاء وفق العمل جاءت الآية السادسة والأخيرة من النص تحمل في تراكيبها صفات أخرى لفريق آخر من الناس إذ يقول تعالى :

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الآية .

ومظاهر التلاؤم واضحة في سبق صفات السعداء ((وما ترتب على هذه الصفات من الأصول الشريفة ، والجزاء الحسن ، ثم في العطف ببيان حال الأشقياء ، وما يترتب عليها من الأصول المخزية المكروهة ، فجاء التركيب متبعاً الوعد بالوعيد ، والثواب بالعقاب ليكون البيان في غاية الكمال ^(١))) .



ومثل ذلك الأسلوب القائم على التلاؤم التام . يجري في آيات السورة جميعها . إليك مثلاً قوله تعالى : ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابٌ آخِرٌ أَشَقُّ وَمَأْتَهُمُ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ ، وقوله : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الآية . ولعلك تسأل عن وجه صلة قوله : ((مثل جنة الآية بما قبله . وبيان ذلك هو أن وجه صلة هذا التركيب ، يحيي الآية الأولى مبينة عذاب الكفار في الدنيا وفي الآخرة فأتبع التركيب يذكر ثواب المتقين ^(٢)))

وإن شئت تفصيلاً في تلاؤم تركيب الآيتين فتأمل قوله : ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابٌ آخِرٌ أَشَقُّ وَمَأْتَهُمُ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ ، وانظر إلى تلاحم

(١) تفسير الرازي ص ٤٦ الجزء ١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٨

النظم القرآني في سورة الرعد

الأجزاء وتلاؤها جاءت الآية بتركيبات ثلاثة : أولها في ذكر عذاب الكفار في الدنيا ، وثانيها في ذكر عذابهم في الآخرة ، وثالثها في أن هؤلاء لامضر لهم من عذاب الله في الحالين فأى تلاؤم أبين وأدق من ذلك .



التلاؤم في المعاني

ما سبق عرضه من الأمثلة والشواهد على التلاؤم في الألفاظ والتراكيب يمكن أن يستدل به على التلاؤم المعاني، ولكن لزيادة الإيضاح نؤمى إلى شيء من مظاهر التلاؤم في معاني الآيات في طائفة أخرى .

ومعلوم أن المعاني القرآنية تتحدث عن كل ما من شأنه إثبات الإلهية لله الواحد الأحد، بل إن الحديث عن الله جل جلاله له الجزء الأكبر من معاني السورة القرآنية جميعها . فالمتأمل يلاحظ في كل سورة بل في كل آية معنى يساق ((لضرب المثل الأعلى لله فهو السميع البصير، على كل شيء قدير، غفور رحيم . عزيز حكيم، حي قيوم، واسع عليم، بصير بالعباد، يحب المحسنين . ولا يحب الظالمين، واحد قهار، كبير متعال، عالم الغيب والشهادة، الملك القدوس، السلام المؤمن المهيمن، العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسني^(١))) .

إلى غير ذلك من معاني الأسماء الحسني والصفات العلي، بالإضافة إلى المعاني الكونية، ومعاني الأعمال الصالحة . والأعمال السيئة، وذكر الوعد والوعيد، والجنة والنار، والثواب والعقاب، ونحو ذلك من المعاني السامية التي تحدث عنها القرآن جملة وتفصيلا .

(١) انظر من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي ص ٢٥٣ الطبعة الثانية ١٣٧٠ هـ مطبعة نهضة مصر .

النظم القرآني في سورة الرعد

وقد عرضت سورة الرعد لكثير من المعاني الرفيعة حيث تحدثت آياتها عن الله جل ثناؤه ، في أروع أسلوب ، وأبداع تركيب ، وجاء المعنى منسقاً متلائماً مع ما قبله ، وما بعده .

فالله هو الذي رفع السماوات بغير عمد ، وهذا معنى القوة والعظمة يأتي

بعده في جانب ذكر الله قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهنا يبرز معنى العلو المطلق الذي يليق بجلال من خلق السماوات والأرض وما فيهن ، وما بينها .

وبعده يستمر السياق متحدثاً عن تعاقب الليل والنهار ، وهنا معنى

القدرة القادرة يأتي بعد كمال المعاني الرفيعة السامية لله تعالى .

وبين تلك الآيات ظلال وارفة تحمل من المعاني سابق أو لاحق . ففي

جانب الحديث عن الله يأتي معنى يسوقه قوله سبحانه : ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءَ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ﴾ فالمطلوب هنا هو التصديق والإيمان ، ثم معنى عن الكون ، وما أودع فيه من نعم ومنافع لصالح كل ما يدب على الأرض ، فهناك معنى تسخير الشمس والقمر ، ومد الأرض وتضجير الأنهار ، وتعاقب الليل والنهار .



وبعد تلك المعاني يأتي في السياق ما يلائم ذكرها من معنى التدبير

والتفكير . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ . فالتفكير ومعناه هما الغاية السامية لكل ذي عقل ودين .

ويأتي معنى الربوبية والإلهية الخالصة تسوقه الآية الكريمة من قوله

تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۗ﴾ ،

وروعة النظم أن جاء بعد المعنى ما يتطلبه مقام الآية هنا ، إذ تسوق الآية

الكريمة معنى الإنكار على الكفار لتوحيد الإلهية من قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ﴾ ويأتي إثبات ذلك في قوله ﴿قُلْ اللَّهُ ۗ﴾ .

وتجد معنى القوة والقهر في قواه : ﴿الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يأتي بعده معنى

يلائم تلك القوة وهذا السلطان من قوله : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۗ﴾ فمن ذا الذي

يستطيع إنزال الماء من السماء غير الله ؟ ذي القوة والرزق التين ، ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ

مِنَ الْمَزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾

وضع بين يديك آيات أخر مما تحدثت عنه السورة الكريمة من المعاني .

يقول تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۗ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَكَابِ ۗ﴾ .

لقد رسمت تلك الآية معنى الأمر بالعبودية الخاصة لله لا شريك له ،

والدعوة إليه لا إلى غيره . والمرجع إليه دون سواه . فالمعاني هنا متلائمة

مترابطة . إذ بعد تحقيق معنى العبودية . يأتي معنى دفع الشرك وطرحه ،

وبعد تحقيق هذين الغرضين يأتي معنى الدعوة إلى الله إيماناً به وإخلاصاً في

عبادته ، ولا أجل ولا أشرف من الأعمال بعد تحقيق العبادة ونبذ الشرك شي

المنظم القرآني في سورة الرعد

سوي الدعوة إليه سبحانه ، وبعد تحقيق تلك المعاني تومئ الآية الكريمة إلى المعاد من قوله تعالى : ((وإليه مآب)) حتى يقر في النفس البشرية معنى الجزاء ، وما فيه من ثواب أو عقاب .

فإن قلت : ما الصلة ، وما وجه التلاؤم بين معنى ((قل إنما أمرت أن أعبد الله ، ولا أشرك به)) بما قبله ؟ قيل لك : هو جواب للمنكرين معناه قل إنما أمرت فيما أنزل إلى بأن أعبد الله ، ولا أشرك به ، فإنكاركم له إنكار لعبادته وتوحيده ، فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به ^(١) .

وتأمل قوله تعالى : ((أفمن هو قائم على كل نفس . . .)) إلى قوله تعالى : ((وما لهم من الله من واق)) .

فقد رسمت الآيات هنا معنى إحاطة علم الله بكل نفس ، ومعنى الإنكار على اتخاذ الشركاء ، وتوجب أن يأتي إنكار الشرك والشركاء بعد معنى إحاطة علم الله بكل شيء ، ثم ولي هذا الإنكار معنى إتباع الهوى والإعراض عن سبيل الله ، وولي هذا الإعراض ما يستحق عليه المعرض من جزاء في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة . ثم ختم هذا المعنى يذكر عدم القدرة على الإفلات من عذاب الله في الحالين .

(١) انظر الكاشف الزمخشري ص ٣٦٢ طبعه دار الفكر بيروت .

ومسك الختام عن تلاؤم المعاني في سورة الرعد قول الله في خاتمتها :

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿١٢﴾ .

فالآية هنا تقرر إثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم في أرقى معاني الإثبات إذ تسوق نفي الكفار لرسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم وتدحض ذلك النفي الشنيع ((بما يظهر رسالته من الحجج القاطعة والبيانات الساطعة ذلك الإثبات المتمثل في شهادة الله التي لا مندوحة عنها إلى شاهد آخر^(١))).

إذا كان هذا عن التلاؤم بين الألفاظ، والتراكيب، والمعاني، فكيف به جو
السورة العام؟ ذلك ما سنعرض له في المبحث التالي .



(١) انظر تفسير أبي السعود ص ٢٣٥ تحقيق عبد القادر أحمد عطا مطبعة السعادة بمصر .

النظم القرآني في سورة الرعد

التلاؤم في جو السورة العام

مر معنا فيما سبق : أن إجراء النظم ثلاثة ، اللفظ المفرد ، والتركيب والمعنى ، ولكل جنس من هذه الأجناس جزئيات تقوم به ، وتعتمد عليه ، فاللفظ المفرد جزئياً ته الحروف ، وأصواتها ، ومخارجها ، والتركيب جزئياً ته اللفظة مع أختها ، والتصرف في طريقة النظم ، والمعنى جزئياً ته بما قبله ، وما بعده . وملاءمته لسابقه ولاحقه ، وقد تحدثنا عن مظاهر التلاؤم بين تلك الأجناس والجزئيات كل منها على حدة ، فجدد بنا الحديث عنها مجتمعة لندرك شيئاً من مظاهر التلاؤم وإحكام النظم في جو السورة العام .

إن أول ما يستوقظنا في ذلك هو وجه ملائمة سورة الرعد لما قبلها من السور ، وبيان صلتها به . ويتضح ذلك في أن الله سبحانه ((ذكر في سورة يوسف التي هي قبل سورة الرعد قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾) فأجمل سبحانه الآيات السماوية والأرضية في هذه الآية من سورة يوسف . ثم جاء بها مفصلة في سورة الرعد (١) . ولما كانت كل سورة تشتمل على عدد من الآيات القرآنية ، وهذه الآيات لها وجه صلتها الوثيق . فيما بينها في الترتيب والتركيب . والملائمة فإننا نلاحظ وجه الملائمة بين آيات سورة الرعد تبرز في تناسق الترتيب ودقة التركيب

(١) سورة يوسف الآية ١٠٥ .

. وبنظرة على آياتها نجدها متناسبة مع المعاني وخصائصها ونجد تفاوتها بين الطول والقصر متقابلاً لتنوع المعاني^(١) وهذا من أبرز مظاهر التلاؤم بين أجزاء النظم في جو السورة العام .

وإذا أردنا مزيد من الإيضاح للتلاؤم بين أجزاء النظم في هذه السورة فإننا نجدها من شطرين الأول : ((لعرض المشاهد الهائلة في آفاق الكون، وفي أعماق الغيب وفي أغوار النفس^(٢))) من ذلك قول الله تعالى في أول السورة : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْيَلْدَ النَّهَارَ﴾ وقوله : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ وَصِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُضٌ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ .

هذه الآيات تتحدث عن الكون وما فيه من الدلائل التي تبرهن على وجود خالقه ومدبرة ، ويعقبها في السياق آيات أخر عن علم الله بالغيب ومظاهر التلاؤم في جو الآيات ظاهرة لكل ذي عين وبصيرة ، فإنه سبحانه لما أجمل آيات الكون وبسطها ، أتبعها بآياته الدالة على واسع علمه المحيط بكل شيء .

(١) روح المعاني اللالوسي الجزء ١٣ ص ٨٤ مطبعة إحياء التراث العربي بيروت.

(٢) من منهل الأدب الخالد لمحمد المبارك ص ١٣ بتصرف (١) ظلال القرآن لسيد قطب الجزء ٥ ص ٨٧ .

النظم القرآني في سورة الرعد

ولذا ولي تلك الآيات قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ الآية إلى قوله تعالى : ﴿مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ .

ويظل السياق مستمراً في لمسات تسير أغوار النفس ، وتحرك كوامنها من أمن وخوف ، وبأس ورجاء . نلاحظ ذلك في ثنايا الآيات التالية : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّن أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ .

أما الشطر الثاني من السورة ((ففي عرض لمسات وجدانية وعقلية ، وتصويرية دقيقة حول قضية الوحي والرسالة ، وقضية التوحيد ، والإشراك بالله ^(١))) وهذا ما تشير إليه الآيات الكريمة التالية : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ الآيات إلى قوله : ((بل لله الأمر جميعاً))

ويستمر هذا الشطر من السورة في قضية الوحي والرسالة ، وبيان موقف المؤمنين ، وموقف الكافرين من ذلك ، ثم التعقيب بعد ذكر كل فريق بما يستحق من ثواب أو عقاب . ويشير السياق إلى تلك القضايا بقوله تعالى :

(١) ظلال القرآن لسيد قطب الجزء ٥ ص ٨٧ مطبعة بيروت .

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ .

والمتتبع لهذا الشطر يلمس مظاهر التلاؤم العجيب ، والرصف البديع

بين كل آية وأخرى في جو السورة من أولها إلى آخرها .

ويمكننا استخلاص مظاهر التلاؤم في جو السورة العام فيما يلي :

١ - ((بدأ الكلام في أول السورة بالتنويه بمكانتها ، ومكانة غيرها مما أنزل

على محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه الحق الذي لا مرية فيه .

٢ - هذا الحق لا مرية فيه ينبغي أن يؤمن به العقلاء لأنه قضية العقل ولكن

واقع الناس بخلاف ذلك فأكثرهم لا يؤمنون .

٣ - ولما كان الأمان يستدعي إقامة الأدلة ، وعرضت آيات السورة أدلة قدرة ،

وعلمه وحكمته في آفاق السماوات والأرض آيات مفصلات . تقرر صدق

المعاد ، وأنه أهون على الله من البدء والإيجاد .



٤ - ولما كانت دلائل قدرة الله كافية في بيان قدرته على البعث جاء بعد

تلك الدلائل ما يقرر إثبات علمه بكل شيء ، وأنه مطلع رقيب .

٥ - ثم بعد أن فرغت السورة من سرد تلك الدلائل في الكون وما فيه صورت

حاله عجز الإنسان ، وضعفهم أمام الظواهر الكونية المخيفة التي لا حيلة

النظم القرآني في سورة الرعد

لهم معها إلا أن يلجأوا بالدعاء إلى قوي أخرى وراء هذه الظواهر
يعتقدون أنها ستنجيهم منها ، ومن كل كرب ، وتلك حالة الكافرين
أما المؤمنون فيضرعون إلى الله القادر فيستجيب لهم ، ثم يمضي السياق
مبيناً أن كل شيء في هذا الكون خاضع لقدرة الله وقوته ، وموضحاً كيف
يعلم النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعالج موقف المشركين بوسائل الإقناع
مرحلة بعد أخرى فيها التلويح بذكر العقاب ، ثم إلى مرحلة أخرى هي
مرحلة تربية للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتلك موصولة بما قبلها من
مراحل حدث فيها الصراع مع المشركين .

وفي القسم الأخير من السورة يروجه الله تربيته لرسول الله صلى الله
عليه وسلم معالجا ما يدور في نفسه ، ومبيناً أن كل شيء بعلم الله وإرادته ،
فما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وأنه مهما بلغ تكذيب الكفار لمحمد فإن
شهادة الله له بالرسالة كافية في دحض حججهم ، ومزاعمهم ﴿ وَيَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ
الْكِتَابِ ﴾ (١) .

أنها آيات بينات ، تنبض بالتصوير الدقيق في كل لفظة وجملة فمن ذا
الذي يستطيع أن يصور حالة الكفار وهم يتخبطون في عذاب الله ومن ذا الذي
يستطيع أن يقرب إلى الأذهان تلك الأمثال ، والتشبيهات الرائعة الحية التي

(١) انظر سورة الرعد دراسة لسيد حنبله ص ٩٨ ، ٩٩ ، ٢٦٣ بتصرف .

تضربها السورة الكريمة لتجعل منها فصلاً بين الحق والباطل ؟ لا شيء سوي
هذا القرآن لأنه كتاب من عند الله ، أحكمت آياته ، وفصلت من لدن حكيم
خبير .



الفصل الثالث

التصوير البياني في سورة الرعد

النظم القرآني في سورة الرعد

الفصل الثالث

التصوير البياني في سورة الرعد

إن للعبارة القرآنية أسلوبها الفريد في التصوير البديع القائم على عرض النماذج الحية في الكون والإنسان ، والأحاسيس والمشاعر . فيما يكشف عن نعيم المؤمنين ، ويصف عذاب الكافرين ، وفيما يتعلق بوصف الجنة والنار وأحوال السعداء والأشقياء ، وفيما يصور مدي علم الله بالغيب ، وإحاطته المطلقة بحال الكون ومن عليه .

وقد عرضت سورة الرعد لكثير من المعاني التي عبر عنها بصور رائعة تألف نظمها واتسق على أروع طريق في التعبير الذي يرتقي ((بالصورة فيمنحها الحياة الشاخصة ، والحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهبي هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسدة مرئية^(١))) ، والطبيعة الكونية حية تنبض بالحركة المتوالية في أفق الكون الفسيح .

وإذا تدبرنا هذه السورة الكريمة استشعرنا عظمة التصوير البياني في ثنايا آياتها ، وهي تعرض آيات الله ومظاهر قدرته في السماوات المرفوعة بغير عمد ، والشمس والقمر كل منهما يسعى إلى غاية ، وفي الأرض وبسطها

(١) انظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ٣٤ .

وتشبيتها بالجبال الراسية ، وجعل النهار ، وبث الثمرات ، وفي الليل والنهار يتعاقبان ، وما في الأرض من حدائق وزروع ، وفي البرق والخوف منه والطمع فيه ، والسحاب وما ينزل منه من ماء ، وجريانه في الأودية سبلا ذا زبد أغير ذي ذبد وتصوير الرعد في صورة مسبح بحمد الله ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وفي الصواعق وما يحدث منها .

وتلك الصور البديعة تعبر عنها ، وترسم ظلالها الآيات الكريمة من

قوله تبارك اسمه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْبَلَدَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ ۖ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابِ وَرَزَعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿٤﴾ وَيَسْبُحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿٥﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٦﴾ الى قوله : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾

المنظم القرآني في سورة الرعد

وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَلَّ اللَّهُ بِكُمْ لَمُعْقَبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ .

تلك سبع آيات تتحدث جميعها عن آيات الله في الكون ، ومظاهر قدرته .
وإذا تدبرنا المعاني التي أدت هذه الأغراض ، وأسلوب الأداء لكل معنى من هذه المعاني . فسنجد الأسلوب القرآني فريداً يمتاز على غيره من كل أسلوب ، لتنوعه مرة بالحقيقة وأخرى بالمجاز ، والتعبير بالمشاهد الحسية وباستثارة العقول ، والاحتكام إلى العواطف و بالتخييل الحسن ، إلى غير ذلك مما تفيض به الآيات من سبل التوضيح ، ووسائل الإقناع والاستمالة من استعمال صور المقابلة ، والتجنيس ، والكنيات ، والاستعارات والتمثيل ، وعموم وسائل البيان .

ولعل من أبرز ما يطالعنا في ثنايا هذه الآيات من وضوح التصوير الفني فيها ما تعتمد عليه من أسلوب التقابل والتضاد ((لأن المعنى يجر ما يقابله، والضد أكثر خطوراً بالبال ، والعقل أسرع استجابة له ، وهو الذي يوضح الفكرة ، ويعين على فهمها)) وبضدها تتميز الأشياء ((وأدراك الأضداد عملية ذهنية يسير لا تحتاج إلى الكد الفكر)) ، ^(١) وهذه الظاهرة تتبين في مقابل السماوات المرفوعة ، بالأرض المبسوطة ، وفي الليل والنهار ، والخوف والطمع ،

(١) انظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبي للدكتور بدوي طبانة ص ٢٧٨ الطبعة الثالثة المطبعة الفنية

الحديثة ١٣٨٩ هـ

وفي يذهب ويمكث ، كل هذا في تنسيق عجيب لبعض معالم الكون في عقد ذي تقابلات فنية رائعة ، نلاحظها في الرواسي الثابتة ، والأنهار ، الجارية ، وبين الزوج والزوج في كل الثمرات ، وبين الليل والنهار ، ثم بين مشهد السماء ومشهد الأرض كل ذلك في إطار متكامل المشهد والصورة في نمط من النظم والتأليف عجيب .

والتصوير الفني في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾
لآية قد اشتمل على وجوه كثيرة من البيان . فهناك - القصير في قوله :
((الله الذي)) وهو قصر حقيقي استفيد من تعريف طريق الإسناد ((الله)) و
((الذي)) وينجر القصر إلى تسخير الشمس والقمر لأنهما من ملحقات صلة
الموصول أي الله وحدة الذي رفع ، واستوي ، وسخر . وهناك الفصل بين الجمل
في قوله : ﴿تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى
يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ، والفصل هنا لكمال
الاتصال لأن الجمال استثنائية وقعت جواباً لسؤال سائل . ففي الأول كان
سائلاً قال : هل حال السماوات ظاهر أم خفي ؟ الجواب ((ترونها)) وفي الثانية
: إن كل تلك الأمور من رفع واستواء وتسخير تحتاج إلى مدبر فمن هو ؟
والجواب يدبر الأمر ، وفي الثالثة والرابعة : إن هذه الظواهر الكونية آيات

النظم القرآني في سورة الرعد

مفصلات ، فمن الذي فصلها ، ولماذا ؟ والجواب : ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِّغُوا رِيبَكُمْ تَوْفُونَ﴾

وفي قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ الآية فنون بيانية لا تقل عن سابقتها في الآية الأولى : فهناك الحذف في قوله : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ ، إذ التقدير - ومياه الأنهار - لأن التمنن بالمياه أكمل من التمنن بأخاديدها ، ولأن القدرة والحكمة في خلق الماء أتم منها في خلق الأخاديد ^(١) وهناك القصر الحقيقي الذي استفيد من تعريف طريفي الإسناد ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ في قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ ومجي المسند إليه منكرًا للتكثير والتنويع في قوله : ((قطع .

وجنات . وزرع)) ثم هذه البلاغة التي تبدو في تقديم المعمول على العامل ، في قوله : ((قطع . جنات . وزرع)) وفي ذلك رد خطأ المخاطبين إلى الصواب لأنهم كانوا يظنون أن الزوجين خاصان ببعض الثمرات دون بعض فبين لهم أن جميع الثمرات مكونة من زوجين اثنين ذكر وأنثى . والحظ ذلك الإيجاز البليغ في قوله : ((قطع متجاورات)) فهاتان لفظتان أغنتا عن الأسباب بذكر قطع متلاصقة طيبة وسبخة ، وكريمة إلى زهيدة ، وصلبة إلى رخوة ، وأخرى صالحة للزرع لا لشجر كل تلك المعاني والصفات جمعتها لفظنا قطع متجاورات ^(٢) ،

(١) انظر الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز لعبد العزيز بن عبد السلام ص ٢٠٣ ط دار الفكر بدمشق.

(٢) الكشف الزمخشري ص ٣٤٩ ط دار الفكر بيروت .

ويتدرج التعبير في الصورة من إيجاز إلى إيجاز على حد قوله تعالى : ((يسقي بماء واحد)) فإن هذا التعبير القرآني يحمل في ثناياه ((لطائف بلاغية منها الدالة على لطف الله ووحدانيته وقدرته . وبيان الهدى والحجة الدامعة لمن ضل عن سبيل الله لأنه لو كان ظهور الثمر بالماء والتربة لوجب في القياس أن لا تختلف الطعوم والروائح ولا يقطع التفاضل في الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد ، لكن كل ذلك من صنع اللطيف الخبير))^(١) ودليل على عجب قدرته ، وهذه المعاني كلها أغني عن ذكرها التعبير بقوله : ﴿سَقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ هذا بالإضافة إلى ما يحوي هذا النمط الرائع مما يستشير الفكر ويبعث على التأمل الذي يقضي إلى الاعتراف بعظمة الخالق سبحانه .

والحظ دقة التصوير في تقديم ذكر الجنات غلي الزرع ، والإتيان به مفرداً جرياً على الأصل لأنه مصدر ، وعلى الرغم من أن الزرع عمود المعاش فقد قدم ذكر الجنات عليه تنبيهاً على دقة الصنعة ، وإحكامها فيما يوجد به الله على عباده من خيرات ، كالعنب ، إذ في خلقة ما يبهر العقول ، لكونه مياهاً متجمدة في أجسام رقيقة حلوة المذاق ، وراع تأخير ((نجيل)) فقد ذكرت بعد زرع ثلثا يفصل بين الصفة والموصوف ، وحتى لا يطول الفصل بين المتعاطفين ، ثم إن في التعبير بالصفة دون الموصوف ((ما يعني عن ذكر الموصوف بغلبته

(١) انظر البرهان للزركشي ص ٤٢٦ جزء ٣ تحقيق أبي الفضل إبراهيم . مطبعة الحلبي

النظم القرآني في سورة الرعد

وجمعه^(١))) وتأمل أسلوب التعريض بدم الكفار في قوله : ((إن في ذلك لقوم يتفكرون . آيات لقوم يعقلون))

فإن هؤلاء حرّموا أنفسهم نعمة العقل فعطلوا مقومات التفكير والتدبر ، بل عطلوا العقل الذي ميزهم الله به على سائر المخلوقات .



إن الوجة التصويرية لقوله تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّتْ﴾

الآية لتحمل مشهد قديماً مكروراً منذ خلق الله السموات والأرض ، وهذا المشهد

تمر عليه العين في غفلة والنفوس : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(٢) لكن التصوير يعرض هذا المشهد

جديداً معبراً ، وإنه لكفيل حين تتملاه العين أن يوقع في النفس أثرا وجدانياً

خاصاً ، فهذه القطع المتجاورات من الأرض مختلفة في النبات ، بل إن النوع

الواحد منه ليختلف في الأشكال فمزودج ومنفرد ، وجميعه يسقي بماء واحد

ولكن تختلف طعمه في المذاق وآيا ما كانت هذه الملاحظات فمردها الأول إلى

المشاهدة ، مشاهدة هذه اللوحة الطبيعة التي تتوجه إليها الأنظار ، لتراها

بالبداهة المهمة ، والحس اليقظ بعد أن تتملأها الأبصار ، وكم في المشاهد

المكرورة المألوفة ما يبدو جديراً كأنما تتملأه العين أول مرة حين تتجه إليه

(١) انظر روح المعاني اللالوسي ص ٩٢ ، ١٠٢ ج ١٣ مطبعة إحياء التراث العربي بيروت .

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٥ .

بالحس الشاعر المتفتح ، والعين المتيقظة للألوان بعد الغفلة الغالبة على بني البشر . وفي الأرض مشاهد كثيرة لعل من أشهد أثراً في الحس والنفس))^(١) تلك الصورة العجيبة التي رسمتها الآية هنا وكان من أشد التصاقها بالإنسان كونها لصالح حياته ونفعه . وهكذا نرى التصوير القرآني يتخذ الطبيعة ميداناً يقتبس منه صورة من نبات وحيوان وجماد ، بل نجد الآية الكريمة هنا تستمد عناصر التصوير من أقوى وأزكى عناصر الطبيعة ((وهو الماء)) وفي ذلك سر خلود هذا التصوير فبالماء يحيا كل شيء .

واستشعر روعة التصوير في قوله تعالى : ﴿رِيحُ الْبَرْقِ خَوْقًا وَطَمَعًا﴾ ، ﴿وَيَسْبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ ، ﴿نَاقِي الْأَرْضِ نَقْصًا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾)) وتأمل طريقة الإيضاح وكيفية أداء المعنى إلى الذهن من خلال هذه الصورة ، إذ تلف في إطارها صورة تسبيح الرعد ، ورؤية البرق ، تلك صورة ينتج عنها هذا ((التقسيم الجميل الخوف))^(٢) وأنعم النظر في تشبيه هزيم الرعد بصورة إنسان مسبح . وافطن لي التعبير بقوله : ((انتقصها من أطرافها)) كيف لاءمت كل لفظ أختها فإن عملية نقص الشيء كيفية أخذه من أطرافه لا من وسطه أو أعلاه: ((وإذا انتقصها من أطرافها)) وهذا التعبير مراد به نقص

(١) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ٥٩ ، ٦١ ، ١٢٨٦هـ .

(٢) انظر الصيغ البديعي للدكتور أحمد موسى ص ٣٣ الناشر دار الكتاب العربي القاهرة - ١٣٨٨هـ .

النظم القرآني في سورة الرعد

أهل الأرض بابتلائهم بالموت ونوائب الزمان ، كأخذهم بالخوف والجوع ،
ونقص في الأنفس والثمرات .



ويمكن أن نستخلص من معالم الجمال التصويري في السبع الآيات
السابقة في انتقال التعبير من إلى صيغة ، وتنوع الأسلوب بين الخطاب ،
والإخبار وذلك من خصائص الإبداع في النظم القرآني حتى لا يسير الكلام
على نمط واحد ، فإن مثل ذلك الانتقال تجديداً لنشاط السامع والقارئ .
حتى يبدو الأسلوب أمر وضوح وإقناع أكثر مما هو مخاطبة للقلوب
والعواطف، لأن التصوير في الآيات هنا كائن في مجال إثبات وحدانية الله
تعالى وعظيم قدرته الظاهرة في تلك الآيات ، والعلامات التي عدتها ، وهذه
الآيات ، وإن كانت واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار إلا أن أكثر هؤلاء
الكفار والمشركين والمعاندين لا يؤمنون بموجدتها وخلقها ، فهم يرونها وكأنهم
لا يرونها ، ومن هنا انتظم التصوير في أسلوب الآيات من عقد رائع جميل يأتلف
من :

١. الأضداد والتقابلات الفنية العجيبة .

٢. أسلوب القصر والوصل والفصل .

٣. الإيجاز غير المخل .

٤. وأخيراً ضرب الأمثال والتشبيهات المنتزعة من القريب المشاهد نلاحظ

ذلك في قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ .

وإذا أمعنت النظر في إطار هذا التمثيل الذي يصور مثلاً للحق ، ومثلاً للباطل أدركت بعضاً من أسرار الحكمة التي من تؤثر في النفوس والقلوب وتحولها مهياً للقبول والإضافة إلى ما في التعبير بسيل الأودية من جمال المبالغة ، فإن الأودية لا تسيل وإنما يسيل فيها الماء الغزير الذي أنزله الله من السماء ، وذلك ضرب من البلاغة يسميه العلماء ((المجاز الحكمي)) .

وتكاد لا تخلو سورة من القرآن من تشبيه أو مثل ذلك لأن هذا اللون من البيان ومن أشرف أنواع البلاغة ، وأعلاها - قال المبرد - : والتشبيه جار كثير في الكلام العربي حتى لو قال هو أكثر العرب لم يعد ^(١)

وإذا كان المبرد قد خص كلام العرب بهذا الفن من الكلام فإن التشبيه غلب في أساليب الأدب والبيان عند سائر الأمم قديمها وحديثها على السواء ، وذلك لما يؤديه التشبيه من الأغراض الكثيرة التي يحققها في صناعة الكلام ولا نجد مجالاً يتسع للإضافة في هذه الأغراض .. وغاية ما نقول في هذا المجال إن القرآن الكريم قد عني بهذا الضرب من الأساليب الأدبية وأعني به فن التشبيه لتلك الأغراض التي يحققها في سائر ضروب التعبير ، ومن ثم كانت العناية بالبحث البلاغي في التشبيه والتمثيل أثراً من آثار العناية بالكتاب الكريم لسعة

(١) انظر في تشبيهات القرآن لابن نافيا البغدادي ص ٩٥

النظم القرآني في سورة الرعد

هذين الفين في اللسان العربي ، ولقوة تأثيرهما في النفوس . يقول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ وقال : ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ

الأمثال﴾ فامتن علينا بذلك لما تتضمنه الأمثال من الفوائد ، فإنما

يصار إليها لكشف المعاني وأدناه المتوهم من الشاهد^(١)

وتلك الصورة الرائعة في المثل الذي ساقته الآية الكريمة من قوله

تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ الآية ينتظم إطاره من

إسناد مجازي ، وإسناد حقيقي ، وذلك مندرج حيث يراد بالوادي الموضع الذي

يسيل فيه الماء الكثير ، أو يراد به الماء الجاري فيه فهو من إطلاق المحل وإرادة

الحال وعلى الأول فالإسناد مجازي ، وعلى الثاني فالإسناد حقيقي ((وإيثار

التمثيل بالأودية على الأنهار المستمرة الجريان لوضوح المماثلة بين شأن الأودية

، وشأن ما مثل بها))^(٢) ثم إن التصوير هنا مشهد متكامل " تتملاه العين ،

والأذن ، والحس والخيال ، والفكر ، الوجدان تصوير حي منزع من عالم

الأحياء ، لا ألوان مجردة ، وخطوط جامدة تصوير تقاس فيه الأبعاد والمسافات

بالمشاعر والوجدانات فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس أدمية حية أو في

مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة "^(٣)

(١) انظر الإنفاق في علوم القرآن للأسيوطي ص ١٣١ جزء ٢ الطبعة الثانية ١٣٤٣ هـ المطبعة الأزهرية

بمصر

(٢) روح المعاني للالوسي ص ١٢٩ . ج ١٢ مطبعة إحياء التراث العربي ببيروت

(٣) انظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ٣٥

وحول تلك الصور نذكر ما أشار إليه ابن الأثير وهو يتعرض لذكر حد الكتابة بقوله : حد الكناية الجامع لها هو : كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بينهما ثم قال : وكذلك ورد قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾ . فكني عن العلم وبالأودية عن القلوب وبالزبد عن الضلال ويمضي ابن الأثير قائلا : ((وقد رأيت جماعة من أئمة الفقه لا يحققون أمر الكناية وإذا سئلوا عنها بالمجاز وليس الأمر كذلك . وبينهما وصف جامع كهذه الآية وما جري مجراها . فإن يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم وكلك يجوز حمل الأودية على مهابط الأرض ، وعلى القلوب ، وهكذا يجوز حمل الزبد على الغشاء الرابي الذي تقذفه السهول وعلى الضلال . انتهى كلامه))^(١) وأري أن حمل هذه الآية على الكتابة بعيد ولعله من ابن الأثير دليل واحتجاج على ما ذهب إليه في تحديد معنى الكناية ، إذ جعل لها جانبي حقيقة ومجاز ولا أثر لذلك في الآية الكريمة إذ التصريح فيها بالحقيقة ظاهر . والذي يهمننا في هذا المقام هو استيفاء جوانب التصوير في هذا المثل الذي ضربته الآية الكريمة . وأول ما يستوقفنا من جوانب الإبداع ذلك التناسق العجيب بين تلك الصورة وما سبقها في السياق فأنزل الماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقال في المشهد الكوني السابق

(١) انظر المثل السائر لابن الأثير ×× ص ٢٠٤ تحقيق محي الدين عبد الحميد

النظم القرآني في سورة الرعد

الذي سبق للتدليل على قدرة الواحد القهار حيث تسيل هذه الأودية بقدرها كل بحسية وكل بمقدار طاقته وحاجته وكل ذلك يشهد بتدبير الخالق لكل شيء^(١)

إن الإطار يضم آية واحد اشتملت على ثلاثة أمثال ضربه الله في مثل واحد يقول : كما اضمحل هذا الزيد فصار جفاء لا ينفع ولا ترجي بركته كذلك يضمحل الباطل عن أهله ، وكما مكث هذا الماء في الأرض فأمرعت وريت بركتها وأخرج نباتها وكذلك الذهب والفضة حين أدخلنا النار فذهب خبثهما كذلك يبقى الحق لأهله وكما اضمحل خبث هذا الذهب وتلك الفضة حين أدخلنا النار كذلك يضمحل الباطل عن أهله^(٢) وأثر التلاحم ظاهر في جو الآيات ومن خلال ما صورته الآية بأسلوبها البديع المفاجئ فبعد جو المجادلة الذي أثير في الآيات قبلها تأتي المفاجأة في هذه الآية من قوله تعالى

: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ۗ

كأن السورة قد انتقلت إلى موضوع آخر جديد لا صلة البتة له بما قبله لكن لا يلبث هذا الانتقال في الأسلوب المفاجئ حتى يعود إلى الربط بصلب الموضوع ويستكمل مراحل مواجهة التحدي بين الحق والباطل وبين أنصار الحق وأعداء الباطل إذ يقول الله تعالى :

(١) انظر الظلال لسيد قطب ص xxx

(٢) الإتيان في علوم القرآن للأسيوطي ج ٢ ص ١٣٢ xx البيان في تفسير أمثال القرآن لابن القيم بتصرف

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ ثم يقول : ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ .

وهذه المرحلة جاء على صورة مثلين ماديين مشاهدين جمعا في صورة مثلين ماديين لتشابههما في الشكل والنتيجة . ولتقف على هذا التصوير بإمعان .

فالمثل الأول مشهد من المشاهد الكونية يعيشه الذين يقطنون البادية في الصحاري والقفار وبين السهول والجبال والوديان أنه يشهد مياه تنزل من السماء فتعمم السهل والوعر))^(١)

والحظ في الإطار التصويري لهذا المثل تلك الألفاظ المتخيرة إلى تلائم

الطبيعة الخشنة طبيعة البادية حيث القوة في ضجيج الجرس ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والقوة في الأداء فاحتمل السيل زيدا رابيا فلم احتمل دون جمل أنها قوة في التعبير تتبع قوة المعنى ثم انظر إلى وصف الزيد بقوله ((رابيا)) ففي ذلك بيان للمحتمل وأنه لا وزن له فيمكث في الأرض ، ولم تقل الآية فاحتمل السيل فوقه ، وفي ذلك إيذان بأن الفوقية مقتضي شأن الزيد لا من جهة المحتمل تحقيقاً للمماثلة بينه وبين ما مثل به من الباطل الذي شأنه الظهور في بادئ الرأي من غير مداخلة في الحق))^(٢)

ولاحظ طبيعة الألفاظ في الثاني من المشهد التصويري وهو قوله تعالى : ﴿وَمِمَّا

(١) انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن جنبكة ص ١٤٨ .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ص ٢١٣ .

النظم القرآني في سورة الرعد

يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ أَبْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مُتَعِ زَيْدٍ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ .

ولاستكمال الصورة تأمل مشهد تدفق المياه مجتمعة منحصرة بين الجبال هابطة من كل مرتفع حتى تملأ الأودية وتسيل عنيفة مخيفة حتى ليخيل للناظرين أن الأودية تسير معها وفي ذلك جو يكتنف النفس الإنسانية ويحيطها بشيء من الرغبة والرغبة وهذا من تأثير الأمثال .

ويتضمن المثل المركب في هذه الآية . إشعاراً بتشبيه الصراع بين الحق والباطل وبين أنصار الحق وأعوان الباطل بحالة الصراع بين الجواهر النافعة والشوائب المفسدة عند حركة السيل الجارف ، وحركة الغليان في المعادن وأشبهها وتشبيه النتائج في كل من الممثل له بالنتائج في كل من الأمثال .

فإذا اعتبرنا هذا المثل المركب من باب التشبيه لقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ ﴾

يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴿ وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ فهو من تشبيه التمثيل لأن وجه الشبه فيه منتزع من متعدد . بل هو من روائع التشبيه الغني بالمقابلات الجزئية بين أجزاء من المشبه وأجزاء من المشبه به . مع الحركة المتتابعة العجيبة والنهائية الناطقة بالنتيجة التي فيها باسم لأنصار الحق ووعيد كالح لجنود الباطل . وأول هذه المقابلات الجزئية كون الحق والماء منزليين من السماء وعلى من يعيش في الأرض مقابل هذه النتائج إما بالحق الذي لا مرية فيه وإما بالباطل الذي هو زاهق لا محالة .



وانعم النظر في صورة تسبيح الملائكة وصور تسبيح الرعد . ففيهما من البديع الرائع ((إدماج الحديث عن الملائكة المسبحة من خيفة الله مع صوت الرعد المسبح بحمد الله استكمالاً لعرض الصورة الحركية : ما يظهر منها لأعين الناس .. وما يخفي عنها مما يشاهده غيرهم)) .

ولما استكملت الصورة كامل هيئتها وأعطت كل دلالتها على قدرة الله القادر على الإنعام والقادر على الانتقام . حسن التعريض بالصواعق التي ترافق تلك الظواهر في بعض الأحيان فتنزل بالهلاك على من يشاء الله هلاكه وحسن ختم هذه الصورة الرائعة بما يتصل بالأمر الذي سيقت من أجله وهو إقامة الدليل على قدرة الله تعالى : ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾^(١) فعلى الرغم من كل هذه الأدلة المنبثة في الكون يجد الكافرون لأنفسهم مجالاً للمجادلة في ذات الله وفي صفاته وفي قدرته على بعثهم ، وحينما تضيق بهم الحجة يبيتون ألوان الكيد للرسول الكريم ولرسالته وللمسلمين^(١) وتصرفهم هذا عناد وإعراض عن الله قال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن

مَنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(٢)

(١) انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنيفة ص ١١٦ .

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٥ .

- ٢ -

ومن بين الصور البديعة الرائعة ما تضمنته بعض آيات هذه السورة
الكريمة عن الغيبيات التي ضم إطارها بيان انفراد الله سبحانه بعلم الغيب ،
وإحاطته بكل ما في الكون من إنسان أو حيوان أو جماد ، وما تحمل كل أنثى
وما في الأرحام من أنواع الحمل ، وعلم الغيب والشهادة : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ
ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ وتلك الصورة تجمعها الآيات الكريمة من
قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَرْزُقُهَا وَمَا تَزِدُّهَا وَمَا كُنَّ
شَيْءًا عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۗ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۗ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ
أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ۗ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۗ لَمْ تُمِيقِبْتُمْ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۗ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا
أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ أَفْلًا مَرَدَّهُمْ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ۗ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ
هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي
الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَهَرُ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۗ ﴾

❖ ❖ ❖

وقوله في سياق آخر : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلْمُ الْكُفْرِ لِمَنْ عَقِبَى الدَّارِ ﴿١٤﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿١٥﴾﴾

هنا سبع آيات تحدثت عن الأمور الغيبية ، في إطار بديع محكم يصور مدي علم الله المحيط بكل شيء . فلنتفحص جوانب الإبداع التصويري في هذه اللوحات القرآنية الشفافة .

لعل من أبرز خصائص الإبداع التصويري في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ﴾^{١٤} لجوء الآية هنا إلى أسلوب التقابل الفني بين لفظتي ، تفيض وتزداد ، وما تحمله كل من هاتين اللفظتين من معاني كثيرة كفي عن سردها وذكرها التعبير بهما متقابلين ، فإن مما تنقصه الأرحام وتزداده : عدد الولد ، وهيئة جسده ، فتمام الخلقة ، أو مخدج ، ومنه مدة ولادته ، فقد تكون لتسعة أشهر ، أو أقل أو أزيد إلى سنتين عند أبي حنيفة ، وأربع عند الشافعي ، وخمس عند مالك ، زمنه الدم فإنه يقل ويكثر ، وقبل هذا كله علم الله المحيط بما في هذه الأرحام من جنس الولد ، أذكر أم أنثى ؟ وما يتبع ذلك من صفات الحسن والقبح والطول والقصر ، وكل صفة أو حال حاضرة أو مترقبة . كل هذه المعاني عبر عنها بلفظتين اثنتين فما أدقه من تصوير ، وما أروع من إيجاز)) . (١)

(١) انظر الكشف للزمخشري ص ٣٥١ طبعة دار الفكر بيروت .

النظم القرآني في سورة الرعد

وفي هذا التصوير العجيب ، عن مدي علم الله بالغيب ، وأحاطته بكل شيء يقف الحس مشدوها يرتعش تحت وقع هذه اللمسات العميقة في التصوير وتحت هذه الإيحاءات الصوتية العجيبة في التعبير نعم يقف مشدوهاً وهو يقفوا مسارب علم الله ، ومواقعه وهو يتتبع الحمل المكنون في الأرحام ، والسر المستور في الصدور ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ .

يقف الحس مشدوهاً وهو يتتبع الحركة الخفية في جنح الليل وسرور النهار، وكل مستخف، وكل سارب، وكل جاهر، وكل هامس .

إن هذه كله مكشوف تحت المجهر الكاشف يتتبعه شعاع من علم الله ، وتتعبه حفظة تحصي الخواطر والنوايا . إلا أنها الرهيبة الخاشعة ، التي لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله تطمئن في حماه ، وأن المؤمن بالله ليعلم أن علم الله محيط بما في الظاهر والخفي ، ولكن وقع هذه القضية الكلية في الحس . لا يقاس إلى وقع مفرداتها كما يعرض السياق بعضها في هذا التصوير العجيب : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ حين يذهب الخيال يتبع

كل أنثى في هذا الكون المترامي الأطراف ، كمل أنثى في الوبر المدر ، في البدو والحضر في البيوت والكهوف ، والمسارب والغابات ، ويتصور علم الله محيطاً بهذه الأجنحة في خفاياها ، وإطلاعه على كل دائق منها ، لا يملك المؤمن إلا أن يقول : سبحانك^(١)

(١) انظر تفسير سورة الرعد في الظلال لسيد قطب .

إن هذه الصورة البيانية عن علم الله سبحانه بالغيب تأتي ختاماً للسورة ((بحكاية إنكار الكفار للرسالة المحمدية وقد بدئت السورة بإثبات الرسالة فالتقى البدء والختام ويشهد الله مكثفاً بشهاداته . وأنه تعالى هو الذي عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب . وتلك الصورة جاءت آية في الأحكام والتناسب إذ ختمت بها آيات السورة الكريمة التي تزخر بكثير من القضايا قضية الوحي والرسالة وقضية الشركاء ، وقضية الوعد والوعيد للكفار وطلبهم المعجزات من الرسول الله صلى الله عليه وسلم . فجاءت تلك الآية الكريمة حاسمة لكل تلك القضايا مكثفية بعلم الله وشهادته سبحانه التي لا يعدلها: ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾

وتأمل في إطار تلك الصورة المبتدأة بفعل الأمر ((قل)) تلك اللفظة التي هي واسطة العقد في تركيب هذه الآية فكأنما تبقى النفوس متطلعة لما سيرد على الكفار في قولهم لست مرسلًا وكأنما يتطلع إلى نتيجة ذلك الاعتراض ولما جاءت هذه اللفظة التي هي فعل الأمر ((قل)) انتزعت من النفوس كل تردد واضطراب نعم قل كفي بالله لا غيره شهيداً على ما أقول . وعلى صدق رسالتي .

وأمضي متتبعا جزئيات هذه الصورة البيانية في سياق الآيات من قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾

﴿ أَلَمْ مَعَقِبْتُمْ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ .

النظم القرآني في سورة الرعد

وانظر جلال المشهد التصويري وعظمته حين ((يذهب الخيال يتتبع كل هامس ، وكل جاهر ، وكل مستخف وكل سارب في هذا الكون الفسيح الهائل . ويتصور علم الله جلّت قدرته يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه ويقيّد عليه كل شاردة وكل واردة آناء الليل وأطراف النهار .

إن اللمسات التي رسمتها تلك الصورة عن آفاق الكون ليست بأضخم ولا أعمق من هذه اللمسات الأخيرة . في أغوار النفس والغيب ومجاهيل السرائر ، وأن هذه لكف لتلك في مجال التقابل والتناظر ((^(١) .

وأن لأسلوب التعريف والتنكير في بعض الألفاظ التي يشملها إطار هذه الصورة لمزية تخلع على المشهد مزيداً من الإبانة والإيضاح . فقد جئ بالسر والجره معرفين بالاسم الموصول ((من)) في قوله تعالى: ﴿أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ

جَهَرَ بِهِ﴾ إشارة إلى أن كلا منهما قاصد لما كان منه من أسرار وجهه فكأنه بقصده ميز نفسه بتعريف . وأما قوله تعالى: ﴿مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ

بِالنَّهَارِ﴾ فقد عرف المستخفي بالموصول ((من)) لأن المستخفي هنا قاصد للتواري والخفاء متتبع له وبذلك ميز بالاستخفاء الذي لا يجديه فاستحق أن يشار إليه بأنه معروف غير مجهول ولكن الذي يلفت النظر هو قوله تعالى:

﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ إذ لم يأت فيه لفظ ((سارب)) معرفاً بل جاء منكراً ،

(١) انظر الظلال لسيد قطب ص ٧٥ ، ٧٦ .

وكان الغرض من تنكيهه بيان إيراده قد كان لاستكمال الطرفين المتضادين بالتسوية ، وليس الغرض تنبيهه إلى أنه معلوم غير مجهول لأنه في الأصل لا يقصد خفاء نفسه ، ولا إظهارها وإنما هو سارب من السارين ، فهو واحد من كثيرين أعمالهم معلومة لله تعالى)) (١).

والخط ذلك الإبداع في دقة التصوير من خلال طرف المبالغة ((في جانب المخاطب)) ، حيث جاءت تلك المبالغة مدمجة في المقابلة والمعنى أن هذا الظهور وهذا الاستخفاء متعذر على الناس الذين يدركون بحواسهم ما يظهر لهم ويغيب عنهم ما لا تقع عليه أبصارهم .

أما علم الله فلا مبالغة فيه إذ هو جار على الحقيقة التي لا مرء فيها لأن الله سبحانه يعلم السر وأخفى من السر ، فليس ذلك متعذراً عليه جل ثناؤه)) (٢)

ويمكننا استخلاص ما اشتملت عليه طريقة الأداء في هذه الصورة من وجوه البيان فيما يلي :

١. التقابل بين الألفاظ ، والتركيب : إليك لفظ تغيض يقابل لفظ تزداد ،

وكذلك الغيب والشهادة ، وأسر وجهر ، ومستخف وسارب الليل والنهار .

(١) سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنيكة ص ٩٦ .

(٢) البرهان للزركشي ص ٥٣ الجزء الثالث تحقيق محمد أبيس الفضل إبراهيم الطبعة الثانية ١٣٩١هـ مطبعة الحلبي .

النظم القرآني في سورة الرعد

وفي التركيب قوله ﴿مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ بقوله : ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾^(١)
ومن بين يديه ، يقابله ومن خلفه .

٢- مراعاة النظير في قوله تعالى : ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾^(٢) بعد قوله :
﴿عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ، فكونه سبحانه يعلم الغيب والشهادة فإنه يناسبه
من أسمائه الحسنی في هذا المقام قوله : ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾^(٣) .

٣- قوة التأكيد في التخصيص الذي يؤديه قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ فإنه تأكيد بالجملة الاسمية إفادة تقديم اسم الله تعالى
الذي أسند إليه العلم بالغيب في هذه الآية مرتين :

الأولى : إذ جعلت جملة ((يعلم)) خبر عن لفظ الجلالة

الثانية : إذ كان فاعل يعلم ظهيراً مستتراً يعود على الله .

واليك تلك الصورة العجيبة عن علم الله بالغيب ، وإحاطته بكل شيء إذ

يقول تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ... إلى قوله : ﴿وَمَنْ

يُضِلِلِ اللَّهُ فَإِنَّهُ مِنَ الْهَادِينَ﴾^(٤) تأمل مشهد تلك الصورة البيانية المؤتلفة من

القيومية لله وحده . ((فكل نفس عليه حارس قائم عليها مشرف مراقب

يحاسبها بما كسبت ومن هو ؟ إنه الله وحدة فأنة نفس لا تأخذنها هذه الصورة

وهي في ذاتها حق ، وإنما يجسمها التعبير القرآني للإدراك البشري الذي يتأثر

بالحسيات أكثر مما يتأثر بالتجريدات . أفذلك كذلك ؟ ثم يجعل الكفار

لله شركاء وهنا يبدو تصرفهم مستنكراً مستغرباً في ظل هذا المشهد الشاخص المرهوب: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ والله وحده القائم على نفس بما كسبت لا تفلت منه ولا تروغ. ويمضي السياق المبدع في التصوير في رسم ظل التهكم المر بهؤلاء في قول الله تعالى: ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ وينتهي هذا التهكم بالتقرير الجاد الفاصل في قوله: ﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ .. فالمسألة إذاً أن هؤلاء الكفار ستروا أدلة الإيمان وجهدوا نفوسهم عن دلائل الهدى فحقت عليهم النهاية الحتمية إضلال الله لهم وتعذيبهم: ﴿وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (١)

وتأمل الإطار لتلك الصورة كيف زخر بصور بلاغية تبرز في وضع الموصل موضع المضمرة في قوله: ﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وفي هذا الأسلوب ذم للكفار وتسجيل عليهم .

وكذلك في وضع المظهر موضع المضمرة في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ وفي ذلك تنصيص علي وحدانية الله ذاتاً واسماً وتنبية على اختصاصه باستحقاق العبادة مع ما في هذا الأسلوب من البيان بعد الإيهام على حد قوله

(١) انظر الظلال لسيد قطب الجزء الرابع ط دار الشروق .

النظم القرآني في سورة الرعد

تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(١) حيث جاء الموصول للدلالة
علي تفخيم أمر المبين)) .

بل تأمل لفظة ((أم)) في الآية الكريمة : فإن الأولى بمعنى بل ومجي
الاستفهام متلوا بالنفي في قوله : ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾^(٢) بديع لا تكنه بلاغته
وبراعته ولو أتى الكلام على الأصل غير محلي بهذا التصرف البديع لكان على
النسق التالي : وجعلوا لله شركاء وما هم دونه إلا أسماء سميتوها^(٣)

وهذا الإيجاز بالحذف في قوله : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا﴾^(٤) إذ التقدير
كشركائهم أو يشركون به بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ
شُرَكَاءَ﴾^(٥) وراع هنا استعمال صيغة الاستفهام بمعنى الإنكار الإبطالي لا بمعنى
طلب الفهم . أي ليس من هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن ليس
كذلك .

ويستطرد السياق لاستكمال الصورة في قوله تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلْمُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَقَبِ الدَّارِ﴾^(٦)
وذلك بعد نفس طويل في بعض الآيات ولم يزل المعنى مستمرا يشهد بوحدانية

(١) انظر تفسير أبي السعود ص ٢٢٨

(٢) انظر الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لأحمد بن محمد بن المنير السكندري ص ٣٦١ . علي

هامش الكشاف للزمخشري _ طبعة دار الفكر بيروت

الله وإحاطته بعلم الغيب على نسق قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ .

ومما يبعث على التأمل في الجانب التصويري من قوله تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلْمُ الْكُفْرِ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ﴾

أن جاء ترتيب الأسباب ثم ترتيب النتائج ، نلاحظ ذلك في صدر الآية قول الحق سبحانه : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ، فقد عقب السياق بذكر نتيجة مكر أولئك الكفار وتلك النتيجة هي مكر الله الذي يفلت منه أحد ثم هذا المكر من جانب الله العلي القدير ليس ظلماً لأحد من البشر ، وإنما هو مبني على علمه المحيط بما في مكنونات الضمائر والخوارج ، فلو صنفت نفوس أولئك الكفرة لتسلمت من مكر الله ، ولكن سبق في علمه المحيط بكل شيء أن هؤلاء استحقوا عاقبة المكر بأخذهم : ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ .

((والمكر تدبير أمر في خفاء عمّن دبر عليه لصرف عما يريد ، أو لإيقاعه فيما لا يريد . وقد يكون مذموماً إذا كان الأمر المدبر فيه مؤدياً إلى نتيجة مذمومة . وقد يكون محموداً إذا كان الأمر المدبر فيه مؤدياً إلى نتيجة محمودة .

النظم القرآني في سورة الرعد

والضمير في قوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعود إلى المشركين، ومعلوم أن موضوع السورة يدور حول الحديث عنهم . أي فلا غرابة أن يكون منهم مكر للرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالدين جاء به ، وبالمسلمين فقد سبقتهم أمم كثيرة كافرة مكرت بالرسول ، وبالرسالات ، وبالمؤمنين بها



قال جل وعلى : ﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ، وقوله عز اسمه : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ ، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٧﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٨﴾ وَأَصْحَابُ الْآيَةِ وَقَوْمُ تُجِّ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾



ولا تكاد سورة القرآن في جملتها تخلو من مثل هذه الآيات الكريمة التي تساق لتهدئة قلب الرسول الكريم وتثبيت نفسه وبيان وظيفته ، وحمله على الصبر في نشر دعوته ، تبليغ رسالته .

والذي يعيننا في هذا المقام هو إمعان النظر في إبداع التصوير في الآيات من سورة الرعد، فإذا تدبرنا قول الله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ واستشعرنا روعة الأسلوب القرآني ألفينا تركيباً لا غموض فيه إذ جملة مؤلفة من مبتدأ وخبر وحال ، لكن ما المعنى المراد من كون المكر كله

لله ؟ إن المكر قد يكون في الخير ، وقد يكون في الشر ، لأن الله ليس بظلام للعبيد فأخذ الناس بظلمهم قطع لدا بر الشر ، ونزوات الباطل ، وردع للبشر من الترددي مهاوي الفساد والكفر والضلال .

وظلال التصوير القرآني يشي ببيان هذا المعنى إذ تحته ما يلي :

١- يتصور الكافرون أنهم يدبرون خطط مكرهم في خفاء ، وأن خططهم ستحقق لهم الظفر بالرسول ورسالاتهم التي من شأن تسلبهم نفوذهم وسلطانهم في قومهم .

٢- الله سبحانه مطلع عليهم لا تخفي عليه منهم ، ولا من أفعالهم خافية فما بظنونه خفياً هو معلوم لله تعالى .

٣- يترك الله الماكرين يتابعون تنفيذ خططهم في المكر ، وهو مطلع عليهم وقد دبر لهم من الأمر ما ليس في حساباتهم ، حتى إذا ظنوا أنهم قد قاربوا قطف ثمرة مكرهم ، فوجئوا بتدبير لا علم لهم به - أفسد عليهم أمرهم ووجدوا أنفسهم قد سقطوا في شركهم الذي نصبوه دون أن يعرفوا كيف سقطوا فيه ، وهنا نقول : إن المكر الذي يحاول أن يوجهه الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولدين الله ، إنما هو في الحقيقة مكر بالله ولما كان الله مطلعاً على ما يدبرون ، لأنه يعلم ما تكسب كل نفس سقط أن يكون ما يحاولونه في حقيقة الأمر مكرًا ، ولما كان الله فيما يمد لهم قد دبر لهم من حيث لا يعلمون ما يفسد عليهم مكرهم

النظم القرآني في سورة الرعد

ويوقعهم في جزاء عملهم ، كان المكر في الحقيقة لله لأن تدبير الله تعالى مجهولة لهم ، ونافذة فيهم وفي غيرهم لا محالة .

فأي التدبير في الحقيقة وواقع الأمر ؟ أتدبيرهم أم تدبير الله ؟ لا شك أنه تدبير الله ، لكن محاولتهم قد كانت في ابتغاء الشر ، وما دبره الله قد كان في ابتغاء الخير ^(١))) يقطع دابر المذنب والكافر وردع من يحوم حول حمي الضلال ، وهذا وذاك كله بتدبير الله إذا فالمكر كله له . لعلمه بكافة الأمور نافعها وضارها .

والتعبير بالمكر في جانب الله تعالى : أسلوب من المشاكلة . وهي ضرب من ضروب البلاغة التي وردت في كتاب الله تعالى

والمشاكلة هي : التعبير عن الشيء يلفظ غيره لوقوعه في صحبة ذلك الغير ، وجمال هذا التعبير أن فيه ائتلافاً بين الألفاظ كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ . فإن جزاء السيئة عقوبة ، ولكنه تعالى عبر عن العقوبة بالسيئة لوقوعها في صحبة تلك السيئة ، ومثل قوله تعالى :

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ .

وكذلك المكر هنا في جانب الله الذي من معانية التدبير لما يبیت أولئك القوم وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التدبير بالمكر لوقوعه في صحبة مكرهم وخير الكلام ما كان أوله يدل على آخرة ، وما كان بعضه آخذاً برقاب بعض .

(١) انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنبكة ص ٢٠٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،

ولنتبين بعد ذلك قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فهو تعليل
وبيان لإحاطة علم الله بدخيلة الأنفس ، وما تخفي الصدور ، فقد ظن أولئك
الغافلون أن أحداً لا يعلم بما يمكرون فبين لهم الله أنه ما من شاردة أو واردة .
إلا وعلمه محيط بها ، وإذا : ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ .

ويمضي السياق في تصوير مدي علم الله بالغيب إذ يقول تعالى : ﴿وَيَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ
الْكِتَابِ﴾ .

- ٣ -

وقد حلفت السورة الكريمة بكثير من الصور البيانية التي تنتظم إنكار
الكفار للبعث والنشور . واستعجال العذاب ، وتصوير المشركين الذين يلجأون
إلى من لا ينفعهم ولا يضرهم ، وتمثيلهم ببساط كفيه إلى الماء ليبلغ فاء فلا
يصل إليه .

تلك المعاني يبرزها التصوير البديع في الآيات الكريمت من السورة إذ يقول

تعالى : ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلَهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِيهِ خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾ ويستعجلونك بالسبيته قبل الحسنه وقد خلت من قبلهم المثلث وإن

النظم القرآني في سورة الرعد

رَبِّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٠﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿١١﴾

وقوله تعالى : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ

كُفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ ۗ وَمَادَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۗ﴾ .

أربع آيات)) يعجب التعبير في الأول منهن من أمر قوم تلك الصور

التي سبق عرضها في أول السورة لا توقظ قلوبهم ، ولا تنبه عقولهم ، ولا يلوح لهم من ورائها تدبير المدبر وقدرة الخالق ، كأن عقولهم مغلولة ، وكأن قلوبهم مقيدة فلا تنطلق للتأمل في تلك الآيات)) (١)

وغيرها والذي يشد العقل والشعور ، وذلك التصوير البديع الذي أشاره مصدر التعجب من أولئك الكفار وشكهم في إعادتهم خلقاً جديداً ، فمن بديع ذلك التصوير . ((التنسيق بين غل العقل وغل العنق : الأول معنوي ، والثاني عبر به لاكتمال الصورة في الذهن عن جزائهم بالنار على الكيفية الرهيبة جزاء تعطيلهم مقومات التفكير والتدبر ، التي بها أكرم الله بني الإنسان لكن هؤلاء الكفار يابون هذا التكريم ويعطلونه)) (٢)

(١) تفسير ظلال القرآن لسيد قطب .

(٢) المصدر السابق ص ٩١ ٩٢ .

عناصر التصوير هنا جاءت منتزعة من الواقع القريب ، فمن لا يعرف الغل

((الذي هو الحديد أو القيد يغل به العنق))^(١)

ومن منا لم ير صورة حسية لمجرم تصفد رجلاه ، وتغل يده إلى عنقه ؟ إن

تلك الصورة لتجري في تنفي العقوبات بين الأدميين في حياتهم الدنيا ، فكيف

بها في عقوبة الآخرة ، وكيف بصدورها ممن لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ؟

وقد زاد هذا التصوير براعة ، تشبيه عوامل الكفر بالأغلال واستعارة هذا

اللفظ لها ، واشتمال الآية الكريمة على الاستفهام الذي ليس على حقيقته ،

في قوله : ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبْ ﴾ فهو للإنكار والتعجب إذ الكفار يتعجبون من

تحقيق إثبات البعث وينكرونه استعمال ((إن)) في قوله ((وإن تعجب))

مع أن في ((إن)) أن تستعمل في الأمور المشكوك فيها كما يقول بذلك

علماء البلاغة ، وفي هذا إشارة إلى ندرة تعجبيه صلى الله عليه وسلم فكأن

حصول التعجب عنده من الأمور المشكوك فيها إذ التعجب إنما يحصل ممن

يجهل الأسباب أما من يعلمها فلا ، والرسول صلى الله عليه وسلم يزود

باستمرار بالمعارف الربانية عن طريق الوحي فقلما يجهل أسباب الأشياء ،

وكذلك استعمال ((إذا)) في قوله تعالى : ﴿ أءَذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ لأن مصير

الناس إلى تراب من الأمور المحققة الوقوع ، وقد ذكر علماء البلاغة أن ((إذا))

(١) التعبيرات القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة ص ٢٦١ لابنتسام مرهون الصفار الطبعة الأولى .

مطبعة الآداب في النجف ١٣٨٧ هـ نقلاً عن الصحاح للجوهري ولسان العرب لابن منظور .

النظم القرآني في سورة الرعد

تستعمل غالباً في الأمور المحققة لا المشكوك فيها)) (١) . والموت لاشك فيه ، واستحالة الأجساد إلى تراب يراه سائر الناس ، فليسوا يشكون فيه ، فقد كبر عليهم أن تستعيد هذه العظام والأجساد صورتها الأولى يوم البعث والنشور ، ويمضي السياق مصوراً شأن هؤلاء الكفار بطلبهم تعجيل العقوبة ، ورأفة الله بهم ، بهدايتهم أولاً إلى الحق ، فإن لم يؤمنوا فإلي العذاب ، يقول سبحانه :

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

والتعبير في الآية هنا يقدم مغفرة الله وعقابه ، في مقابل تعجل هؤلاء الغافلين للعذاب قبل الهداية ليبدو الفارق الضخم بين الخير الذي يريده الله لهم ، والشر الذي يريدونه لأنفسهم ، ومن ورائه يظهر انطماس عمي البصيرة وعمي القلب ، والانتكاس الذي يستحق درك النار)) (٢)

وراع ذلك التقابل العجيب بين السيئة والحسنة ، والظلم والمغفرة ، وما قويت به عبارات الآية الكريمة من التوكيد بأن واسمية الجملة واللازم في قوله

تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

وتأمل دقة التصوير في قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ إن

الذهن ليظل صامتاً يكتنه مصارع الغابرين التي عبرت عنه لفظة خلت والمثلاث

(١) انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنبكة ص ٦٩ ، ٧٨ .

(٢) انظر تفسير الظلال لسيد قطب .

وما حل بهم من سوء ما عملوا أما قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ فيكفي في براعة التعبير اشتغال الآية على القصر الإضائي في إنما أنت منذر إذ به اكتملت الصورة ببيان وظيفة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وانحصارها في التبليغ والإنذار أما مجمل القضايا التي أثارها السياق في الآيات السابقة فتأجها راجعة إلى الله وحده وراع ذلك التهجين بذكر المشركين ووصفهم بالذين كفروا . وما له من روعة في التبكيت والنعي على هؤلاء . ثم في هذا القيد بعد ذكرهم وطلبهم المعجزة بقولهم : (من ربه) إن في ذلك لوصف لهم بالإمعان والتردي في الظلال والكفر .



وفي تصوير المشركين الذين يجأرون بالدعاء إلى من لا ينفعهم ولا يضرهم

إلا بإذن الله ، تعرض الآية الكريمة التالية من قوله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ تعرض نوعاً من التشبيه المسمي بتشبيه التمثيل .

وأول ما يشتمل عليه هذا التشبيه من الحسن والروعة أنه ((تصوير أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعا في الحاجة إلى نيل المنفعة

النظم القرآني في سورة الرعد

والحسرة بما يفوت من درك الطلبة ، وفي ذلك زجر عن الدعاء إلا لله عز وجل
الذي يملك النفع والضر . ولا يضيع عنده مثقال الذر)) (١)

وإنه تشبيه تمثيل لكون وجه الشبه فيه منتزع من متعدد ، ففيه تشبيه
عدم استجابة الشركاء للداعين لهم بعدم استجابة الماء الباسط كفيه إليه
من بعد ، فإن باسط كفيه لا يمسك ماء ، ومن ثم لا يستطيع أن يبلغ به فاه
فهو يحيا في أمال كذاب . ووجه الشبه عدم حصول الفائدة المرجوة في كل
من صورة دعاء الشركاء ، وصورة طلب الماء من بعد ، مع شدة الحاجة
والإلحاح ، وبسط الكفين في كل من صورة المشبه ، والمشبه به.

وقد أعان هذا المثل على التلاحم في جو الآية الكريمة ، وما قبلها ، إذ
نلاحظ في السياق السابق ((معترك الخوف والطمع في النفس الآدمية
وهاتان الصفتان أثارهما جو البرق والرعد والسحاب الثقال والصواعق المرسله
، وتلك أحداث وظواهر طبيعية مخيفة مطمعة ولا حيلة للعباد العاجزين أن
يتصرفوا فيها على ما يريدون ولا مفر لهم إلا أن يلجأوا بالدعاء إلى القوة
القاهرة التي هي من صفات القوي القهار ومن خلال المشهد التصويري نرى
صنفين من الأدعية تقذف بها حناجر الداعين : دعوة الحق ، ودعوة الباطل.

أما دعوة الحق فصاعدة إلى الله يعلمها ويستجيب لمن دعا بها على
مقتضى حكمته وأما دعوة الباطل فضائعة ضالة تمزقها الحيرة ولا تصل إلى

(١) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني وعبد القاهر ص ٧٦ تحقيق

الله لأنها ليست له ولا تجد من دون الله من يسعفها ويتلقفها لأن الذين من
دونه عاجز عن جلب المنفعة ودفع المضرة فضلاً أن يسعفوا غيرهم ممن يستجير
بهم . فما أخيب هؤلاء الداعين وما أضل دعوتهم فمثلهم كمثل الضامىء
الملتهب عطشاً يبسط كفيه إلى الماء من بعد ظناً منه أن هذه الوسيلة كافية
لأن يبلغ الماء فاء وليس بباله .

وكذلك دعاء الكافرين سواء أكانوا منكرين لله أو مشركين به ما
هو إلا دعاء ضائع لا يحقق شيئاً مما يرجون ^(١) وتأمل روعة الأحكام ودقة
التلاحم ، إ بعد إثارة هذا التشبيه تأتي آية أخرى تصور حال عباد الله المؤمنين
وكل من في الأرض مسبح داع مؤمن بالله يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُم بِالْعُدْوَةِ وَالْوَالِئِ ﴿١٢٦﴾ وتلك الآية ستعرض
للحديث عنها عند الكلام على الصورة البيانية في جانب حال المؤمنين وحال
الكافرين مع الله .



ومما أخرج الصورة البيانية مخرج المشاهد المحسوس اشتمالها على تأكيد
الكلام بما يشبه الاستدراك عليه ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا كَبَسِطَ كَفِّهِ إِلَى
الْمَاءِ ﴿١٢٧﴾ فهو مثل يتضمن تأكيد الكلام السابق ولكنه جاء على صورة

(١) انظر سورة الرعد لعبد الرحمن حنيفة ص ١٢٦ .

النظم القرآني في سورة الرعد

الاستثناء، والغرض . التهكم بالذين يدعون من دون الله ، متصورين أنهم سينتفعون من شركائهم .

وكذلك أسلوب الاختصاص والقصر في قوله تعالى : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾

وهذا الاختصاص مستفاد من ما حقه التأخير ، وفي قوله : ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا

فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهو من قبيل الموصوف على الصفة ، أي دعاء الكافرين ليس من

الصفات إلا صفة الخسران ، والضياع ، وعدم حصول الفائدة . بالإضافة إلى

هذا الإطناب الجميل الذي ختمت به الآية ، ويصح أن يستقل بنفسه ،

ويستخدم فيما يشبهه مت الأحوال ولذلك فهو تذييل جار مجري المثل كما

يقول البلاغيون .



حقاً إنها لصورة تعبر عن مشهد ((ناطق متحرك لاهت جاهد . فدعوة

واحدة هي الحق ، وهي التي يستجاب لها . إنها دعوة الله ، والتوجه إليه ،

والاعتماد عليه ، وطلب عونه ورحمته وهداة وما عداها ضائع باطل ، وهذا

المعنى بصورة ذلك التشبيه التمثيلي فكأنما أفاضه وتراكيبه تنطق قائلة :

ألا تري حال الداعين لغير الله من الشركاء ؟ انظر هذا واحد منهم ملهوف

طمأن يمد زراعية ، ويبسط كفيه وفمه مفتوح يلهث بالدعاء يطلب الماء ليبلغ

فاه ، فلا يبلغه ، وما هو ببالغة ، بعد الجهد واللهفة والعناء ، وكذلك حال الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء من دونه ^(١) ((

- ٤ -

ولحال الموحد والمشرک والمؤمن والكافر ، وتصويرهما بالاعمى والبصير ، ووصف النعيم والعذاب ، وتشبيهه الدين والإيمان بالحبل المبرم ومحاولة الكفار نقض هذا العهد ومحاولتهم قطع ما أمر الله به أن يوصل وإفسادهم في الأرض . لكل تلك المقاصد والأغراض صور بيانية اتسمت بأسلوب الاقتدار الذي هو التنويع في العبارة من استعارة وتشبيه إلى كناية وتعريض ، وإلى حذف وتقديم وتأخير إلى إيجاز وإطناب إلى غير ذلك من أساليب البيان الرائع الذي تحار فيه كنهه العقول والأفكار ويجمع تلك الأغراض طائفة من آيات السورة

الكريمة من قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ ﴿١٠﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١١﴾ وقول الله

تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَتُؤَلِّمُوا الْآيَاتِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقِضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

(١) انظر الظلال لسيد قطب ص ٨١ .

النظم القرآني في سورة الرعد

وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٦٦﴾ جَنَّتْ
عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٦٧﴾
سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٦٨﴾

إلى قوله سبحانه: ﴿٦٨﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

أَكْثَلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٦٩﴾ ، وقوله :

﴿٧٠﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَمَّى الْمَهَادُ ﴿٧١﴾ ،

وقوله تعالى: ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۗ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٧٣﴾

إلى قوله تعالى: ﴿٧٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا

مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٧٥﴾ وقوله: ﴿٧٦﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَعَذَابٌ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٧٧﴾ .

تلك ثلاث عشرة آية تحمل كل واحدة صورة رائعة أو أكثر من صورة

فلنأخذ في التحليل تلك الصور مستوضحين أسرارها الجمالية ، وإبداعها في

التصوير ، انظر لصورة الإنسان وكل ما على الأرض وهم ساجدون لله عن طوعاً

وان كرهاً وتأمل قوة الأحكام في النظم والتلاحم بين أجزاء الآيات في تلك

الصور ، إنما أثارنا الآية من قوله تعالى: ﴿٧٦﴾ لَهُمْ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا

يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفِيَّةً إِلَى الْمَاءِ ﴿... الآية﴾)) لما أثارت تشبيهاً أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وضربت مثلاً لواقع الخيبة التي يتردى فيها الذين يدعون من دونه الله أولياً ، وهو مثل مصرح به إمعاناً في النكاية بالمشركين ، والنعي عليهم ما هم فيه من حال ، وما هم عليه من ضلال ، بل ((هو مثل أوردته الآية مورد الاستثناء الذي يوهم إثبات شيء من الاستجابة ثم ينتهي بالتمثيل إلى تأكيد معنى النفي الذي سبق الاستثناء ، وهذا لون بديع من التهكم ^(١))) نعم لما أجملت الآية لك كله جاء بعده في السياق ما يثبت أن النافع الضار هو الله وحده فهو المستحق للعبادة لا غيره ، ولا تقول الآية :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ .

وما أروعه من إحكام بين أجزاء الآيات وبين كل آية وصلتها بما قبلها وما بعدها ، تأمل بديع هذا النظم ، وإحكامه في التسلسل إذ لم تنزل الآيات مستمرة في معانيها عن الحق ووجوب إتباعه والباطل ووجوب اجتنابه وأنه لا مستحق للعبادة من كل من في السماوات والأرض سوي الله وحده فإذا ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ .

ما أروعه من مشهد يقف فيه كل ما على الأرض من مخلوقات آدمية وغير آدمية من حيوان أو جماد ، وكله مشهد يتجه بمن فيه إلى وجه الله وحده في استكانة وخوف وتذلل وانقياد إن طوعاً وإن كرهاً حتى ظلال تلك

(١) سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنبكة ص ١٢٢ .

النظم القرآني في سورة الرعد

المخلوقات ساجدة لله ، وقد أكد السجود والانقياد ، ذلك القصر والتخصيص

في قوله : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ فقد قدم للمجار والمجرور وهما متعلقان بالفعل

يسجد فأفاد تقدم ما حقه التأخير قصر السجود على الله سبحانه وتعالى .

فالتصوير في الآية تعبير ناقص بالحركة الدائبة إذ كل من في الكون

يعون لله والخلق ((كلهم محكومون بإرادته خاضعون لسنته مسيرون وفق

ناموسه :

المؤمن منهم يخضع طاعة وإيماناً ، وغير المؤمن ينقاد أحداً وإرغاماً فما

يملك أحداً أن يخرج على إرادة الله ، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذي سنه

للحياة .

والمشهد مشهد عبادة ودعاء ، ولذا يمضي السياق متحدثاً عن الخضوع

لمشيئة الله بالسجود فهو أقصى رمز العبودية ، ويظم إلى شخوص من في

السموات والأرض ظللهم كذلك : ظللهم بالغدو في الصباح وبالآصال عند

انكسار الأشعة ، وامتداد الظلال يضم هذه في السجود . والخضوع . والامتثال

((...))⁽¹⁾ وهي في ذاتها حقيقة . فالظلال تبع للشخوص . ثم تلتقي هذه

الحقيقة ظلها على المشهد فإذا هو عجيب ، وإذا السجود مزدوج . شخوص

وظلال . وإذا الكون كله بما فيه خاضع لله . شخوص وظلال فحري أن

يستجيب الله للساجدين .

(1) انظر ظلال القرآن لسيد قطب ص ٨٣ طبعة بيروت .

وهذه الصورة أخرى لكنها هنا في جانب المشركين ، ترسم ضلالها

الآية الكريمة على حد قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ . إنها صورة يزخر مشهدها بحركة حية مائلة للعباد

كأنما يتملاها الحس ويدركها الشعور ، وتراها العين من قرب ومن بعد . فالهيكل بارز للناظرين مبني بأمشاج من أفاض سهلة متقابلة بإيمان وكفر ، وعمي ، وبصيرة ، ونور وظلمة ، ومخلوقات غير قادرة على النفع والضرر لأنفسها أو غيرها .

ومما يسترعي النظر ذلك التشبيه القائم على أركانه الثلاثة اتخاذ الأولياء خلقاً يزعمون لهم النفع والضرر والإيجاد ، وخلقاً لله اعتقد المشركون أن أوليائهم يوجدون مثله ، وكاف وسط بين المشبه ، والمشبه به وقيل ذلك كله جمال

التعبير ((يجعل)) التي بمعنى اعتقد ((أي اعتقدوا أن لله شركاء خلقوا كخلقه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(١)))



(١) انظر البرهان للزركشي الجزء ٤ ص ١١٣ تحقيق أبي الفضل إبراهيم الطبعة الثانية مطبعة الحلبي

النظم القرآني في سورة الرعد

((ثم لما دل النظم البديع على أن الفكرة فيما فعلوا من اتخاذ الأصنام أولياء من دون الله سبحانه في الضلال المحض ، والخطأ البحث بحيث لا يختفي بطلانه على أحد ، أنهم في ذلك كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيء أصلاً ، وليس لهم في ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم وأخطائهم فضلاً عن الحجة أكد ذلك فقال : ((**أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ** ... الآية (١))) .

واكتمال المشهد العجيب في هذه الصورة العجيبة محاط بالأسئلة المنهمكة الموجهة إلى المشركين ، ((فما يجدر بالمشرك في مثل هذا الجو إلا التهكم ، وما يستحق إلا السخرية والاستهزاء . نعم قل لهم يا محمد : **قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُهُ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** .

سألهم والقضية واضحة ، فلا رب سوي الله ، والفرق بين الحق والباطل واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، وبين الظلمات والنور . وإنما السؤال للتهكم المر اللاذع المعقب عليه بقوله تعالى : **قُلِ اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**)) . وهنا تحاط قضية الشركاء في هذه الصورة بسجود من في

السموات والأرض ، وظلال طوعاً وكرهاً كلهم في خضوع وانقياد ، وفي ختام

(١) تفسير أبي السعود ص ٢١١ ، ٢١٢ تحقيق عبد القادر أحمد عطا .

المشهد ذلك القهر الذي يخضع له كل شيء في الأرض والسماء وقد
سبقته في السياق يروق ورجود . وصواعق وتسبيح وخوف وطمع .. فأى قلب
يصمد لهذا الهول ، إلا أن يكون أعمى مطموساً يعيش في الظلمات حتى يأخذه
الهلاك^(١)))

واستوف طريقة الأداء في تلك الصورة البيانية فستجد الألفاظ انتزعت
وتخيرت من الواقع القريب وجئ بها لرسم صورة حية عن الجهل والعلم والهدي
والظلال وكل لفظة في الصورة تشع بالمعنى المراد وتبث في النفوس والمشاعر ما
يحرك الضمائر - ويجعلها متيقظة تتأمل شخوص تلك عن إحساس فياض
وإدراك لمعنى الجهل والعلم والهدي والظلال والكفر والإيمان .

((وتدرك الفرق بين الحق والباطل إدراك الفرق بين الأعمى والبصير
وفي ذكر الأعمى إشارة إلى الكفر وأهله ، وفي ذكر البصير إشارة إلى العلم
والإيمان وأهله فالعمى وحده هو الذي يحجب الرؤية كما يحجب عمى البصر
رؤية الحق المبين ويصد عن التأمل فيه أنه يدرك أثره ويحس به كل من في
السموات والأرض)) .

وراع تلك التقابلات الفنية العجيبة بين طوعاً وكرهاً والغدو والآصال
والأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، ونفعاً وضراً والسموات والأرض وافطن
إلى أسلوب الاقتدار الذي تميز به أسلوب تلك الصور فهناك :

(١) انظر الظلال لسيد قطب ص ٨٢ ، ٨٣ .

النظم القرآني في سورة الرعد

القصر والاختصاص في قوله : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقد

استفيد هذا القصر من تقديم المفعول على العامل ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ .

وهناك خروج الاستفهام عن حقيقته إلى معنى الإنكار في قوله : ﴿أَفَاتُخَذْتُمْ

مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ وهو من باب الاستعارة التبعية في الحروف القائمة على أساس

تشبيه الشيء المعلوم الواقع الذي ينكره العقل السليم على فاعله المجهول الذي

يستفهم عنه عادة أي هو إنكاره جدير بأن لا يقع في تصوير الإنسان أنه موجود

أو يمكن وجوده ، ولذلك يصح أن يستفهم عن وجوده والغرض الإنكار على

فاعليه أو المتصف به .

وهناك في قوله تعال : ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ وهذا التشبيه الغرض منه مجرد

المماثلة .

وافطن إلى براعة الإيجاز أولا بحذف جزء الجملة في قوله تعال : ﴿قُلِ

اللَّهُ أَيُّهُمُ أَعْبَدُ﴾ أي هو الله أو الله رب السماوات والأرض .

وثانياً بطي كلام يمكن العلم به من ترتيب الأمور بعضها على بعض .

ومنه ما يجيب به المشركون عند سؤالهم (من خلق السماوات والأرض ؟ وهم

سيقولون هو الله . أو عبارة نحوها . لأنهم ممن يقولون بذلك .

وتأمل بلاغة القصر في قوله تعالى: ﴿الْوَحْدُ الْقَهَرُ﴾ أخذاً من تعريف طرقي الإسناد وهو من باب قصر الصفة على الموصوف والقصر هنا إضافي لأن لله سبحانه صفات أخرى غير الوجدانية والقهر.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لأنه لما أضيف لفظة خالق إلى كل شيء كان في قوة قولنا: ﴿اللَّهُ خَلِقُ﴾ بل أقوى منه لأن القصر استفيد من مادة المضاف إليه الدالة على العموم نضاً والقصر هنا حقيقي ومن باب قصر الصفة على الموصوف أي ما خالق كل شيء إلا الله.

وافطن إلى أسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ثم قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ والالتفات فن من فنون البلاغة زينه هنا طول الفصل بين الجملتين وكون الذين جعلوا لله شركاء في الربوبية قلة نادرة في العرب ولذا جاء الحديث عنهم بالغيبة بخلاف القسم الأول فهم معظم العرب ولذلك جاء الحديث عنهم بالخطاب^(١).

ويمضي السياق مصوراً حال الموحدين المؤمنين بالله وصفاتهم الإيمانية التي هي الصفات الحقيقية للمؤمن الحق.

(١) انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنبكة ص ١٤٢ الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م

النظم القرآني في سورة الرعد

ونلاحظ تلك الصفات وأهلها في الآيات الكريمات من قوله : ﴿ أَفَمَن

يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَى ﴾ ... إلى قوله تعالى : ﴿ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ .

إن مظاهر التلاحم في نظم هذه الآيات ليأتي متناسقاً تمام مع موضوعات السورة الكريمة . ((فبعد المشاهد التصويرية الهائلة في آفاق الكون وفي أعماق الغيب وفي أغوار النفس التي استعرضها شطر السورة الأول يأخذ شطر السورة الثاني في تصوير لمسات وجدانية وعقلية تصويراً رقيقاً دقيقاً مبتدأً بقضية الوحي والرسالة : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَى ﴾ فهذا لمسة في الطبيعة الإيمان وطبيعة الكفر . الأولى علم والثاني عمى . ويمضي خط السير في تصوير طبيعة المؤمنين والصفات المميزة لهم والتي أولها علمهم الإيمانى بوحدانية الله وما نزل من عنده على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإشعاع هذا العلم في مقابل ظلال الجهل والعمى الذي لم يهد عقل صاحبه إلى نور الإيمان ، وفي هذا أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق ، وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه ، ولا زيادة ، ولا تحريف .

فالعمى وحده هو الذي ينشي الجمل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تختفي إلا عمى على عمى ، وإذا فالناس إزاء هذه الحقيقة الكبرى صنفان : صنف يعلم فهو مبصر مؤمن ، وصنف التوي به الطريق فهو أعمى قد ضل سبيل الحق ، ولا يستويان مثلاً .

والعمى عمى البصرة ، وانطماس المدارك ، واستغلاق القلوب ، وانطفاء
قبس المعرفة في الأرواح انفصالها عن مصدر الإشعاع الذي تستنير به القلوب
﴿فَاتَّهَا لَانَعَمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ نَعَمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ .

ولكن إنما يتذكر أولو الألباب الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر
بالحق فتتذكر ، وتنبه إلى دلائله فتتفكر ، وهذه صفات أولي الألباب الذين
يوفرون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، وهنا تنتقل الصورة مجسدة بعض صفات
المؤمنين التي من أزكاها وفاؤهم . بعهد الله هذا العهد الذي أجملته الآية
الكريمة فإنه عهد الله المطلق الذي يشمل كل عهد ، وميثاق الله المطلق الذي
يشمل كل ميثاق .



والعهد الأكبر الذي تقوم عليه العهود كلها هو عهد الله مع بني آدم
كلهم ، إذا استخرجهم من ظهر أبيهم كالذر ، ثم أشهدهم على أنفسهم :
((ألست بربكم)) قالوا بلي ، إنه عهد الإيمان ، والميثاق الأكبر الذي تتجمع
حواله الموائيق كلها ، هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان .

والتصوير البديع هنا انتظم لفظتين اثنتين هما العهد والميثاق ،
وصدرهما بلفظتين اثنتين هما ((يوفون)) ولا ينقضون هكذا في إجمال تبقي
النفس إزاء هذا التصوير معلقة تشرئب إلى الوقوف على نوعيه هذا العهد ،
وهذا الميثاق وهذا خصائص الأسلوب القرآني إذ أحياناً يجمل ثم يفصل ،

النظم القرآني في سورة الرعد

وأحياناً جمل دون تفصيل لتبقي نفس القارئ والسامع معلقة بها الأسلوب تبحث عما وراءه من أحداث .

ويرتب الخط التصويري على العهد الإلهي والميثاق الرباني كل العهود والمواثيق مع البشر سواء مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو مع الناس ذو قرابة أو أجانب أفراداً أم جماعات فالذي يرعى العهد الأول حري بأن يرعى سائر العهود لأن رعايتها فريضة ، والذي ينهض بتكاليف الميثاق الأول يؤدي كل ما هو مطلوب منه للناس لأن هذا داخل في تكاليف الميثاق .

فانظر لدقة هذا التصوير كيف يبرز القاعدة الضخمة الأولى التي يقوم عليها بنيان الحياة كله أنها عهد الله سبحانه وميثاقه . ثم يقرر هذه القاعدة في ثلاث كلمات من قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ نعم يصلون ويخشون ويخافون .

هكذا في إجمال : لأن التفصيل يطول وهو غير مقصود إنما المقصود تصوير الاستقامة المطلقة التي لا تلتوي والطاعة المطلقة التي لا تفلت والصلة المطلقة التي لا تنقطع ... ويلمح عجز الآية إلى الشعور المصاحب في نفوسهم لهذه الطاعة الكاملة .

ويتبع تلك الصفات المطلقة صفات أخر للمؤمنين يجسدها التصوير

القرآني في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا

رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢١﴾
صفات أربع
ينتظمها التصوير في :

- ١- الصبر .
- ٢- إقامة الصلاة .
- ٣- الإنفاق في طريق مشروع .
- ٤- درء السيئة بالحسنة .

ومثل تلك الصفات لا تصدق إلا على عباد الله المؤمنين الصالحين الذين شعارهم الإيمان ، ودارهم التقوى ودينهم الطاعة الدائمة .

ما أروعه من تصوير ، فلقد عبرت الآيات السابقات عن بعض صفات المؤمنين : من خوف ، وجشعة ، ووفاء بالعهد والميثاق وهذه الصفات يستلزمها التحلي بصفة الصبر ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق المشروع ، ودرء السيئة بالحسنة ، وقد جاءت مرتبة في العقد التصويري من الآية ، وهذا الصبر جاء مجملاً فهو صبر على طاعة الله وصبر عن محارم الله ، وصبر على أقدار الله ثم يلي ذلك صفة إقام الصلاة ، ويبرزها التصوير لكونها مطهر التوجه الخالص

والعبودية الكاملة ، ثم يتبعها السياق بذكر صفة الإنفاق مما رزق المؤمنون سراً وعلانية ، وهنا تبرز الصلة بين عباد الله التي تجمعهم في الله ، وهم على قيد الحياة تلك السمة العالية التي نفس معطيها من البخل ،

النظم القرآني في سورة الرعد

وتركي نفس أخذها من الغل ، وهذا الإنفاق المشروع أثارته الآية في السر حيث تصان الكرامة ، وتطلب المروءة وتتخرج النفس من الإعلان به .

وفي العلن حيث تطلب الأسوة ، وتنفذ الشريعة ، والكل موضعه في الحياة.. وأخيراً لاحظ تلك الصفة التي تنحسر دونها الأطماع فمن ذا الذي يصل إلى درء السيئة بالحسنة إلا مؤمن يقابل بالحسنة في معاملاته مع الناس ابتغاء وجه الله .

أما في دين الله فلا ، لأن المستعلي الغاشم لا يجدي معه هذا الخلق وإنما أولى به الدفع الصارم والأخذ الحاسم .

هؤلاء المؤمنون الذين هذه صفاتهم ، ما مكانتهم عند الله ؟ وما

جزاؤهم ؟ هنا ينتقل السياق مصوراً هذا الجزء في قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عِزِّي الدَّارِ ﴿١٧﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٨﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١٩﴾ .

انظر إلى هذا المشهد وتأمل التعابير التي رسمته فكأنما تعيشه الآن ،

وكأنما تراه حاضراً وتسمع الملائكة وتراهم أطوافاً محيين ومرحبين سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

إنه مشهد حي يأتلف فيه جميع المؤمنين ، ويلتئم شملهم بالصالحين من

آبائهم ، وأزواجهم وذرياتهم الذين فرق الموت بينهم ، إنه مهرجان حافل باللقاء

والتسليم ، والحركة الدائبة والإكرام " (١) ثم هذه الجنة التي يدخلونها ما صفتها وما الخير الذي وعدوا به . ؟

سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَٰئِ

الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾ .

وقد أمان على دقة التصوير ووضوحه تنوع الأسلوب ، فهناك الاستفهام

الإنكاري في قوله : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ والمتأمل

يدرك سر تصدير الآيات بهذا الاستفهام إذ أن الذي يستفهم عنه هنا ، يؤمن به العقلاء ، وينكره غيرهم تكبراً وعناداً وإعراضاً عن الحق وهذا من عمي البصيرة والبصر ، فكان أعينهم في غطاء من ذكر الله تبعاً لقلوبهم المغلفة بحجاب الكفر والضلال .

انظر إلى جمال الاستعارة في قوله : ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ تلك التي

أخرجت المعنوي في الصورة المحسوس فقربته إلى الذهن والقوة التي يفيدها

القصر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَٰئِ الْأَلْبَابِ ﴾ وقد أفاد هذا القصر

التعريض بدم الكفار فهم لا يتذكرون ، ولا تنفعهم الذكري ((وذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين))

(١) انظر تفسير سورة الرعد في ظلال القرآن لسيد قطب

النظم القرآني في سورة الرعد

((وقد زاد هذا التعريض حسناً استعماله بطريقة القصر بإنما ^(١) وقد خص الله تعالى الألباب وحدها بالذكر دون سائر الجوارح ، لأنها محل التدبير والهداية ، ولأن العقل هو النعمة الكبرى التي خص الله بها الإنسان دون سائر المخلوقات

وتأمل بلاغة الإيجاز في قوله تعالى : ﴿يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾

((فتحت ذلك صلة الأرحام والقربات ، وتحتة الصلة القائمة بين الناس بسبب الإيمان ، وذلك بالإحسان إليهم قدر الطاقة ، ونصرتهم ، والنصيحة لهم فتلك أوثق عرى المحبة ^(٢))) وكذلك في قوله تعالى : ((سلام عليكم بما صبرتم)) فقد أكبر هذا الإيجاز من معنى التسليم الذي هو حفاوة خالصة

هنا يرتقي الخط التصويري إلى أبداع الصفات التي تمس الأعماق ، وتثير

العواطف فيضرب مثلاً أعلا لصفة هذه الجنة على حد قوله : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ

الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ فإن مما يمتع

النفوس والقلوب ذلك المشهد الخلوب الرائع مشهد الأنهار الجارية ذات الإمتاع

والاسترواح يصورها السياق فيجعل منها مكاناً يبدو للعين ، وكأنه جار وإنما

يجري فيه وأخيراً تذييل تلك الصورة بقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا

وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ إنه تقابل في الجزاء وفق تقابل في العمل الذي

(١) الإتيان للسيوطي الجزء الثاني ص ٤٩ .

(٢) انظر تفسير سورة الرعد في الكشاف للزمخشري .

يرسم معناه هذا التصوير البديع القائم على التفصيل والبيان . فقد أعطي الجنة في التعبير بعض الصفات المشوقة إليها والمرغبة فيها فقال : ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا ﴾ .

وربما كان إيراد الأكل والظل ، والأنهار الجارية ، وغير ذلك من النعيم المادي لمخاطبة البشر بما يفقهون . وبما يتصورونه سبباً من أسباب النعيم في الحياة الدنيا ، والا فإن نعيم الآخرة لا يحد بتلك الصفات والنعيم ففي الجنة ((ملا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)) كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وهنالک السعادة الكبرى برضوان الله ورحمته كما قال : ((ورضوان من الله أكبر))

وقبل أنت تغادر هذه الصور عن حال المؤمنين إلى من في الضفة الأخرى المقابلة لهم من المشركين ، ويجب أن نلقي على الإطار اكتفت تلك الصور نظرة فاحصة ، لنرى دقة الأحكام البديع ، الذي به ثم الوضوح ، وتعانقت الجزئيات مع الكلبيات في نسق يمتع النفوس ويستقر في الأذهان .



إن من أبرز خصائص الإبداع في التصوير القرآني لهذه الآيات . قوة الربط مع ما بدأت به السورة الكريمة إذ قال الله تعالى - في مطلعها : ((تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)) ثم ابتداء وصف المؤمنين بشأن المنزل في سياق النص من قوله

النظم القرآني في سورة الرعد

بيتدرها الملائكة إكراماً لأولئك المؤمنين ، ونكرة للتنوع والشمول ، ((
وفي الآية تقييد يقطع الأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب
ومحل هذا التقييد قوله تعالى: ((وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ))^(١)
وفي قوله سبحانه : ((أكلها دائم وظلها)) إيجاز بحذف الخبر إذ التقدير
وظلها دائم .

وانظر لجمال تلك التقابلات الفنية العجيبة في سياق الآيات بين السر ،
والعلانية ، والسيئة والحسنة ، وتأمل ((تقديم المجرور في قوله : ((ويدرعون
بالحسنة)) على المنصوب في قوله : ((السيئة)) ففي ذلك إظهار لكمال
العناية بأمر الحسنة وشرفها))^(٢)

وعلى الضفة الأخرى ، المشركون بالله ، وحالهم ، ووصف عذابهم في
مقابل حال المؤمنين الموحدين ، ووصف نعيمهم .

وحين يعرض السياق لتصوير حال هؤلاء المشركين ، نري الخط
التصويري يجمع ثم يفصل ، متخذاً أساساً يفرع منه عاقبة المشركين كما
أخذ أساساً يفرع منه جزاء المؤمنين ، وكلا الحالين في إجمال وتفصيل ،
بأسلوب ذي تقابل فني في المبني والمعنى ، فبعد أن فصل حال المؤمنين وبينها في
تسع صفات هي :

١ - وفاؤهم بالعهد .

(١) ، (٢) انظر تفسير أبي السعود ص ٢١٨ وما بعدها

- ٢ . عدم نقضهم الميثاق .
- ٣ . وصلهم ما أمر الله به أن يوصل .
- ٤ . خشيتهم ربهم .
- ٥ . خوفهم سوء الحساب .
- ٦ . صبرهم ابتغاء وجه الله .
- ٧ . إقامتهم الصلاة .
- ٨ . إنفاقهم سراً وعلانية .
- ٩ . درؤهم السيئة بالحسنة .

بعد هذا التفصيل والبيان ، أخذ السياق في حصر صفات أولئك البعداء

الأشقياء الكافرين بالله . فهم :

- ١ . ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .
- ٢ . يقطعون ما أمر الله به أن يوصل .
- ٣ . يفسدون في الأرض .
- ٤ . لا تنفعهم الذكري .

وعند الابانه عن عاقبة الفريقين ، نري مجمل ما يلاقيه المؤمن من

جزاء حسن هم أهل ، وذلك من خلال قوله تعالى : ﴿لَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ

الْحَسَنَى

ونري تفصيل عاقبة المشركين في قوله سبحانه :

النظم القرآني في سورة الرعد

١. ﴿لَوْ أَن لَّهُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدَرُوا بِهِ﴾

٢. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾

٣. ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِمُعْجِزِينَ وَمَا أُولَئِكَ بِبَارِعِينَ وَمَا أُولَئِكَ بِبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾



والأمر ما جاء الإجمال في جزاء المؤمنين ، وجاء التفصيل في عاقبة المشركين ، ففي ذلك كناية بالمشركين إذ عدت الآيات عاقبتهم لتعدد سبلهم الضائعة يلجأون إليها - والجزاء من جنس العمل .

أما المؤمنون فطريقتهم واحدة هي التوجه إلى الله وحده ، والتصديق برسالة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، فجاء ذكر جزائهم واحداً هو الحسني لكن هذا الجزاء في حقيقته كثير عظيم ، وفي الذروة منه رضي الله عنهم .

وفي هذا الإجمال والتفصيل في جزاء الفريقين استكمال لأسلوب تقابل الأضداد ، وحبك المعاني ، ولذلك اتبعت هذه الآية ببيان السبب الداعي إلى كون العاقبة ((الحسني)) في الآخرة ، وأنها جزاء المؤمنين . وأن السيئة في الآخرة هي جزاء الكافرين .

وقد استدعي هذا التفريق والتفصيل إجمال الآية الكريمة حال الفريقين

في قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذُرُ أُولَئِئِذَا

الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾ .

فانظر إلى شدة الإحكام، والتلاحم في التصوير، فأية تجمل وأخرى تفصل وكل ذلك في تناسق عجيب، ولا شك أن الإيجاز بلاغة والإطناب بلاغة أيضاً، والتنوع بينهما في الأساليب يزيد الكلام حسناً وبهاءً، فليس الإيجاز قصوراً، وليس الإطناب تطويلاً لغير فائدة، بل الفائدة محققة فيهما على حسب اقتضاء المقام .



هذه العاقبة السيئة منها ما يجسده التصوير حتى يبدو وكأن الكافر

يراه رأي العين، وإنما هو موعود به في الآخرة، فاسمع لوقع المطارق : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ فِي سَاءِ الْمَقَارِ ﴾ .

إن عذابهم في الآخرة أشق : ﴿ وَمَالَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ .

ومنها ما يصوره السياق معجلاً به أو واعداً بحلوله في الحياة الدنيا نعم

يقول الحق جل وعلا : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ﴾ . فلندعهم إذا لأمر الله، وإذا كان اله قدر أن لا يهلكهم هلاك استئصال في حين واحد كبعض الأقسام قبلهم، فإذا قارعه من عنده بعد قارعة

النظم القرآني في سورة الرعد

تنزيل بهم فتصيبهم بالضر والكرب ، وتهلك من كتب عليه منهم الهلاك ، أو تحل قريباً من دارهم ، فتروعهم ، وتدعهم في قلق وانتظار لمثلها . وفي ذلك ترهيب لهم لعلمهم يقلعون عن غيهم وعن وتأمل هذا الأسلوب من قوله الله سبحانه : ﴿ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ، فهو أول وعيد صريح يلعنه الله في هذه السورة الكريمة بمعجل العذاب في الحياة الدنيا للكافرين بعد كل ما سبق فيها من التلويح به في معارض القول)) (١) .

وقد اعتمد التصوير البياني في هذه السورة على أسلوب ((الاختصاص))

كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلرَّبِّمُ الْحَسَنِيِّ ﴾ ، أي هم مختصون فلا تكون لغيرهم ، وقد استفيد هذا الاختصاص من تقديم ما حقه التأخير وهو الخبر على المبتدأ ، إذ وجه الإعراب للذين جارو مجرور خبر مقدم ، واستجابوا لربهم صلة الموصول ، والحسني مبتدأ مؤخر))

ولوضع الاسم الموصول في قوله : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا ﴾ موضع المؤمنين ،

وفي قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا ﴾)) موضع الكافرين ، إشعار بأن مضمون الصلة هو السبب فيما ترتب لكل من الفريقين من جزاء .



(١) سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنيكة ص ٢٣٣ .

وتأمل حسن هذه الاستعارة في قوله تعالى : ﴿ وَيَسَّ الْمَهَادُ ﴾ إذ أطلق لفظ المهاد وهو المكان الممهّد الموطأ ، وأريد به مكان تعذبهم في جهنم غير الممهّد ولا الموطأ ، والغرض من هذه الاستعارة التهكم والاستهزاء ، فليس ما وعدوا به خيراً مما هم فيه من حال وسوء مآل ((^(٢) .



ولو أردنا تقصي بدائع التصوير في كل آية سبقت لوقفنا أمام جلال القرآن وروعته مبهورين ، فما ذكرناه قليل من كثير من روائع الفن البلاغي الذي تزخر به كل آية بل كل جملة من تراكيب القرآن الكريم .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٠ ، ١٨١ .

الفصل الرابع

خصائص النظم في سورة الرعد وغيرها من السور

الفصل الرابع

خصائص النظم في سورة الرعد

وغيرها من السور

- ١ -

درسنا في الفصلين السابقين على وجه التفصيل محاسن النظم في سورة الرعد ، وقد عالجتنا فيهما عناصر النظم التي نستطيع إجمالها فيما يلي :

فقد درسنا الألفاظ المفردة المختارة ، والتراكيب المحكمة ، وبناء الفواصل كما درسنا الإغراض والمقاصد ، والمعاني والصور في هذه السورة الكريمة وكذلك وجوه التلاؤم والمطابقة بين المعاني وما تقتضيه من الألفاظ والعبارات ، وبدلنا جهدنا في الإبانة عن مواضع الجمال وأسرارها ، وتأثيره في الباب السامعين والقارئین .

وقد بان من هذه الدراسة . ما يمتاز به النظم القرآني الذي يعد أروع مثال وأبرع نمط تمثلت فيه أرقى خصائص البيان العربي الذي جاء الكتاب الكريم في أروع صورة منه . مصداقاً لقول الله عز وجل ((بلسان عربي مبين))



وإذا كنا قد خصصنا سورة الرعد بهذه الدراسة المفصلة التي بدلنا فيها بتوفيق الله ما وسعنا من الجهد . فإن في كتاب الله تعالى من عجائب الأسرار ما لا يستطيع بشر إدراك كنهها واستقصاءها ... وإذا كنا قد فعلنا ذلك

وآثرنا سورة الرعد بهذه الدراسة المتأنية ، فلقد كان ذلك مثالا لروائع نظم القرآن في كافة آياته وسوره .

ومن رأينا أن الكتاب الكريم متساو في هذه الروعة ، فكله أمثلة للحسن ومعرض للجمال ، ورعاية للتصوير التام للبلاغة العربية ، وهي مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال ، ولا نري ما يراه بعض العلماء الذين يقولون : إن هناك تفاوتاً في النظم القرآني ، وأن بعضه يفضل بعضاً في الفصاحة . أي أن بعضه أفصح من بعض .

فقد ذهب إلى القول بمثل هذا جماعة من العلماء . منهم ((الخطابي)) في رسالته (بيان إعجاز القرآن) الذي يري أن مراتب الكلام ودرجاته في البلاغة ثلاث : الأولى على طبقات الكلام ، والثانية أوسطه وأقصده والثالثة أدناه وأقربه وقد حازت بلاغة القرآن من كل قسم حصة ، وأخذت من كل نوع شعبة ... فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين وصفتي الفخامة والعدوية ((^١)

وكلام الخطابي هنا يدعو إلى النظر والتثبت ، إذ يوهم بالتفاضل على حد قوله ((فأخذت بلاغة القرآن من كل قسم حصة ، ومن كل نوع شعبة)) ويفهم من كلامه هذا ، أن بعضاً من القرآن الكريم في الدرجة العليا من البلاغة وبعضاً منه في الدرجة الوسطي ، وأن منه ما هو دون هاتين الدرجتين .

(١) انظر بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٣ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام مطبعة دار المعارف .

النظم القرآني في سورة الرعد

والذي نراه : أن بلاغة القرآن في الدرجة العليا ، ولا امتزاج في آياته وكافة سورته بشيء من هذه الأوصاف التي قررها دون شيء ، ولو استقر رأي الخطاب على أن القرآن إنما هو في الدرجة العليا من البلاغة لما حصل فيما قاله ما يوهم بالتفاوت ، ألم يقل بما ذهب إليه الرماني في رسالته ((النكت)) بأن درجات البلاغة ثلاث : منها ما هو في أعلى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . فما كان منها في أعلى طبقة فهو معجز ، وهو القرآن !



وممن قال بالتفاصيل في بلاغة القرآن وفصاحته ((ابن سنان الخفاجي)) إذ يقول : ((إن زيادة بعض القرآن على بعض في الفصاحة أمر ظاهر لا يخفي

على من علق بطرف هذه الصناعة ، وشدا شيئاً يسيراً . وما زال الناس يفردون مواضع من القرآن يعجبون منها في البلاغة ، وحسن التأليف كقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ... ﴾ ((الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ ﴾ الآية . ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ ﴾ وقوله عز وجل :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا فُوتَ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾
يَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿

وأمثال هذا ونظائره كثيرة . فلو كانوا يذهبون إلى تساويه في الفصاحة

لم يكن لإفرادهم هذه المواضع المعنية المخصوصة دون غيرها المعنى ((^(١)

عجيب أمر الخفاجي في هذا الاستدلال ! إذ كيف يسلم أحد بتفاوت

القرآن الكريم في الفصاحة لمجرد أن السابقين استدثروا على ذلك بهذه الآيات

ونظائرها وخصوصاً دون غيرها بالمزية ؟ هل كان في وسع الخفاجي الإحاطة

بكل ما أثر عن السابقين من شواهد في دراساتهم القرآنية حتى يسوق هذا

شاهداً على ما ذهب إليه .

إن الاستدلال على فصاحة القرآن كله ، وتساويه فيها قار في ثنايا

مؤلفاتهم ، مستشعدين بهذه الآيات وغيرها من أي الذكر الحكيم ، ثم إن ما

ذهب إليه في هذا الاستدلال صريح باختلاف الآية القرآنية بل الآيات مبني

ومعنى وحكماً . فكيف ذلك والله جل ثناؤه يقول : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ

كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ؟

وإذ يفرد الدارسون آيات معدودات من القرآن الكريم مأخوذين ببلاغتها ،

ومسحورين ببديع تأليفها ، فليس معنى هذا الإعجاب أن غير هذه الآيات لم

(١) راجع سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٢١٥ ، ٢١٦ شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي

مطبعة صبيح ١٣٨٩ هـ

المنظم القرآني في سورة الرعد

يقع من نفوسهم هذا الموقع ، أو لم يجدوا فيه قوة الإعجاز التي وجدوها فيما مثلوا به .

ولكن الحقيقة أن ما أفردوه بالاستشهاد إنما كان نماذج لغيره من آيات الكتاب الكريم المساوية في الروعة والجمال .

والمألوف المعهود عند كل باحث ودارس أن يجتزئ بمثل هذه النماذج ليدل بالقليل على الكثير ، إذ أن باحثاً ما لا يمكن أن يحصي كل ما يريد لأنه هنا وفي القرآن بالذات سيضطر إلى أن يكرر ويعيد ، لأن الحكم واحد في جميع الأحوال والاستشهاد لا يقتضي الخصوصية ، وذلك مألوف في كل علم وفي كل فن .



ثم أن الاستشهاد يختلف باختلاف المستشهدين أو المحتجين ، وباختلاف الموضوعات التي يستشهد عليها بآيات القرآن ، فإن آيات الاستشهاد مفرقة في أنحاء المعرفة وآثارها فهناك آيات استشهد بها في المسائل الفقهية ، واستخراج الأحكام ، وآيات استشهد بها على سلامة اللغة وصحة دلالتها ، وهناك آيات استشهد بها على بلاغة القول ، وفصاحة البيان ، وهناك آيات استشهد بها على صحيح الأخبار وهكذا تتعدد الشواهد ، وتكثر الآيات التي يتأكد بها كل غرض من الأغراض التي وفاها الكتاب الكريم حقها .



وفي العلماء من أشار إلى هذه المسألة ، وكان رأيه مثل ما رأينا في عموم بلاغة القرآن وفصاحته ، منهم ((الباقلاني)) الذي يقول :

((وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد في حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف رفيه إلى الرتبة الدنيا)) .

وإذا أردنا أن نطبق تلك المزية التي بينها الباقلاني - على حد عدد من الآيات لوجدنا كل آية بعينها تصلح لأن تكون شاهداً على ما ذكره من سمات حسن النظم والتساوي في براعة التأليف ، ولكن لذلك موضعه من هذه الدراسة ، فلنمض مع الباقلاني إذ يقول : ((وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف . وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحد تفاوتاً بيناً ، ويختلف اختلافاً كثيراً ، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة ...))^(١) .

وما ذهب إليه الباقلاني وغيره صحيح لا يقبل الجدل ، وإن كان هنالك تفاوت أو اختلاف فليس محله النظم أو التعبير القرآني . وإنما موطنه في الأغراض والمقاصد ، لأن هذه الأغراض ، وتلك المقاصد خضم زاخر في الكتاب

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٧ ، ٣٨ ط الثالثة تحقيق أحمد صقر

النظم القرآني في سورة الرعد

الكريم الذي وصف أحوال النفس الإنسانية وبين نظام الحياة وقواعد الأدب والسلوك ، وأصول الإيمان بالله سبحانه ، وملائكته وكتبه ورسله وكرر أصناف الثواب وأنواع العقاب ، إلى غير ذلك من الأغراض المختلفة التي لا تحاول إحصاءها في هذا المجال وإنما نكتفي بالإشارة إلى بعضها وذلك اختلاف طبيعي كالاختلاف الذي يكون بين عمل أدبي في الحكمة ، وعمل أدبي آخر في الفخر أو الرثاء أو في الوصف . أو غير تلك الأغراض التي تعرض للأديب ، ولله المثل الأعلى في كل شيء .

وفي جملة من فند رأي القائلين بالتفاصيل ورده ((شمس الدين الخويبي)) الذي نقل خلاصة رأيه ((بدر الدين الزركشي)) في كتاب ((البرهان في علم القرآن)) وأورد ما قاله : من أن بعض العلماء جوز أن يقال : بعض كلام الله أبلغ من بعض . وذلك لقصور نظر من ذهب إلى مثل هذا ، وينبغي أن يعلم أن معنى قوله القائل : هذا الكلام أبلغ من هذا الكلام . أن هذا في موضعه له حسن ولطف ، وذلك في موضع له حسن ولطف ، وهذا الحسن في موضعه أكمل من ذلك في موضعه ، فإن من قال : إن ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

أبلغ من ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ يجعل المقابلة بين ذكر الله ، وذكر أبي لهب وبين التوحيد ، والدعاء على الكافرين ، وذلك غير صحيح . بل ينبغي أن يقال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ دعاء عليه بالخسران ، فهل توجد عبارة للدعاء

بالخسران أحسن من هذه ؟ وكذلك ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لا توجد
عبارة

تدل على الوحدانية أبلغ منها ، فالعالم إذا نظر إلى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ
وَتَبَّ﴾ في باب الدعاء والخسران ، ونظر إلى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في
باب التوحيد ، لا يمكنه أن يقول : أحدهما أبلغ من الآخر ، وهذا القيد يغفل عند
بعض من لا يكون عنده علم البيان ^(١)

- ٢ -

وإذ قد أتضح لنا عموم بلاغة القرآن ، وأن لا تفاوت بين آية في درجة البلاغة
والفصاحة ، وبديع النظم والتأليف ، فما خصائص النظم في سورة الرعد ؟
ذلك ما ستعرض له في هذا المقام .

لقد تكلمنا عن هيكل سورة الرعد ، وقلنا : إن هذه السورة كغيرها من سور
القرآن في بناء هيكلها فهو من افتتاح ، وموضوع ، وخاتمة وإذا نظرنا في فاتحتها
وجدنا أربعة أحرف : هي ((الألف)) و ((اللام)) و ((الميم)) و ((الراء)) وقد
مرت الإشارة إلى اجتهادات المجتهد في تفسير هذه الحروف .

(١) انظر البرهان في علم القرآن للزركشي الجزء الأول ص ٤٤٠ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم
الطبعة الثانية مطبعة الحلبي ، والإتقان للسيوطي ص ١٥٦ الجزء الثاني الطبعة الثانية ١٣٤٢
هـ المطبعة الأزهرية .

النظم القرآني في سورة الرعد

والذي يلفت النظر هنا ((تضمنها)) إشارة انتباه السامع لنـ\ما سيلقي إليه ويمكن القول : بأن من خصائص نظم سورة الرعد ما تضمنته فاتحتها من إثارة انتباه السامع ، وتهيئة ذهن القارئ ، وتحقيق التناسب بين هذه الحروف وبين الكثير من آيات السورة ، وما اتسمت به توازن في المخرج بين القرب والبعد . والتوسط .

أما عن خصائص النظم في موضوع هذه السورة فيحسن أن نرجى الحديث عنه ، لاشتماله على الإطار والمضمون ، وهذا يتطلب شيئاً من البسط يحسن الإتيان به بعد الحديث عن الخاتمة لصلتها بالفاتحة .

إن من خصائص نظم القرآن الكريم يجئ خواتم سورة كفواتحها بجماع الحسن ، لأن فاتحة السورة أول ما يقرع الأذن ، ويثير الانتباه وخاتمة السورة آخر ما يقرع السمع ويحسم الموقف .

ولذا جاءت خاتمة سورة الرعد متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى لا يبقى معه تشوف إلى شيء سيذكر بعد ، ويمكن القول بأن خصائص نظم الخاتم هنا :

١- تميزها بأسلوب الحوار كما في قوله : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ

مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ ﴾ .

٢- التقابل العجيب بين انتصار فاتحة السورة لرسالة محمد صلى الله

عليه وسلم وبين دحض إنكار الكفار لها في الخاتمة .

٣. الأسلوب المقنع من غير ما جدل أو مشاقة وذلك بين من خلال قول الله

تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ .

٤. ذلك النغم الممتد في جرس آخر كلمة من هذه الخاتمة الرائعة والتي

هي لفظة ((الكتاب)) من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ وينشأ عن هذا تأثير روحي يبقي النفس مرتبطة بهذا القرآن وبمن أنزله ، وبمن نزل عليه .

ولنأخذ الآن في بيان خصائص النظم في عنصر الثالث لهيكل سورة

الرعد وهو موضوعها .

إن للبنات الأولى التي تكونت منها تلك السورة هي الحروف والألفاظ

فالتراكيب ، أو الآيات ، لأن ما نعينه بالآية القرآنية من السورة هنا هو ما

نعنيه بالجملة المركبة على وجه التقريب . إذا تقرر ذلك فلا بد من مراعاة

عنصر آخر هام ذلك هو المعنى . فتكون جزئيات النظم في هذه السورة وغيرها

من السورة أربعة أشياء :

أولها: الحروف .

ثانيها: الألفاظ .

ثالثها: التراكيب .

رابعها: المعاني

النظم القرآني في سورة الرعد

ويتبع تلك الجزئيات نظام الفاصلة، والتلاؤم بن أجزاء النظم فيها، والأمثال، والتشبيهات، وأثر ذلك في تلاحم الأجزاء^(١).



والإطار العام لسورة الرعد ينتظم ثلاثاً وأربعين آية، وقيل ينتظم خمساً وأربعين آية في ثمانمائة وخمس وخمسين كلمة في ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف^(٢).

وليس الباحث مهما بلغ من قوة الاستنباط أن يدعي الإحاطة بخصائص النظم كلها في هذا الإطار، ولا أن يحكم قائلاً: إن هذه هي خصائص النظم القرآني في تلك السورة، أو غيرها من السور، لأن كلام الله سبحانه لا يقف عند حد في بلاغته، وفصاحته، وإعجازه.

وحسبي أن أشير إلى تلك الخصائص قدر الطاقة، وإن كان الحديث يغري بالإفاضة، وما يستعذب التكرار في كلام كما يستعذب في كلام الله تعالى.

(١) انظر الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(٢) انظر غرائب القرآن وغرائب الفرقان للنيسابوري ص ٦٠ الجزء الرابع عشر بهامش الجزء الرابع عشر من تفسير الطبري الطبعة الأولى مطبعة بولائي.

خصائص نظم الحروف والألفاظ

إذا أنت تلوت سورة الرعد كلها أو بعضها ، أبيت لظيفاً من الحروف المتسمة باللين ، والتقارب في المخرج مما يشكل إحياء صوتياً يبقي الجرس معه رتيباً لا يمل . ولست بواجد في نظم حروف هذه السورة . وكذلك غيرها من السور . حرفاً نابياً يكد اللسان ، بل تلمس ظاهر التناسب ، والمشاركة بين الحروف جميعها في عموم الآيات . أما ألفاظ تلك السورة الكريمة : فمن خصائص نظمها التنوع في اللفظة المفردة من اسم إلى فعل ، ولكل موضعه وصلته بسابقه . ولاحقه . اقرأ قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ .

فهناك مشهذان متشابهان من غير شك فكلاهما علويان ، والمقام واحد في الجملة لاستدعائهما بالإيمان بالله الواحد الأحد ((ولكن الأسلوب والأسلوب والألفاظ في الأول في الثاني لا يستطيع أحد أن يزعم أنها ألفاظ متفقة أو متحدة مكررة)) (١) .

ولعل من أبرز خصائص نظم الألفاظ في سورة الرعد . استخدام الألفاظ الموحية المعبرة ذات التناسق العجيب ووضوح الدلالة على المعنى المراد كما مر

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه لمحمد الصادق مرجون ص ١٦٢ .

النظم القرآني في سورة الرعد

معنا في ((أسر)) ((وجهر)) ومستخف وسارب ، وسراً وعلانية ويذهب جفاء ،
ويمكث في الأرض .

وتخير الألفاظ ذات الإيحاء والتعبير بالصيغ الفعلية المختلفة من أبرز

الخصائص في تلك السورة . خذ مثلاً قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا
يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ
الْحِسَابِ ﴿ وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ انظر كم صيغة للفعل المضارع في الآية الأولى ، يقابلها
عدد من صيغ الفعل الماضي في الآية الثانية ، نظم وإبداع عجيب .

وإن لتوالي المد والغنة واختلاف الحركات والسكنات في حروف الألفاظ

لمزية في نظم السورة مما يعطي كل لفظ هيئة تختص بها حروفها : فحرف
ينقر وحرف يصفر وثالث يهمس وآخر ذو مد يحدث نغماً وترنيماً . كما مر
معنا في لفظ السيئة والحسنة ، والناس ، والمثلثات ، والعقاب وغيرهن .



ومن أبرز خصائص النظم في سورة الرعد فيما يتعلق بتراكيبها تلك

الخصائص التالية:

١. الترابط المحكم بين الآيات .
٢. التناسق البديع بين كل جملة وأختها .
٣. التلاؤم بين الآيات والجمل من حيث المعنى .

٤. تنوع آيات السورة ، واختلافها بين الطول والقصر .

ويكفي أن نسوق شاهداً واحداً لإحدى هذه الخصائص ، إذ قد فصلنا

القول في نظم سورة الرعد الفصلين السابقين .

فمثلا عن الترابط المحكم بين الآيات نلاحظ تلك الخاصة في قوله

تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٠﴾ .

هذه الآية نربو جملها على احد عشرة جملة ، فلنتبين وجوه الترابط بين

بعض هذه الجمل .

لما قال سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تبين أن الجملة هنا

توحي بسؤال ولا بد له من جواب ، ولذا قال عقبها مباشرة ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ وفي هذا إفحام للخصم من أول وهلة لإقراره بأن رب السماوات والأرض هو الله ، ولكن نكرانه محض سفه وعناد يستلزم تقييعه بهذا الجواب المباشر ، وأنه لا محل لجدال يسبق هذا الجواب .

وبعد جملة الجواب المضمح يجئ السياق بما ينكر على المشركين فعلتهم

حيث يقرون في بواطنهم بالوهية الله لكنهم يشركون معه غيره . لذا جاء

الإنكار ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ ولأمر ما جاءت لفظة أوليا منكرة فصي

ذلك تحقير لأولياء المشركين تجئ الجمل بعده في سرد لصفات الأولياء ،

النظم القرآني في سورة الرعد

وأنها جمادات لا تنفع ولا تضر بل لا تنفع نفسها ولا نرد الضرر عنها ، نعم

﴿لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ .

ويهيمن السياق على جمل الآية بهذه الخاتمة المهيمنة ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ

شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ﴾ .

وأما عن خاصية التلاؤم في التركيب فقد سبق أن أشرنا إليه بشيء من

التفصيل ، ولعل في ذكره هناك ما يغني عن تكراره .

وعن تنوع آيات السورة بين الطول والقصر ، فتلک ظاهرة تتميز بها

كافة سور القرآن الكريم على حسب المعنى الذي تتحدث عنه السورة وتسوقه

الآية ، ولعل من أقصر آيات سورة الرعد قوله تعالى : ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ﴾ وقوله تعالى : ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾

ومن طوالها قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ

لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ

جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُهُ الْخَالِقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ﴾ ،

وقوله تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا

يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ

فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ إلى غير

ذلك من الآيات الأخرى في سورة الكريمة اللواتي على غرار ما مر ذكره طويلاً
وقصراً

- ٣ -

ومن خلال تلك الألفاظ والتراكيب التي تحدثنا عن بعض خصائص
نظمها ، ومن خلال كافة ألفاظ السورة وتراكيبها ، نلمح المعاني البديعة
الشريفة التي ليس فيها معنى غريب ، وإنما هي واضحة وضوح موضوعها الذي
تهدف إليه وهو غرس عقيدة التوحيد .

وهذه المعاني جاءت متناسقة مرصوفة رصف الألفاظ والتراكيب وتجلت في

أجمل معرض وأحلي بيان وشاهد ذلك قول الله تعالى : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ

كُلُّ أَنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿١٠﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿١١﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هُوَ
مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٢﴾

المعنى في الآيات الثلاث عن مد إحاطة علم الله بما يجري في هذا الكون
الفسيح ظاهراً كان أم خفياً ، وقد جاءت معاني الآيات متناسقة يأخذ كل
معنى بحجز الآخر بين الإجمال والتفصيل . نلمس ذلك من خلال قوله تعالى :

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أَنْثَىٰ﴾ ((فهنا معنى مجمل يأتي بعده معنى مفصل

من خلال قول الله بعده ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ﴾ ثم يأتي بعد ذلك

النظم القرآني في سورة الرعد

معنى مجمل عن عظيم قدرة الله ، وواسع علمه المحيط بكل شيء . فيقول جل ثناؤه : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ .

ثم هذا الشيء ماكنه حقيقته ، وما مدي ظهوره بين الناس ؟ إنه بين خفي مستور ، وظاهر مشاهد ، وعلم الله محيط به في الحالين . فهو سبحانه لا غيره ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ .

ثم لما فصلت الآيات وأجملت تلك المعاني ، زادت هذا الإجمال وهذا التفصيل وضوحاً فقال سبحانه : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ .

مثل تلك الآيات من القرآن كثير من ذلك قوله تعالى في سورة أخرى :

﴿ وَإِنْ جَهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ وقوله تعالى : ﴿)) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ .

وتلك آية من السورة الكريمة تتضمن معنى الوعد والوعيد على حد قوله

تعالى : ﴿ وَاسْتَعْجِلُونَا بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . انظر كيف

تتلاحم المعاني ، وتصل على الرغم من طول سياق الآية فبعد أن قال سبحانه

﴿ وَاسْتَعْجِلُونَا بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ جاء الوعيد بقوله : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ

مِنْ قَبْلِهِمْ الْمُتَكَلِّمِينَ ﴿١٠٤﴾ وعند ذكر الحسنة يأتي قوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾. وفي معرض ذكر السيئة يأتي قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تقابل بديع في المبني والمعنى.

ونظير تلك المعاني في النسخ والإبداع قول الله تعالى في سورة آخر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠٥﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿١٠٦﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْضَةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ إلى غير ذلك من الآيات الأخرى في سور آخر.



النظم القرآني في سورة الرعد

خصائص نظم الفواصل القرآنية في السورة

مر معنا في مبحث الفاصلة القرآنية في سورة الرعد إحصاء للحروف التي بنيت عليها فواصلها ومن خلال هذا الإحصاء يمكن أن نجمل خصائص نظم الفواصل فيما يلي :

١ - التباير والتنوع في مبني الفاصلة كما مر معنا في فاصلة . يتفكرون . يعقلون . خالدون . وبعد هذا النسق تأتي فاصلة مبنية على حرف آخر كما ذكرنا في فاصلة : العقاب - هاد - الكتاب - مآب - وغير ذلك كثير في فواصل السورة .

وفي هذا التنوع تمكين من الترقيم الذي يعين القارئ ، ويشوق السامع ، ويدفع عنهما السأم والملل ، الذي قد تؤدي إليه الرتابة الملتزمة ، ولذا جاءت فواصل السورة الكريمة ، وغيرها مما يشبهها من السور على أعذب المقاطع ، وأسهل المواقف .

٢ - ومن خصائص نظم الفواصل في هذه السورة حذف أصلي من آخر بعض الكلمات ، كما مر معنا في هاد - ووال - وواق - فإن الأصل . هادي - ووالي - وواقي



٣ - واختلاف مبني الفاصلتين في موضعين ، والمحدث عنه واحد لكنته لطيفة من سمات خصائص النظم في فاصلة سورة الرعد من ذلك قول الله

تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾

فالمحدث عنه المؤمنون وما هم عليه من ثبات واطمئنان في الحياة الدنيا ،
وما أعد لهم في الآخرة من جزاء . وقد بنيت الفاصلة الأولى على حرف الواو
يعقبها حرف الباء الساكن للوقف . أيضاً ، لكن الجرس الصوتي في الأولى
مديد في انقطاع سريع ، وفي الثانية مديد من غير انقطاع ، وفي ذلك تعبير عن
نعيم الدنيا وأن مآله الانقطاع والانتهاء ، وتعبير عن نعيم الآخرة الذي لا
ينقطع ولا يزول .



النظم القرآني في سورة الرعد

خصائص نظم الأمثال والتشبيهات في السورة

وقد حفلت سورة الرعد بطائفة من الأمثال والتشبيهات الرائعة التي كان من أبرز خصائص نظمها : اشتغالها على عناصر قوية من ظواهر الكون والحياة مما يمكن لها البقاء والاستمرار مع تماسك التصوير في إطار التشبيه والمثل .

ولظاهرة تخير الألفاظ لتأليف هذين اللونين سمة بارزة مما جعلهما يحدثان التأثير في العواطف ، وترغيباً وترهيباً .

ولجريان الأمثال والتشبيهات في السورة على طرف من الإيجاز الإطناب خاصة في النظم على حسب استدعاء المقام ، وشاهد ذلك قول الله تعالى :

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَثِيرٍ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ ﴿١١﴾

ففي الآية هنا تشبيه تمثيلي انتزع

وجه الشبه فيه من المتعدد ، وطال إطاره لأجل اكتمال الصورة ووفائها بالمعنى

، لكن اقرأ قوله تعالى : ﴿ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴾

ففي الآية تشبيه سيق لمجرد المماثلة

وكفي في إطاره ثلاث ألفاظ هي الفعل ﴿ خلق ﴾ والاسم ﴿ خلق ﴾ وكاف

التشبيه .

أما عن الأمثال فالإيجاز ظاهر في قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الآية ، والإطناب ظاهر في قوله تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ الآية



هذه بعض خصائص النظم القرآني في سورة الرعد وما فات على المحصل

أكثر ويمكن تلخيص هذه الخصائص فيما يلي :

- ١ - تحقيق التناسب بين افتتاح السورة وبين أكثر آياتها .
- ٢ - التوازن في مخارج الحروف بين القرب والبعد والتوسط .
- ٣ - أسلوب الحوار في أكثر آيات السورة ، واعتماد الخاتمة عليه .
- ٤ - التناسب في المعنى بين الافتتاح والخاتمة .
- ٥ - التغيرات في الألفاظ والتراكيب .
- ٦ - استخدام الألفاظ المعبرة الموحية ذات التناسق العجيب بين المدلول والمعنى .
- ٧ - التكرار المفيد والتناسق بين الألفاظ .
- ٨ - ظاهرة التقديم والتأخير والحذف وفقاً لمقتضيات المعاني .
- ٩ - الدقة في اختيار الألفاظ ، والتعبير بالصيغ الفعلية المختلفة
- ١٠ - التناسب الصوتي في مقاطع الألفاظ والتراكيب .
- ١١ - الترابط المحكم بين الآيات والجمل في داخلها .

النظم القرآني في سورة الرعد

- ١٢ - التناسق البديع بين كل جملة وأخرى .
- ١٣ - ظاهرة التلاؤم في الألفاظ والمعاني وفي جو السورة العام .
- ١٤ - تنوع الآيات ، واختلاف إطارها بين الطول والقصر .
- ١٥ - وضوح المعاني ، وتناسقها بين الإجمال والتفصيل .
- ١٦ - تلاحم معاني مع طول السياق وقصره .
- ١٧ - كثرة المقابلات الفنية بين الألفاظ والمعاني
- ١٨ - التنوع في مبني الفاصلة القرآنية في السورة
- ١٩ - حذف أو آخر الكلمات في مقاطع بعض الفواصل .
- ٢٠ - اختلاف مبني الفاصلتين في موضعين والمحدث عنه واحد .
- ٢١ - رقابة الجرس الصوتي في غالب الفواصل .
- ٢٢ - اشتغال السورة على الكثير من الأمثال ، والتشبيهات وأثر ذلك في
تلاحم أجزاءها
- ٢٣ - أسلوب الإيجاز والإطناب على حسب ما يستدعي المقام
- ٢٤ - دقة التصوير في أسلوب الحقيقة والمجاز .
- ٢٥ - تنوع الأسلوب في أداء المعاني مرة بطريق الاستعارة ومرة بطريق
التشبيه ، أي مرة بالحقيقة وأخرى بالمجاز .

النظم القرآني في سورة الرعد

النظم القرآني في سورة الرعد

خصائص النظم القرآني بين سورة الرعد

وغيرها من السور

لقد سبقت الإشارة في أول هذا الفصل إلى خصائص النظم في سورة الرعد ، وفي هذا المبحث سنتعرض لخصائص النظم بين تلك السورة وغيرها من سور القرآن ، لا على سبيل موازنة أو مفاضلة ، فمثل هذا الصنيع مما لا يجدي الباحث ، فالقرآن كله آية في السمو ، والإبداع في النظم ، وقد أشرنا إلى أقوال بعض القائلين بالتفاوت في بلاغة القرآن وفصاحته وبيننا فساد ما ذهبوا إليه .

فلنبحث الآن في خصائص نظم القرآن الكريم مشيرين إلى الأوجه التي تتقارب في النظم بين سورة الرعد ، وغيرها من الآيات في سور أخرى من حيث الإطار والمضمون على سبيل المثال لا الحصر .



أما موضوع سورة الرعد ، والإطار الذي ينتظم هذا الموضوع فكثيرة تلك السور القرآنية التي تشبهها في ذلك . فهذه سورة فاطر مثلا عدد آياتها خمس وأربعون آية ، ومن موضوعاتها إثبات عقيدة التوحيد وإقامة الأدلة على وحدانية الله سبحانه وعظيم قدرته ، والعودة إلى عبادة الله ، والإيمان برسالة محمد ، يتضح ذلك من خلال الكثير من آياتها التي منها قول الله تعالى :

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَدْكُرُوا وَاِنَعَمَتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ (*) ففي الآية هنا دعوة إلى الإيمان بالوهمية

الله في أسمى معاني الدعوة الخالصة ، ويأتي عقب هذه الآية قول الله تعالى :

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ (*) تدعوا الآية

هنا إلى إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتهدئة نفسه بأنه سبق في

الأمم قبل أمته من كذب الرسل ، فلا تذهب نفسك حسرات على من كذب

ولم يؤمن . ويقارب تلك الآية في الإطار والمضمون قول الله تعالى في سورة

الرعد : ﴿وَلَقَدْ أَسْرَيْنَا لِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَمَا مَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ

عِقَابِ﴾

وقد تطول بعض السور التي تشبه سورة الرعد في الموضوع ويقصر البعض

الآخر . فمما طال في السياق مثلا سورة يوسف إذ آياتها احد عشرة آية ومائة

((١١١)) ومما عالج موضوع العقيدة مع القصر في السياق غالب سور المفضل

من ذلك ((سورة الكوثر)) و ((الإخلاص)) فمجموع آياتها أربع آيات فقط ،

والكوثر ثلاث ، والسور التي تتراوح بين الطول والقصر كسورة الرعد كثيرة ،

من ذلك أيضا سورة الكهف ومريم وإبراهيم ، وغيرهن .

(*) سورة فاطر الآية ٣ .

(*) سورة فاطر الآية ٤ .

النظم القرآني في سورة الرعد

وسبق أن أشرنا إلى سمات الحروف في أفاضل سورة الرعد من حيث المخارج ، والأصوات ، ونظير خصائص نظم هذه الحروف آيات كثيرة تتسم حروف أفاضلها بالهمس والجهر والترقيق والتضخيم ، إليك قول الله تعالى في سورة ((

الفجر)) : ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧﴾ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرَضِيَةً ﴿٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿١٠﴾﴾

تأمل ما ضمته تلك الآية من الحروف ، وما تميزت به من صفات المد والتضخيم والترقيق، والغنات والحركات والسكنات فهناك من المد ((يا - ها - جعي - إلى - را - خلي - في - عبا - دي - خلي - تي -)) ومن التضخيم تلك الحروف المشددة ((أيتها _ النفس _ المطمئنة _ ربك _ راضية مرضية _ وكذلك ما ضمته من حركات الكسر مما يشكل نغماً مديد الصوت كالكسر في العين من إرجعي واللام في أدخلي _ والdal في عبادي _ والتاء في جنتي)) (١) .

ومما نلاحظه في نظم القرآن الكريم ظاهرة أسلوب الحوار ، مما يساعد على نشاط السامع والقارئ ، ولفت نظرهما إلى ما يتلى ، فمن سورة الرعد اقرأ قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴿٤﴾﴾ وقرأ أيضاً خاتمتها تحس بما للأسلوب الحوارية من روعة في الأداء وجودة النظم ، وأضيف إلى ذلك قوله

(١) التعبير الفني في القرآن للدكتور بكرى الشيخ أمين ص ١٨١ مطبعة دار الشروق الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ

تعالى منها : ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ﴾ ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ ، ﴿ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

ولكن هل هذه الخصوصية لا توجد إلا في سورة الرعد ٩ ، لا ، فليس الأمر كذلك ، وإنما هناك سور كثيرة نهجت هذا النهج في التعبير . إليك قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَكَانَ لَهُ نَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴾ ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ ... ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾ ومن الأسلوب الحوارية في هذه السورة قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرَحُ ﴾ ... ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنِّي نَاغِدَاءٌ نَا ﴾ ... ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ... ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ .

ويميضي السياق في هذا الحوار الحركي المتكرر حتى قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ ، ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي ﴾ ، ﴿ قَالَ لَمْ أَقُلْ ﴾ ... ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي ﴾ ومن بين الأمثلة البديعة لهذه الخاصية ، ذلك الأسلوب الحوارية سورة سبأ ، عن حال المستكبرين ، والمستضعفين ، بيانا أن الله تعالى لم

النظم القرآني في سورة الرعد

يرض في سننه لأحد من عباده بذل الاستضعاف ، ومهانة الاستسلام للباطل وأهله مهما علوا واستكبروا في الأرض . . . يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ ... ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴿٣٩﴾ .

هذه المحاورات تختلف اختلاف يدفع عنها سمة التكرار ، ويتشاجع فيها

المستضعفون فيلقون باللوم والمسئولية في وجه المستكبرين فيقول جل ثناؤه في

سورة الأحزاب : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٣٨﴾ . إنه أسلوب حوارى بديع

تستشف من خلاله روائع النظم المحكم بين الألفاظ والمعاني السامية التي أراد

الله فيها أن لا يبذل المستضعفون ، ولا يطغي ويتخير المستكبرون (١)

وإذا أنعمت النظر في الأساليب القرآنية من حيث النظم وجدت التباير في

الألفاظ مع اتحاد المعنى . من ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴿٣٩﴾

(١) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن لمحمد الصادق عرجون ص ٤٦ ، ٤٧ الطبعة الأولى الدار

السعودية للنشر - جدة

فإن لفظة ((رسول)) هنا بمعنى هاد مرسل من عند الله لدلالته الناس إلى ما ينضعهم في أولاهم وأخراهم ، والحيلولة دون ما يضرهم مما نهي الله عنه .

ومثل تلك اللفظة تأتي مغايرة لهذه ، من ذلك قوله تعالى في سورة

الرعد : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي رسول .

وعند الكلام مثلا على شأن السماوات والأرض تقول الآيات من سورة

الرعد ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ الآية:

ويقول جل ثناؤه ((ق)) : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾

إلى قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ﴾ فلمعنى متحد في الآيات

جميعها ، لكن الألفاظ متغايرة متنوعة ، فقد جاء التعبير في سورة الرعد برفع ، ومد ، وفي سورة ((ق)) بنينا - وزينا - ومددنا .

وعن شأن الجبال أتى التعبير ((بجعل)) في سورة الرعد ، وبألقينا في

سورة ((ق)) وهذا ليس للتصرف في فنون القول فحسب بل تصرف في المعاني على حسب قوالب الألفاظ حتى لا تشد لفظة عن معناها ، ولا ينبو معنى عن لفظه .

النظم القرآني في سورة الرعد

والتغاير في مبني الفواصل من خواص نظم القرآن الكريم ، وتأتي هذه الظاهرة تنشيطاً للسامع والقارئ ، وللملائمة والاتساق ، ومراعاة المعنى ، فليس لمجرد الحلية اللفظية ، وتحقق تلك الظاهرة في كثير من السور .

إليك قوله تعالى في سورة مريم : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكُمْ زَكِرَاتٍ ۝١٠١ ﴾
 إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝١٠٢ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ
 أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝١٠٣ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ
 هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝١٠٤ .

ويستمر السياق على حرف واحد هو الألف إلى نهاية قوله تعالى : ﴿ وَسَلِّمْ ۝١٠٥

عَلَيْهِ يَوْمٌ وَلَدِيَوْمٌ يَمُوتُ وَيَوْمٌ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٠٦ ﴾

ثم تبدأ قصة مريم وعيسي عليه السلام على نفس النسق المنتهي بفاصلة

الألف فيقول : ﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٠٧ ﴾ إلى
 قوله سبحانه في شأن ابن مريم : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ
 أُبْعَثُ حَيًّا ۝١٠٨ ﴾

وفجأة يتغير مبني الفاصلة فيأتي على نظام حرف آخر هو النون كما في

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝١٠٩ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ
 يَخْذِمَ مِنْ وُلْدِهِ سَبْحَةً ۝١١٠ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝١١١ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا
 نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝١١٢ ﴾

وعندما نقف على نهاية كل فقرة من هذه الفقرات المشتركة في حرف الفاصلة نجد أن الفقرة وحدة مستقلة من حيث المعنى ، فحرف الفاصلة قد روعي فيه المعنى والغرض .

ففي القصتين كان حرف الفاصلة الألف وقبلها ياء مشددة أو حرف آخر وعندما انتهى سرد حوادث القصة ، وأريد تقرير الحكم والتعليق عليه ، اختلف الحرف تبعاً لاختلاف الموضوع ، لأن لهجة الحكم تقتضي أسلوباً ذا نغم رخيم غير نغم وأسلوب الاستعراض ، وتقضي إحياء صوتياً قوياً رصيناً بدل الصوت الرخي المسترسل الذي تنهجه القصة .

وتنوع حرف الفاصلة ليس للاستمرار في شكل التفاير ، وتنغيم الصوت وإنما هو فوق تلك السمات لخدمة المعنى وتقديره ، كما وضع لنا في سياق الآيات السالفة الذكر .

وبمجرد الانتهاء من إصدار الحكم ، وإلقاء ذلك القرار عاد نظام الفاصلة في هذه السورة إلى طريقته الأولى ، التي هي بتاء الفاصلة على حرف

الألف ، لأن السياق عاد إلى قصص جديد على حد قوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِتَمَّ كَانَ صِدِّيقَانِيًّا﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ إلى قوله تعالى : ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ

عَصِيًّا﴾

النظم القرآني في سورة الرعد

وشبيه بنظام هذه الفاصلة في سورة مريم ، نظام الفاصلة في سورة الرعد . فهناك حرف الألف في أواخر كثير من الآيات ، وفجأة يتغير نظام الفاصلة فتبني على حرف الباء كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ .

ثم يعود السياق إلى الألف وبعدها حرف آخر وهكذا حتى نهاية السورة . ومن عجيب نظم الفواصل ((مناسبتها لآياتها ، يدرك ذلك كل من يملك أدنى ذوق باللغة ، فقد روي ما يؤكد تلك الخاصية في نظم القرآن ويثبتها فإن أعرابياً سمع قارئاً يتلو قوا الله تعالى : ﴿فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ولم يكن الأعرابي يقرأ القرآن ، فقال : إن هذا ليس بكلام الله لأن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلزل ، أنه إغراء عليه ^(١) وسمع آخر يقرأ قول الله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ وختم الآية ب : ﴿اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فاعترض الأعرابي وقال : ما هذا بقرآن فانتبه القارئ فقرأ : ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبْنَا كَلَامًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال : أما هذا فنعم ، عز ، فحكم ، فقطع ، وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق الشعبي عن زيد بن ثابت قال :

(١) سترك الأقران للسيوطي ص ٣٨ نقلاً من رسالة في الإعجاز للدكتور مصطفى مسلم ص ١٣٦ وما

بعدها .

((أملى علي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية)) : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا

الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله تعالى ﴿خَلَقْنَا آخَرَ﴾ .

خلقاً آخر﴾ قال معاذ بن جبل : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فضحك

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال معاذ : ضحكت يا رسول الله . قال صلى الله عليه وسلم ((بها ختمت)) .

فانظر إلى قوة الإحكام في صياغة الآيات ، وكيف تستحوذ على العقول

وتحرك المشاعر ، وتشحن الأوراق . حتى يدرك السامع بفطرته السليمة ختام الآية وأن من يخالفها في النسيج والصياغة ليس بقرآن .

ومن بديع نظم الفواصل ، اختلاف الفاصلتين في موضوعين والمحدث

عنه واحد لنكتة لطيفة ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذه الظاهرة وسقنا الأمثلة

عليها من سورة الرعد وغيرها من السور ، والذي يعيننا في هذا المقام وهو ما

يأتي على العكس من ذلك . ((أي اتضاق الفاصلتين والمحدث عنه مختلف

كقوله تعالى في سورة النور : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّ بِكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ وَمِن

بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾

النظم القرآني في سورة الرعد

ثم قال : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فقد اتفق مبني الفاصلتين في لفظة ((حكيم)) . من الآيتين السابقتين.^(١)

ومما يستوقف الناظر في صياغة الآيتين هنا : أن جاء لفظ الآيات معرفاً في الأولى ((بأل)) وفي الثانية بضمير الغائب من قوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ وهذا التنوع في الصياغة ، ولعل مما دعا إليه قرب السياق بين الآيتين إذ لو جاءت لفظة ((الآيات)) معرفة بأل في الآيتين لحدث ما يذهب برونق التعبير . فتعالى الله الحكيم العليم .



ومن بدائع نظم القرآن الكريم ظاهرة التكرار الذي يجعله البلاغيون من أقسام الإطناب . الذي هو محاسن الفصاحة خلافاً لبعض من غلط وله فوائد كثيرة ، منها التقرير فقد قيل : ((الكلام إذا تكرر تقرر)) وقد نبه الله تعالى على السبب الذي لأجله كرر القصص ، والإنذار في القرآن ، إذ يقول تبارك اسمه : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقَوْنَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾

(١) انظر الإتيان للسيوطي الجزء الثاني ص ١٠٣ الطبعة الثانية ٣٤٣ المطبعة الأزهرية بمصر.

وفي معرض سياق نعم الله وتسخيرها لعباده ، وتفضله بها عليهم اقرأ قوله

تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

((وقف قليلا عند التعبير بكلمة ((لكم)) لقد ذكرت مرتين)) ﴿جَعَلَ

لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ ، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ .

ذلك لتكون أبلغ في التذكير بنعم الله الظاهرة في خلق السماء والأرض

.. وعلى هذا النسق قوله تعالى في سورة النحل : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وقوله : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ

بُيُوتِكُمْ سَكَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ وقوله : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ

لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَادًا﴾ الآيات ، والكلام من

حيث الصحة يستقيم أمرة مع حذف المكرر من هذه الجملة : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾

والاكْتفاء بحرف العطف الذي يدل عليها ... ولكن بديع نظم القرآن لا يقف

عند مجرد أن يكون الكلام صحيحاً من الناحية التركيبية ، وإنما يترقى في

الإعجاز بمراعاة هذه ألفطات التي لا يتيسر لصناع الكلام أن يوفقوا إليها بهذه

الدقة البالغة ^(١) .

(١) انظر من بدائع النظم القرآني للدكتور السيد عبد الفتاح حجاب ص ١٣٥ مطبعة الجندي .

النظم القرآني في سورة الرعد

ومن فوائد التأكيد ، وزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي

الكلام بالقبول ، من ذلك قوله تعالى في سورة غافر : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۗ يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ ۗ ﴾ .
فقد كرر في الآية لفظة ((النداء)) ولفظة ((قوم)) وفي ذلك

تقرير للمعنى وتأكيد ونظرية لنشاط السامع .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّعُوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا

مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ الآية (١) . فقد كرر لفظ ((ثم))
ولفظ ((ربك)) وليس في هذا التكرار ما يعيب الأسلوب ، أو يחדش المعنى .

بل هناك سور كرر غالب إطارها أوكله، من ذلك سورة الرحمن : ﴿ فَيَا أَيُّ

ءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ وسورة المرسلات : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، ﴿ الْحَاقَّةُ

﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ، ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ وخصية التكرار نلاحظها

في ثنايا الرعد من قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ ﴾ ، ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ أَلَّهَ يُضِلُّ

مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ ﴾ الآية .

(١) الاتقان للسيوطي الجزء الثاني ص ٦٦ ، ص ٦٧ الطبعة الثانية ١٣٤٣ هـ _ المطبعة الأزهرية .

ولتخير الحروف على غيرها - فضلا عن تخير الألفاظ - مزية في النظم عجيبة ، من ذلك تخير حرف الجر ((في)) على غيره في سورة النساء ، وتخير حرف الجر ((من)) على غيره في نفس السورة ، والموضوع متشابه .

فالأول قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارزقوهم فيها ﴾ .

والثاني قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرزقوهم منه ﴾ .

وسر الاختيار الدال على بديع النظم ((أن كلا من هذين الحرفين قد دل دلالة تخالف ما يدل عليه الآخر في الآية الأولى المال لليتامى الذين لم يبلغوا الحلم ، وإنما أضيف إلى المخاطبين في قوله : ﴿ أَمْوَالِكُمْ ﴾ ليلفت أنظارهم إلى العناية بهذا المال كما يعتني الموصي بماله الخاص وهذا من دقة لفت النظر في الأسلوب القرآني _ ولا يجوز دفع المال إلى اليتيم الذي لم يبلغ الرشد حتى يختبره الموصي بإسناد بعض الأموال التجارية إليه ، وغيرها فإن ظهر له حسن تصرف في المال دفعه إليه دون تباطؤ ، وهذا ما أشارت إليه الآية التالية : ﴿ وَأَبْلُوا الَّتِي لَكُمْ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنَّهُم أَنفُسُهُمْ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ﴾ (١) .

(١) سورة النساء الآية ٦ .

النظم القرآني في سورة الرعد

ولكن أثناء الوصاية على المال ، وقبل بلوغ النكاح من أين يأكل اليتيم ؟ وما مصدر نفقاته ؟ - هنا بيت القصيد - إذ يبرز للتأمل سر التعبير : **﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾** ، ويستنبط العلماء من هذا التعبير أن الموصي ، عليه أن يشغل هذا المال فيما يترجح ربحه ، ونفعه ، ويطعم ويكسو اليتيم من الربح لا من رأس المال ، لأن ذلك يكون عرض للزوال الإتيان على الأصل ، ولهذا السراختير التعبير ((بضي)) دون ((من)) .



أما الآية الثانية فالمال لورثة الميت ، وقد حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، واستشرفت نفوسهم وتطلعت إلي هذا المال الذي كان بين ظهرانيهم وهم يعلمون أنه لا استحقاق لهم فيه بغرض مقدار . ولقطع هذا التطلع ، ولأن تطيب القلوب أمر الله سبحانه بأن يرزق هؤلاء من هذا المال على سبيل البر والسخاء ، وكان التعبير الذي يؤدي هذا الغرض هو قوله : **﴿فَأَرْزُقُوهُمْ﴾** منه وهكذا يبرز لاختيار الحروف ما يبرز لاختيار الألفاظ من روعة في النظم والتأليف ^(١) .

وللترباط المحكم بين الآيات والجمال روعة في إحكام النظم ، فإن ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام ببعضه ببعض أو لعدم تمام الأولى إلا بالثانية ، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان .

(١) انظر رسالة في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

وأما أن يظهر الارتباط ، بل يسبق إلى الذهن أن كل جملة مستقلة عن الأخرى ، وأنها خلاف النوع المبدوء به ، ومن هنا إما أن تكون الثانية معطوفة على الأولى وفائدة ذلك العطف ((جعلهما كالنظرين والشريكين^(١))) على نحو ما درسه علماء البلاغة وضربوا له الأمثلة الكثيرة .

لكن الذي يلفت النظر أن الجملة تكون معطوفة على ما قبلها فيشكل

وجه الارتباط من ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ إلى أن يقول : ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ .

فقد يقال : أي ارتباط بين الإسراء وبين ، ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ .

ووجه الاتصال هنا : أن التقدير : أطلعنا محمداً صلى الله عليه وسلم على الغيب عياناً وأخبرناه بوقائع من سلف بيانا لتقوم أخباره على معجزته برهاناً أي سبحانه الذي أطلعك على بعض آياته لتقصها ذكراً ، وأخبرك بما جري لموسي وقومه من الكرتين لتكون آيتهما قصة أخرى .

أو أنه أسري بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى ربه كما أسري بموسي

من مصر حين خرج منها خائفاً يتربص ثم ذكر بعده : ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ

نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ليتذكر بنو إسرائيل نعمة الله عليهم قديماً

(١) البرهان للزركشي ص ٤٢ وما بعدها تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي .

النظم القرآني في سورة الرعد

حين نجاهم الله من الغرق ، إذ لو لم ينج أباهم من أبناء نوح لما وجدوا وأخبرهم
أن نوحاً كان عبداً شكوراً ، وهم ذريته والولد سرأبيه فيجب أن يكونوا
شاكرين كأبيهم .



تأمل كيف أثني الله على نوح ، وكيف لاقت صفته بالفاصلة ، وشم
النظم بها مع خروجها مخرج المرور عن الكلام الأول إلى ذكره ومدحه بشكره .
وأعجب لهذا التدرج العجيب في الموعظة العظيمة من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ
أَحْسَنَهُ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ ، ولم ينقطع بذلك نظام الجمل
إلى أن خرج السياق إلى قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عِدْنَا ﴾ .

وتلك خاصية من أنواع الارتباط نلاحظها في الآية الكريمة من سورة الرعد
هي قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ ﴾ فقد يقال : أي ارتباط بين صلب
الآية من قول تعالى ، وبين قوله تعالى بعده ، ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ ؟ .

ووجه العطف على التقديرين واضح ، أما الأول فالمعنى أتترك عبادة من
هو قائم على كل نفس ، ولم يكف الترك حتى جعلوا له شركاء ؟ وأما الثاني
فالمعنى : إذا انتهت المساواة بينهما فكيف تجعلون لغير المساوي حكم

المساوي ؟^(١)

(١) البرهان للزركشي ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ تحقيق أبي الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي .

والشواهد على تلك الخاصية كثيرة لم نأت على شيء منها سوي ما ذكرنا منعاً للاستطراد . والتكرار . ففي كتاب الله تعالى من عجائب أسرار النظم وبدائعه ما لا يحصي له عد .



وما مر ذكره من الخصائص ما هو الملامح جزئية يتسم بها النظم القرآني في سورة الرعد وغيرها ، وهذه الملامح تنوح بها لفظة مفردة ، أو جملة مركبة في ثنايا سور القرآن الكريم ، أو حرف أوتر التعبير به على غيره .
وإن أردنا الإلمام بخصائص النظم القرآني على وجه العموم ألفينا خصائص للنظم عجيبة تجل عن الحصر . منها :

((أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه _ خارج عن المعهود من نظام كلام البشر ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ^(١))) .



وأن نظمه على كثرة سوره وطولها وقصرها قد تميز بتناسب في الفصاحة على ما وصفه الله به إذ يقول تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَفْسَعِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ

(١) انظر الفصل الأول من هذه الدراسة .

النظم القرآني في سورة الرعد

ذَكَرَ اللَّهُ ^ع ﴿١﴾ وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ^٢ ﴿٢﴾ أما كلام الأدمي ، ن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال .

وهناك خاصية في النظم عجيبة يتميز بها أسلوب القرآن الكريم . وهي أن هذا الكتاب المبين ، على اختلاف فنونه ، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة ، والطرق المختلفة ، يجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباين كالمتناسب والمتناظر في الأفراد إلى حد الآحاد ، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة ، وتظهر به البلاغة ، ويخرج معه الكلام عن حد العادة ، ويتجاوز العرف .



ولكتاب الله تعالى ميزة في حسن الرصف ، وجودة التأليف . يدرك هذه الميزة كل من يملك أدني ذوق يحتكم إليه في حسن الأسلوب وقوته ، ووضوحه . وجماله . فإذا سمع أحد آيات الله تتلي في بيت من بيوت الله ، أو في منتدى قوم ، أو على قارعة طريق أحسن من أعماقه أن هذا الكلام الذي يسمعه ما هو إلا قرآن عظيم ، وإذا فبديع تأليفه يميزه على غيره من كل كلام مسموعاً كان أو مكتوباً ، وشاهد تلك الخصوصية شهادة أعدائه الألداء من قريش . كما ورد في قصة الوليد بن المغيرة التي أفادت أنه لم يملك إلا أن يقول : ((إن لقوله

(١) سورة الزمر آية ٢٣ .

(٢) سورة النساء الآية ٨٢ .

لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وأنه ليعلو وما يعلي)) ولا أري داعياً لاستعراض مثل تلك المواقف التي حدثت بين ظهراي السادة من قريش ، سواء ممن آمن ، أو ممن أعرض .

ومن خواص نظم القرآن أن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام ، أو تقذف ما بين شعر فتأخذها الأسماع ، وتتشوف إليها النفوس ، ويرى وجه رونقها بادياً غامراً سائراً ما تقرن به كالدرة التي تری في سلك من خرز ، وكالياقوتة في واسطة العقد .

وتكون غرة جمعه ، والنادي على نفسه بتميزه وتخصسه برونقه وجماله واعتراضه في حسنه ومائه .

ومن أروع خصائص النظم القرآني أنه سهل سبيله فهو خارج عن الوحشي المنكر ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، وجعله قريباً إلى الإفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب ، ويسابق المعزي منه عبارته إلى النفس وهو مع ذلك ممتنع المطلب ، عسير المتناول غير مطمع مع قربه في نفسه ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه ، أو يظفر به (١)

(١) انظر هذه الخصائص مفصلة في إعجاز القرآن للباقلاني الطبعة الثالثة ص ٣٥ وما بعدها تحقيق أحمد صقر مطبعة دار المعارف بمصر .

النظم القرآني في سورة الرعد

((ونظم القرآن لا يلتزم السجع فقد نجد سوراً قصيرة مسجوعة ، وقد نجد صحفاً من السور الطوال كذلك ، ولكن هذه الظاهرة لا تطرد فيه ، فكثيراً ما ينتقل من السجع إلى الكلام المرسل ^(١))) .

ومما يمتاز به النظم والأسلوب في القرآن الكريم ، أن الذي ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصار ، والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح والتجاوز والتحقيق ، ونح ذلك من الوجوه التي توجد في كلام الناس موجودة في القرآن ، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلام البشر المعتاد في الفصاحة ، والبلاغة ، والإبداع ^(٢) .

فانظر مثلاً إلى بديع التشبيهات ، والتمثيلات ، وما حققته من الأغراض

في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٦٠﴾

فقد يتراءى للناظر في صورة هذا المثل ((أنه يكفي في التشبيه أن يقال مثلهم كمثل الحمار الذي لا يعقل ، ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقاً والتحاماً حتى يقرب بين هؤلاء وقد حملوا التوراة فلم ينتفعوا بما فيها وبين الحمار يحمل أسفار العلم ، ولا يدري مما ضمنه شيئاً ، فتمام الصورتين يأتي من هذا القيد الذي نظمها ، وتقيد حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة))

(١) انظر بحث جديد عن القرآن الكريم لمحمد صبيح ص ١٠٤ الطبعة السادسة .

(٢) انظر إعجاز القرآن للباقلاني الطبعة الثانية ص ٤٢ تحقيق أحمد صقر الطبعة الثالثة مطبعة دار

المعارف بمصر .

ولأجل أن يزداد الأمر وضوحاً هذه آيات قصار في إطارها يسوقها القرآن في شأن أبي جهل ، وكل كافر ، وما يلقاه من عذاب يوم القيامة يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٤٢﴾ طَعَامٌ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صَبُؤُا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ﴾ الآيات (١)

لقد أشتمل إطار هذه الآيات على أكثر من تشبيه ، في صورة هول العذاب الذي يلقاه الكافر في جهنم ، تعجز كل وسائل التعبير الأخرى عن بلوغ مدي هذه الصورة في التأثير القوي الذي لا يقف عند جوانب الحس ، وإنما يتعداها إلى كل أبعاد النفس البشرية ، فيزئزل قوي الشرف فيها ، وتقوم كلمة في هذه الآيات بأداء دورها في تحقيق الغرض ، وإبداع هذه الصورة القرآنية المعجزة مع تناسق تام والتتام عجيب .

صحيح قد ندرك جانباً من هذه الأدوار لكل كلمة في الآيات ، ذلك بمقدار ما نملك من وسائل نقد الكلمة ، وحسن البصر بالأساليب ، والذوق المثقف الذي به يمكن أتن ندرك خفي الفرق بين التراكيب ، ولكن على الرغم من ذلك تبقى جوانب من الإعجاز مستورة ، ولآلي مكنونه يغوص من أجلها علماء جيل فيستخرجون منها على حسب ما تؤهلهم له قدراتهم المتفاوتة - بعضاً من بدائع النظم المحكم في القرآن الكريم .

(١) سورة الدخان الآيات ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ .

النظم القرآني في سورة الرعد

الذي يهمننا في هذا المقام أن نقف على شيء من بدائع التشبيه الذي

أوردته الآية في قوله تعالى ، ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ ، ﴿ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴾ .

أن أول ما يدعو إلى التأمل رصف تلك الألفاظ في إطار التشبيه :

﴿ الزَّقُومِ ﴾ ﴿ الأَثِيرِ ﴾ ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ ﴿ يَغْلِي ﴾ ﴿ الْحَمِيمِ ﴾ ،

وإذا كان الزقوم من أخبث الشجر المر الذي يعرفه القوم من بين ما يعرفونه من

نبت الصحراء ، وتنفر منه نفوسهم ، فإن النظم القرآني لا يقف عند حدود هذه

المعرفة على ما فيها من قدر كبير عن بشاعة هذا الشجر المر ، بل يضيف إليها

عن طريق التصوير البياني ما يزيد النفس منها نفوراً ، فاعتصار هذه الشجرة

الخبیثة ومصلها المر: ﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ أي كدر ذي الزيت

الأسود المغلي ، أو كالمعدن المصهور المذاب يلقي به في البطن ، فهي أوعيته ، يا

لل هول ! وبالبشاعة المنظر ، وقبل أن تفيق النفس من هول هذه الصورة ، تثوب

إلى رشدها تسلمها الآيات إلى صورة أخرى تدفع بها في طريق الخوف إلى مدي

أبعد ، فيأتي قوله تعالى : ﴿ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ ﴿ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴾ .

إن الآيات هنا تصور مشهداً مفرعاً مما سوف يحدث للكافر يوم القيامة

، ولكننا مع بدائع هذا النظم المعجز ، ومع ما اكتنف الآيات من سابق ولاحق

نقف أمام أحداث تلك القوارع التي لم يزل يتفوه بها الزمن وتزول الفواصل

بين ماض وحاضر ومستقبل ، حتى ليخيل إلينا أن الآيات هنا تحكي أحداثاً

وقعت بالفعل ، ومضت عليها القرون ، مع أنها في الواقع أمور مستقبلية صرف تحدث بعد أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد اخترقت بنا الآيات حجب الغيب البعيد ، وطوت الأباد من الزمن طياً لنضع بين أيدينا مشاهد متعددة الألوان ، ترد بأسلوب الماضي وكأنها تحكي لتؤخذ منه العبرة ، وهذه الطريقة التي انضرد بها النظم القرآني تؤكد الثقة في وقوع هذه الأحداث ، فكأنها حديث بالفعل ولا مجال للشك فيها فقد أخبر عنها علام الغيوب ^(١) .

وبين أيدينا في الآيات السابقة كثير من الألفاظ التي تستحق الوقوف طويلاً للتأمل في طريقة نسجها وتأليفها ، ونكتفي في الاستدلال على ذلك بواحدة منها ، تلك لفظة ((اعتلوه)) من قول الله تعالى : ﴿حَذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى

سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ^(٢) إن لهذه الكلمة من التأثير ما ليس لغيرها مما نفسرها به . إذ تحسد صورة جر الكافر إلى وسط النار بأقصى العنف والغلظة . وهذا من بديع نظم القرآن إذ تقرن في تأليفه كل لفظة لا تبغي حولا عن مكانها من حيث حسن النظم وقوة المعنى ، ((وهذا ما تنبه إليه الجاحظ من حيث الدقة في مواقع الألفاظ في الذكر الحكيم ، وكيف أن الكلمة المرادفة لأخرى لا يصح أن تستخدم مكانها ، بل إن صيغة الكلمة ينبغي أن لا تتغير ، وأن تظل على

(١) انظر من بدائع النظم القرآني للدكتور السيد عبد الفتاح حجاب ص ١٤ وما بعدها مطبعة الجندي .

النظم القرآني في سورة الرعد

صورتها من الإفراد والجمع ، وأيضاً فإن الكلمات كأفراد الأسرة أو على الأقل منها ما تقوم بينها واشجة الرحم .



وقد يستخف الناس ألفاظاً ، وغيرها أحق . بذلك منها ألا تري أن الله تبارك وتعالى : لم يذكر في القرآن ((الجوع)) إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام . والعامية وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيب .

ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضيين ، ألا تراه لا تجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعاً ، والجاري على أفواه العامة غير ذلك لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر ، وأولي في الاستعمال^(١) .

وتلك الخصائص للنظم القرآني ثابتة أصلية فيه ، وليست وليدة تنقيح وتكلف وتهذيب لأن القرآن منزل من عند أحكم الحاكمين .

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف ص ٥٠ ، ٥١ الطبعة الثانية مطبعة دار المعارف بمصر

وتلك الخاصية في النظم نلاحظها في التشبيه القرآني من سورة الرعد إذ

يقول تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفِيَّةٍ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ .

فقد يقال : يمكن أن يتم التشبيه على نحو من قولنا ((إلا كظمان يريد

الماء ، وهو لا يستطيع الوصول إليه)) .

ولكن الأمر هنا على خلاف ما ذكرته الآية من حسن الصياغة ودقة

النظم فقد هذا قيد الظمان بأنه يبسط كفيه إلى الماء عن قرب لعلها تصيب

شيئاً منه ، وهيهات ذلك ، كما هو حال المشركين يدعون من دون الله وأني

يستجاب لهم .



ومن سمات النظم أن المعاني التي تضمنها القرآن الكريم في أصل وضع

الشريعة ، والأحكام ، والاحتياجات في أصل الدين ، والرد على الملحدين على

تلك الألفاظ البديعة ، وموافقة بعضها في اللطف والبراعة مما يتعذر على

البشر ويمتنع .

وذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة ،

والأسباب الدائرة بين الناس ، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة ،

وأسباب مؤسسة مستحدثة ، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف

وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر ، والأمر المتقرر

النظم القرآني في سورة الرعد

المتصور ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعاني، والمعاني وفقها لا يفضل أحدهما الآخر فالبراعة أظهر، والفصاحة أثم^(١)، حتى يرتقي الإبداع في النظم إلى طريقة لا يستطيع حذاق الكلام مجاراتها بل لو ضمنوا كلامهم لفظة واحد من غرر الألفاظ القرآنية_ وكل ألفاظ غرر_ لتبين بريقها للناظر وأوغلت في البعد عن أساليبهم المعتادة .

ومثل هذا النهج لا يتحقق إلا في نظم القرآن الكريم . وهذا شاهد على

تلك الخاصية . يقول جل ثناؤه في سورة البقرة : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾

لاحظ لفظة ﴿ حَرْثٌ ﴾ وما لها من مزية في نظم الآية الكريمة فإن وجودها وربطها مع قرينتها، وتعيين موضعها من العبارة تأثيراً في الإيحاء الصوتي، والقيمة والأهمية في أداء المعنى البلاغي، وفخامته وعدوبته، بل لاختيارها على غيرها دلالة على كمال المعنى وتشخيص له .

((إن هذه اللفظة جئ بها لتشبيه النساء بها دون الأرض مثلاً أو الحقل أو الزرع، أو غير ذلك من مترادفات اللغة، ولعل في إثارتها على غيرها لما فيها من لطف الكناية في ذلك التشابه بين صلة الزرع بحرثه، وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص، وبين ذلك النبات الذي يخرج الحرت، وذلك النبات الذي تخرجه الزوجة، وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح . بينما هذه

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص ٤٢ تحقيق أحمد صقر الطبعة الثالثة مطبعة دار المعارف بمصر .

اللطائف لاستفاد من كلمة ((الأرض أو الحقل)) ونحوهما ، فالأرض قد تكون جدباء سبخة لا تصلح للحرث والزرع ، وكذلك الحقل إذ لا يدل على عمل المالك فيه ^(١)))

من أجل تلك المعاني واللطائف أثرت الآية لفظة ﴿حَرَّتْ﴾ على غيرها من مترادفات اللغة التي تدل على المعنى لكنها لاتصل إلى براعة لفظ حرث في مدلولها الواسع وإيحائها وجمال وقعها في النفوس .

وأمثال تلك الفرائد في القرآن كثيرة خذ مثلاً قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۖ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۗ أَلَيْسَتْ كَلِمَةً﴾ عَسَسَ ﴿٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ أليست كلمة ﴿عَسَسَ﴾ توحى بدنو الليل وتهاديه في آفاق الكون وتؤدي هذا المعنى أكثر من لفظة ((قرب أو دنا)) وكذلك تنفس ، أي إشراقه لرواء هذه اللفظة . بجانب ذكر الصبح ، لكان الصباح مخلوق ذو رثة وروح ينفث في الآفاق بصيصاً من النور والإشعاع ، تحسه وتعيشه وتتملاه في قريب وبعيد .



ولو أردنا استقصاء الأمثلة والشواهد على تلك الخاصية لأفضي بنا ذلك إلى الإطالة ، ولكن كما قلنا : ((لا يستعذب التكرار في كلام كما يستعذب في كلام الله تعالى : فأليك مثال آخر على تلك الخاصية : يقول

الحق سبحانه : ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقِبًا﴾ ﴿٧﴾

(١) انظر رسالة في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص ١١٩ ، ١٢٠ .

النظم القرآني في سورة الرعد

إن لفظة ﴿أَسْتَطْعُوا﴾ توحى بحركة الانزلاق السريع كلما حاول القوم اعتلاء سد ذي القرنين وصعوده ، ولفظة ﴿أَسْتَطْعُوا﴾ تعبر عن القوة التي يمارسها القوم لهدم هذا السد أو إحداث خلل فيه . فأى بلاغة وأي نظم تجاري مثل هذا التأليف والأسلوب .

ومما يميز القرآن الكريم ((خلو حروفه مما يخرج الكلمة عن حد الفصاحة فقد تجنب القرآن في تأليف ألفاظه ، وتراكيبه - الحروف المستهجنة مما يجري في لغة الأنباط ، والأعاجم ، والأكراد لما فيها من الركاكة والتواء اللسان ، ومما يجري في لغات بعض العرب على نحو ما روي من كشكشة بني تميم ، وكسكسة بني بكر ، وطمطمانية حمير ، وكالغمغمة في لغة قضاة ، والفرانية والخلخانية في لغة أهل العراق ، وكل هذه اللغات نجد في حروفها عاهة ولكنه ، وقد جاء الكتاب الكريم منزهاً في تأليفه عنها^(١)))

ومن سمات النظم القرآني وفوائده ((مزج المقاصد والأغراض التي يهدف إليها ، وتفريقها في السور الكثيرة ، والطويلة منها والقصيرة ، بالمناسبات المختلفة ، وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة في القلوب ، المحركة للشعور . النافية للسامة والملل من المواظبة على ترتيلها بنغمات نظمه الخاص به ،

(١) انظر الطراز للعلوي الجزء الثالث ص ٢٢١ ، ٢٢٢ لطبعة المقتطف بمصر تصحيح سيد بن علي المرصفي .

وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من الإيحاءات الصوتية التي تحرك في القلب وجدان الخشوع ، والرغبة والرغبة ، والعرفان بكمال الله جل ثناؤه ^(١)))
ولغة القرآن الكريم في مادتها الصوتية تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر ،
وخشونة لغة أهل البادية ، وتجمع - في تناسق محكم - بين رقة الأولى وجزالة
الثانية ، وتحقق الروعة بفضل التوفيق والاتساق البديع .
إنها ترتيب في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماسكاً من النثر وأبعد في
الحسبان من نظم الشعر ، ويتنوع في خلال الآية الواحدة ليجذب نشاط
السامع ، ويتجانس في آخر الآيات لكن لا يختل الجرس العام للوقوفات في كل
سورة ^(٢)))



ومن جملة خصائص النظم القرآني ما أشار إليه الدكتور محمد زغلول
سلام في كتابه ((أثر القرآن في تطور النقد العربي)) فقد أورد عدة
خصائص يتميز بها أسلوب القرآن في التأليف والصياغة نقلاً عن رسالة
((الخطابي)) ((بيان إعجاز القرآن ومما ذكره في هذا الصدد)) . إن
نظرية النظم تقوم على صلة الألفاظ بعضها ببعض في العبارة أو الآية ، وأن
الكلام على هذا الاعتبار ثلاثة أقسام :

(١) انظر الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا الطبعة الثامنة ص ١٤٤ .

(٢) انظر مدخل إلي القرآن الكريم امحمد عبدالله دراز ص ١١٥ الطبعة الثانية طبعة دار القلم بالكويت

- ١ - لفظ حامل .
- ٢ - ومعنى به قائم .
- ٣ - ورباط لها ناظم .

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ولا تري نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلوؤماً وتشاكلاً من نظمه .

وكان من خصائص النظم القرآني إخضاع الألفاظ للسياق ومقتضى الحال ، من ظروف الكلام والمتكلم ، والمعاني التي أريد التعبير عنها . فليس غريب اللفظ - مثلاً - بليغاً في ذاته ، ولا تصح تسمية لفظ بأنه بليغ ، يقول الخطابي : ((وأما ما ذكره من قلة الغريب في ألفاظ القرآن ، بالإضافة إلى الواضح منها فليست الغرابة مما اشترط في حدود البلاغة ، وإنما يكثر)) وحشي الغريب في كلام الأوحاش من الناس ، والأجلاف من حفاة العرب ، الذين يذهبون مذاهب العنجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخير له ، وليس ذلك معدوداً في النوع الأفضل من أنواعه ، وإنما المختار منه النمط الأقصر الذي جاء به القرآن وهو الذي جمع البلاغة والضخامة إلى العذوبة والسهولة .

ولاجتماع تلك الخصائص في النظم القرآني اتسم أسلوبه الفريد بكل صفات الأسلوب من الجمال ، والقوة ، والوضوح . ((وكان من أسرار جمال

التعبير القرآني إشارة الأحاسيس النفسية المختلفة . كالرحمة ، والحب ،
واللذة ، الألم ، والغضب ، والخوف ، والانتقام .

وفي معرض تلك الأحاسيس يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ
الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أفي وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٦٧﴾
وَأخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ (*)

وفي سياق آخر يقول تعالى : ﴿سَمِعُواهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٦٩﴾ تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنْ
الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ (*)

تأمل في الآية الأخيرة لفظة ﴿شَهيقًا﴾ وانظر لجمال الاستعارة وما
أدته من كمال المعاني ، إذ حقيقة ((الشهيق)) هنا الصوت الفظيع
كشهيق الباكي ، فالاستعارة أبلغ منه ، لأن مقدار شدة الغيظ في النفس
تدعوا إلى شدة انتقام في الفعل ، وفي ذلك أعظم الزجر ، من أجل تلك المعاني
يخاطب القرآن الكريم الغرائز الإنسانية ، يستثيرها كاستثارة غريزة الغيظ ،
وشعور الغضب في النفس ، ويخلع تلك الغرائز على النار لتدل على حقدتها

(*) صورة الإسراء .

(*) سورة الملك .

النظم القرآني في سورة الرعد

وتهيؤها للانتقام من الكافرين بابتلاعهم حتى تثبت الخشية ، والرهبنة ،
والخوف في النفوس فتدعن للخير وتبتعد عن المعصية)) (١)

ونلخص من كل تلك الخصائص ((إلى أن القرآن الكريم في أسلوب
تأليفه كان له أثر واسع النطاق في الميدان الأدبي ، ولا بما فيه من أهداف
أخلاقية فحسب ، ولكن بما فيه أيضاً من أسلوب جميل معجز في الجمال أي أن
الصورة الأولى وحدها منه هي التي قامت بدور كبير في تكييف الوضع الفني ،
والاعتبارات الفنية التشكيلية)) (٢)

وطبيعي أن جمال الصورة يتبع جمال جزئياتها في الحرف وتأليفه
واللفظة المفردة ، وانتقائها ووضعها في مكانها اللائق بها ، وفي التراكيب
وأحكامه في الرصف من حيث تلاقي أول منه بأخر .

ومن براعة النظم القرآني ما يسميه البلاغيون : بالتغاير ، والمماثلة ،
والانسجام .

أما التغاير فيعني : مغايرة المعنى مغايرة اللفظ - وهو غير التناقض -

ومثال ما جاء النظم فيه متغائراً بين اللفظ والمعنى قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا

تَقْلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ مَّا نَزَّلْنَا بِكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ فإن معنى هذه الآية

(١) انظر أثر القرآن في تطور النقد العربي للدكتور محمد زغلول سلام الطبعة الثانية دار المعارف بمصر

١٩٦٢ م .

(٢) انظر الأسس الجمالية في النقد العربي للدكتور عز الدين السيد ص ١٨٧ الطبعة الثانية لعام ١٩٦٨ م

طبعة دار النصر بالقاهرة

بهذا النظم يغير قوله تعالى : في نفس المعنى لنظم آخر : ﴿ وَلَا تَقْنَلُوا أَوْلَادَكُمْ

خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ تَحْنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ

ففي الآية الأولى قدم الله تبارك وتعالى - وعده بالرزق للأبناء عن وعده برزق الأبناء ، وفي الآية الثانية يأتي العكس ، وسبب المغايرة بينهما أن الخطاب في الآية الأولى للفقراء بدليل قوله تعالى : ﴿ مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ فاقتضت البلاغة تقديم وعد الأبناء المملقين بما يغنيهم من الرزق ، واقتضت تكميل المعنى بعدة الأبناء بعد عدة الأبناء ليكمل سكون الأنفس ولي يبق لها تعلق بشيء .

وفي الآية الثانية الخطاب للأغنياء بدليل قوله تعالى : ﴿ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾

فإنه لا يخشى الفقر إلا الغني ، أما الفقير ففقره حاصل . فاقتضت البلاغة تقديم وعد الأبناء بالرزق ، ليشير هذا التقديم ، إلى أن الله وحده - هو الذي يرزق الأبناء ليزول ما توهمه الأغنياء ، من أنهم أنهم بإنفاقهم على الأبناء سيصيرون إلى الفقر بعد الغني ، ثم كمل الطمأنينة بعدتهم بالرزق بعد عدة أبنائهم .

وأما المماثلة : فمعناها تماثل ألفاظ الكلام كلها أو بعضها في الزينة دون

التقضية كقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١٠﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿١١﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿١٢﴾ إِنْ كَلَّ

نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْنَا حَافِظٌ ﴿١٣﴾ فالطارق ، والثاقب ، وحافظ ممتثلات في الزينة دون التقضية .

النظم القرآني في سورة الرعد

وقيل : المماثلة تماثل الألفاظ في المعنى مع اختلاف اللفظ .. ويكون مثل

﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُرْفِي إِلَى اللَّهِ ﴾

وأما الانسجام : فهو أن يأتي منحدرًا كمنحدر الماء المنسجم بسهولة

سبك ، وعدوية ألفاظ ، وسلامة تأليف ... وهو على ضربين : ضرب يأتي مع

البديع الذي لم يقصد ، وضرب لا بديع فيه ، فمن الضرب الأول قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُرْفِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

فأنت تري سهولة هذا النظم ، وعدوية هذه الألفاظ ، وما في هذا الكلام من

الانسجام ، مع ما وقع فيه من التعطف . في قوله تعالى ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَأَعْلَمُ ﴾

﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ فإن إنما عدل عن قوله : ﴿ وَأَعْلَمُ ﴾ وهو أوجز من الأول

ليأتي في الكلام تعطف يزيد حسنًا ، وفيه زيادة خضوع ، وترقق مع تمكين

فاصلة الآية .



ومثلها الآية التي بعدها . وهي قوله تعالى : ﴿ يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَبُوا مِنْ

يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

لوقوع التعطف فيها كأول .

ومثال الضرب الثاني من الانسجام - وهو الخالي من البديع - قوله تعالى

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ

غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ (وأكثر آي القرآن من شواهد هذا الباب) (١)

وتلك الخصائص في نظم القرآن الكريم - أعني التغيرات، والمماثلة والانسجام، قد اهتدي إليها البلاغيون بذوقهم المستتير، وأدرجوها تحت اصطلاحاتهم البلاغية، وألحقوها بفضن البديع، ولا شك أن وجودها في النظم القرآني أصل فيه من غير تكلف، ووجودها في كلام غيره، إما عن تكلف، أو غير تكلف لكنه في الحسن دون درجة القرآن.

ومن روائع نظم القرآن: اجتماع الحسن له ((حول حرف واحد في الآية يثير النفس ألواناً من المعاني لا تجدها إذا استبدلت به حرفاً آخر واستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُقَسِّمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِبَشَرٍ أُغْرِبَ سَاعَةً كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهكذا يوم البعث ولكنتكم كتمت لا تعلمون ﴿١٥﴾

ألا تشعر بما حول هذه ألفا من استفهامات تشيرها، فكان الذين أوتوا العلم والإيمان يقولون لمنكري البعث: ألا تزالون مصرين على إنكاره؟ وماذا أنتم فاعلون؟ وكيف تلقون رباً أنكرتم لقاءه)) (٢)؟



(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الأصبغ ص ١٠٦، ١٠٧، ١٦٦ وما بعدها، وإعجاز القرآن البياني

للدكتور حفني محمد شرف ص ٣٦٥.

(٢) من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي ص ٥٦ الطبعة الثانية مطبعة نهضة مصر.

النظم القرآني في سورة الرعد

وبما أن القرآن الكريم قد بلغ الذروة في البلاغة والإعجاز حرفاً ولفظاً وتركيباً فقد حوي في نظمه ((جميع قواعد البيان والبديع دون أن يترك قاعدة واحدة منها ، ولم يستطع بليغ من بلغاء العرب وغيرهم من أمم الأرض أن يصل إلى هذا الكمال مهما كان نبوغه .

ولشدة تماسك أجزاء الآيات وتراكيب الجمل داخلها وتناسق بعضها مع بعض في حسن النظم خيل لبعض من وهم بل غلط حتى قال إن في بعض آيات القرآن شعراً جاء موزوناً مقضي من غير قصد . ولم يكتف بمثل هذا القول الفاسد بل دعاه اجتهاد ه السقيم إلى أن يدخل بعض الآيات أو جملاً منها تحت بحور الشعر فيعد هذه من الطويل وتلك من الوافر ، وأخرى من البسيط .

وما دعاهم إلى ذلك إلا الاتساق بين الألفاظ ، والاتلاف بينها وبين المعاني ، ولا أرى داعياً لذكر ما استشهدوا به من الآيات فحاشا القرآن الكريم أن يخضع في نظمه ، لقواعد الشعر ومصطلحاته ، وأوهام قائله ، وخيالاتهم :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ ﴾ ﴿٣٧﴾ حميداً (١)



(١) راجع إعجاز القرآن للباقلاني ص ٥١ وما بعدها الطبعة الثانية تحقيق أحمد صقر مطبعة دار المعارف بمصر ، وإعجاز القرآن لحنفي محمد شرف ص ٣٦١ ، ٣٦٢ واللغة الشاعرة لعباس العقاد ص ٣٧ .

ومن أرقى خصائص النظم القرآني ((أن الباحث فيه حيثما قلب نظره وجد أسراراً من الإعجاز اللغوي ، منها ما يكمن في نظامه الصوتي البديع بجرس حروفه ، ومقاطع فواصله ، منها ما هو في ألفاظه التي تفي بحق كل معنى في موضعه ، لا ينبو منها لفظ يقال إنه زائد ، ولا يعثر على موضع يقال إنه بحاجة إلى لفظ ناقص ، ومنها ما هو في ضروب الخطاب التي يتقارب فيها أصناف الناس في الفهم ، مع إقناع وإمتاع العاطفة في تكافؤ واتزان ، فلا تطغي قوة أحد هذين على الأخرى ^(١) .))

وأمثلة تلك الظاهرة في نظمه البديع تصدق على جميع سورته الطويلة منها والقصيرة، وخاصة في بعض الآيات التي تستثير العواطف، ويحتكم أسلوبها إلى دعوة العقول للتدبر، والاتعاظ، كأسلوب الوعد والوعيد والترغيب والترهيب .

من أجل خصائص الإبداع في النظم القرآني ، ظاهرة التجدد التي لم يزل القرآن معها حياً متجدداً يفوق طاقة الدارسين ، ولا يزال كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، لا تبديل لكلمات الله ، فمهما سطا على أسلوب القرآن وتأليفه ملحد _ بالتغيير والتبديل _ فإن أسلوبه الطري وتأليفه الرائع لا يمكن من تسول له نفسه وتمنيه ، أن يصل إلى ما يريد وحسبك فشل مدعي النبوات ، ومن سار في ركابهم ممن قلدهم .

(١) انظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٢٦٧ الطبعة الخامسة مؤسسة الرسالة بيروت .

النظم القرآني في سورة الرعد

والقرآن بتلك الخصائص سيبقى المثل الأعلى لكل فن من فنون البيان

الذي اشتهر به العرب ، وهم أهل الفصاحة واللسان .



ومعنى ذلك أن كتاب الله كان مجتمع الخصائص الممتازة التي عرفها

العرب وزاد عليها القرآن الكريم ما أعجزهم عن معارضته ، والإتيان بمثله مع

تحديه البالغ لهم ، بعشر سور ، بل بسورة ، بل بآية أو جملة إذ التحدي عام في

الجميع بدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الآية فقوله بمثل هذا

القرآن دليل على التحدي عامة وكان القرآن نمطاً رفيعاً ، ونظاماً فريداً ، فيه

من القوة والجمال ما قد يخفي على غير أهل الذوق وأرباب البصيرة بالفض

الأدبي .

ولذلك لا يعرف فضل القرآن إلا من كثر نظره ، واتسع علمه وفهم

مذاهب العرب ، وافتنانها في الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع

اللغات ، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة ، والبيان ، واتساع

المجال ما أوتيت العرب)) (١)



(١) انظر البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ص ٣٢ الطبعة السادسة .

والأمر كما يقول ابن قتيبة ((وللعرب المجازات في الكلام ، ومصدر طرق القول ومأخذه ، ففيها الاستعارة والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والتكرار ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ، الكناية ، الإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لعنى العموم ، ولفظ العموم لعنى الخصوص ، وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية ، وترجمت التوراة والزيور ، وسائر كتب الله تعالى بالعربية ، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب .

إنما ذكر ابن قتيبة هذه الفئة لورودها في الكتاب الكريم ولأنه رأى جماعة يطعنون على الكتاب ببعض ما خفي عليهم مما فيه من فنون الأقوال وأساليب الكلام ، فأراد أن يبين أن القرآن نزل بألفاظ العرب ، ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار ، والإطالة ، والتوكيد ، والإشارة إلى الشيء وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللقظ ، وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفي .

ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً ، حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس ، وسقطت المحنة ، وماتت الخواطر ، ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة ، وكل باب من

النظم القرآني في سورة الرعد

أبواب العلم من الفقه والحساب والغرائض والنحو ، فمنه ما يجلب ومنه ما يبدق ليرتقي المتعلم في رتبة بعد رتبة حتى يبلغ منتهاه ، ويدرك أقصاه ولتكون للعالم فضيلة النظر ، وحسن الاستخراج ولتقع المثوبة من الله على حسن العناية .

ولو كان كل فن من العلوم شيئاً واحداً ، ولم يكن عالم ولا متعلم ، ولا خفي ولا جلي ، لأن فضائل الأشياء تعرف بأضدادها ، فالخير يعرف بالشر ، والنفع بالضر ، والحلول بالمر ، والقليل بالكثير ، والصغير بالكبير والباطل بالظاهر ((^(١))



وبعد ، فقد طال بي السير في صحبة هذه السورة الكريمة ، والتأمل فيما اشتملت عليه من آيات الروعة والإعجاز . ومع ذلك أشعر بأنني أمام هذا الفيض الزاخر من آيات الحسن والإبداع الذي يمتاز به كلام الله العلي القدير وكأنني أمام بحر لا شاطئ له ، كلما حسبت أنني وصلت إلى المراد من هذه الرحلة الطويلة ألفتني في شوق إلى الاستزادة من هذا المعين الذي لا ينضب . ولكن لكل شيء غاية وأمداً ينتهي إليه . وقد بذلت من الجهد ما رأيت أن ثمرته تكفي لتكون معلماً من معالم عظمة (النظم القرآني) وروعته أسرار إعجازه . وكان أهم ما توجهت إليه العناية في هذه الدراسة :

(١) انظر تاويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٦٢ طبعة دار إحياء الكتب بالقاهرة ١٩٥٤ م .

١ - الإبانة عن معنى النظم ومفهومه عند أصحاب اللغة ، وعند علماء البيان الذين عرضوا له ، وارتضوه أهم وجه من وجوه إعجاز الكتاب الكريم . وأشرت إلى سائر وجوه الإعجاز لبيان منزلة هذا الوجه منها وذلك ما تضمنه الفصل الأول من هذه الدراسة .

٢ - ثم تناولت النظم في سورة الرعد ، فاحصاً عن عناصر هذا النظم في جزئياتها وكلياته مبتدئاً بالألفاظ المفردة ، ومشيراً إلى اختلاف العلماء والنقاد في تقدير قيمة اللفظ المفرد ، وانتهيت إلى مظاهر إحكام التأليف في هذه السورة وفقاً لمقتضيات المعاني التي تضمنتها . وكذلك بحثت عن مظاهر التلاؤم والائتلاف بين أجزاء النظم في هذه السورة ، وعن الفواصل ونسقتها وأكثر الحروف التي بنيت عليها هذه الفواصل وخصائص كل منها ولم تفتني الإشارة إلى اختلاف العلماء حول ورود ((السجع في القرآن وإيثارهم لفظة ((الفاصلة)) على لفظة ((السجع)) وأدليت بوجهة نظري في ذلك الاختلاف وبسطت الرأي الذي اطمئن إليه .

وكان البحث في هذه المسائل موضوع الفصل الثاني .

٣ - ثم خصصت الفصل الثالث لدراسة التصوير البياني في سورة الرعد وتعرضت للآيات التي تعالج أهم الأغراض فيها والمعاني التي وردت للإبانة عنها ، عن متانة الأداء ودقته وروعته في التعبير عن هذه المعاني .

النظم القرآني في سورة الرعد

٤ - ثم عمدت إلى شيء من الموازنة بين خصائص النظم في هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن مشيراً إلى خصائص المفردات والتراكيب والمعاني ونسق الفواصل ، وذلك حتى أستطيع وصل هذه السورة الكريمة بسور القرآن الكريم وذلك ما تضمنه الفصل الرابع .

وإذا كنت قد أشرت إلى شيء من الجهد الذي بذلته في الدراسة في هذه الكلمات السريعة التي تقتضيها هذه الخاتمة الموجزة فإني أري أن هذه الإشارة لا تكفي عن الرجوع إلى ما فصلته في تلك الفصول ، وما ناقشته من الآراء ، وما استخرجته من بدائع النظم القرآني في هذه السورة ، وما بسطته من آراء اطمأنتت إليها بما وسعني من المعرفة والذوق الفني .

ومع كل هذا لا أستطيع أن أزعم أنني قلت كل شيء فإني كما ذكرت في تقديم هذه الرسالة قد اجتهدت ما وسعني الاجتهاد وحسبي أنني مهدت الطريق لمن يريد أن يخوض هذا الخضم الزاخر باحثاً عن لآئنه التي حاولت أن أفتح شيئاً من أصدافها .

ويستطيع الذين تتاح لهم السبيل للغوص على أسرار الجمال في النظم القرآني أن سلكوا الطريق التي سلكت ، ولعلمهم يوفقون إلى ما هو خير منه ، في خدمة كتاب الله تعالى حتى تتكامل هذه الدراسة الفنية للقرآن الكريم الذي هو المعجزة الكبرى لنبيينا محمد صلى الله عليه وسلم ومجتمع شريعتنا وأحكام

ديننا الحنيف .. والذي هو منطلق الآداب السامية الرفيعة ، وقواعد السلوك التي ينبغي أن يتحلى بها من يريد خير الدنيا والآخرة .
ولا أحب أن أثنى عنان القلم قبل أن أزجي الشكر خالصاً لأستاذي الدكتور بدوي طبانة على حسن رعايته وعنايته بهذا الجهد وصاحبه فجزاه الله خير الجزاء وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



ثبت المراجع

- ١ - الإتيقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي المطبعة الأزهرية بمصر -
الطبعة الثانية - ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ م .
- ٢ - أثر القرآن في تطور النقد العربي : الدكتور - محمد زغلول سلام -
المعارف بمصر - الطبعة الثانية - ١٩٦١ م .
- ٣ - أساس البلاغة : جار الله محمود بن عمر الزمخشري طبعة دار صادر -
بيروت ١٣٨٥ هـ
- ٤ - الأسس الجمالية في النقد العربي : الدكتور عز الدين سيد - مطبعة دار
النصر - القاهرة . الطبعة الثانية . ١٩٦٨ م .
- ٥ - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز : عز الدين عبد العزيز ابن عبد
السلام مطابع دار الفكر - دمشق . الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة
- ٦ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : محمد الأمين الشنقيطي مطبعة
المدني . ١٣٨٦ هـ
- ٧ - إعجاز القرآن البياني : الدكتور - حفني محمد شرف مطابع الأهرام . ١٣٩٠
هـ . ١٩٧٠ م .
- ٨ - إعجاز القرآن : محمد بن الطيب الباقلائي مطبعة دار المعارف بمصر .
الطبعة الثالثة . ١٩٧٢ م تحقيق أحمد صقر

- ٩- إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعي مطبعة الاستقامة القاهرة الطبعة .
الثانية . ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م .
- ١٠- الإعجاز البياني : الدكتورة . عائشة عبد الرحمن ((بنت الشاطئ))
مطبعة دار المعارف بمصر . الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م .
- ١١- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال أحمد محمد بن المنير .
السكندري المالكي طبعة دار الفكر . بيروت
- ١٢- بحث جديد عن القرآن : محمد صبيح طبعة دار العامة _ القاهرة الطبعة
السادسة .
- ١٣- بديع القرآن : عبد العظيم بن عبد الواحد المعروف ((بابن أبي الإصبع))
مطبعة دار نهضة مصر - الطبعة الثانية - تحقيق حنفي محمد
شرف .
- ١٤- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي مطبعة الحلبي _ الطبعة
الثانية - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ١٣٩١ هـ .
- ١٥- البلاغة تطور وتاريخ : الدكتور _ شوقي ضيف مطبعة دار المعارف بمصر _
الطبعة الثانية .
- ١٦- بيان إعجاز القرآن : حمد بن محمد الخطابي مطبعة دار المعارف _ الطبعة
الأولى - تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام .

النظم القرآني في سورة الرعد

- ١٧- البيان العربي : الدكتور بدوي طبانة المطبعة الفنية الحديثة بمصر -
الطبعة الرابعة - ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .
- ١٨- البيان والتبيين : عمرو بن بحر الجاحظ طبعة دار الفكر .
- ١٩- تأويل مشكل القرآن : عبد الله بن مسلم بن قتيبة مطبعة الحلبي _ شرح
وتحقيق أحمد صقر .
- ٢٠- التبيان في علم القرآن المطلاع على إعجاز القرآن : كمال الدين أبو المكارم
عبد الواحد المعروف بابن الزملكاني مطبعة العاني _ بغداد _ الطبعة
الأولى _ ١٣٨٣هـ تحقيق أحمد مطلوب وخديجه الحديثي .
- ٢١- التبيان في شرح الديوان : ضبط وتصحيح مصطفى السقاء وإبراهيم
الإياري - وعبد الحفيظ شلبي - مطبعة الحلبي ١٣٩١هـ .
- ٢٢- التصوير الفني في القرآن : سيد قطب طبعة سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م
- ٢٣- التعبير الفني في القرآن : الدكتور - بكري الشيخ أمين مطبعة دار
الشروق - الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ .
- ٢٤- التعابير القرآنية والبيئة العربية : ابتسام مرهون الصفار الطبعة الأولى
- مطبعة الآداب النجف _ ١٣٨٧هـ _ ١٩٦٧م .
- ٢٥- تفسير أبي السعود : أبو السعود محمد العمادي الحنفي مطبعة السعادة
بمصر - تحقيق عبد القادر أحمد عطا .

- ٢٦- التفسير البياني : الدكتورة _ عائشة عبد الرحمن ((بنت الشاطيء))
مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٢م .
- ٢٧- تفسير الطبري ، جامع البيان في تفسير القرآن : محمد بن جرير الطبري
طبعة دار المعرفة بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
- ٢٨- تفسير الفخر الرازي : للإمام الفخر الرازي المطبعة البهية - بمصر -
الطبعة الأولى ١٣٥٧هـ _ ١٩٣٨م .
- ٢٩- تنوير المقياس من تفسير ابن عباس : لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروز
أبادي - مطبعة الاستقامة - القاهرة ١٣٨٠هـ .
- ٣٠- تهذيب اللغة : أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى تحقيق إبراهيم
الابيارى . دار الكتاب العربي ١٩٦٧م مطابع سجل العرب القاهرة
- ٣١- التيارات المعاصرة في النقد الأدبي : الدكتور . بدوي طباعة مطبعة لجنة
البيان العربي . الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م .
- ٣٢- الجمان في تشبيهات القرآن : عبد الله بن محمد المعروف بابن نايقا
البغدادي المطبعة العصرية بالكويت _ الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ تحقيق
عدنان محمد زرزور _ ومحمد رضوان الدايه .
- ٣٣- جمهرة اللغة : محمد بن الحسن بن دريد الطبعة الأولى _ الناشر مكتبة
المتني - ببغداد .

النظم القرآني في سورة الرعد

٣٤- الحيوان : عمرو بن بحر الجاحظ _ مطبعة شركة الكتاب اللبناني بيروت

الطبعة الأولى - ١٣٨٧ هـ تحقيق فوزي عطوي .

٣٥- درر البيان في تفسير أمثال القرآن : محمد بن أبي بكر المعروف ((بابن

القيم)) المطبعة العربية بمكة المكرمة .

٣٦- دفاع عن البلاغة : أحمد حسن الزيات مطبعة الاستقلال _ الطبعة الثانية

١٩٦٧ م .

٣٧- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني طبعة الموسوعات بمصر _ الناشر

محمد رشيد رضا .

٣٨- رسالة في إعجاز القرآن : الدكتور _ مصطفى مسلم ١٣٩٣ هـ _ ١٩٧٣ م .

٣٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : شهاب الدين محمود

الألوسي مطبعة إحياء التراث العربي بيروت .

٤٠- سر الفصاحة : عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي مطبعة

محمد علي صبيح _ ١٣٨٩ هـ شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي .

٤١- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن : محمد الصادق عرجون الدار

السعودية للنشر _ جدة _ الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ .

٤٢- سورة الرعد - دراسة أدبية وفكرية ولغوية : عبد الرحمن حنبكة الميداني

الطبعة الأولى - ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م .

٤٣- شروح التلخيص :لسعد الدين التفثا زاني وابن يعقوب المغربي وبهاء الدين

السبكي مطبعة الحلبي .

٤٤- الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها : لأبى الحسين أحمد ابن

فارس - مطابع بدران بيروت _ تحقيق مصطفى الشويمى .

٤٥- الصبغ البديعى فى اللغة العربية : الدكتور _ أحمد موسى _ الناشر دار

الكتاب العربى ١٣٨٨هـ _ ١٩٦٩م .

٤٦- الصحاح :إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطا -

مطابع دار الكتاب العربى بمصر ١٣٧٧هـ .

٤٧- الصناعتين : أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله مطبعة الحلبي -

الطبعة الثانية - تحقيق على البجاوى ومحمد أبى الفضل إبراهيم .

٤٨- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة

العلوى . مطبعة المقتطف بمصر ١٩١٤م تصحيح سيد بن على المرصفي

٤٩- عبد القاهر الجرجاني وجهوده فى البلاغة العربية : الدكتور - أحمد

أحمد بدوى - الطبعة الثانية _ الناشر مكتبة مصر .

٥٠- غرائب القرآن ورفائب الفرقان : الحسن بن محمد النيشابورى مطبعة دار

المعرفة - بيروت ١٣٩٢هـ .

٥١- فى ظلال القرآن : سيد قطب الطبعة الثالثة _ دار إحياء التراث العربى _

بيروت .

النظم القرآني في سورة الرعد

- ٥٢- في الميزان الجديد : الدكتور _ محمد مندور دار نهضة مصر للطباعة والنشر ١٩٧٣ م .
- ٥٣- القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الطبعة الثانية - مطبعة الحلبي ١٣٧١ هـ _ ١٩٥٢ م .
- ٥٤- قدامة بن جعفر والنقد الأبى : الدكتور . بدوي طبانة المطبعة الفنية الحديثة بمصر - الطبعة الثالثة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- ٥٥- القرآن العظيم هدايته وإعجازه : الدكتور محمد الصادق عرجون الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
- ٥٦- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاوياء في وجوه التأويل : جار الله محمود بن عمر الزمخشري طبعة دار الفكر بيروت .
- ٥٧- لسان العرب : جمال الدين محمد منظور مطبعة دار صادر بيروت .
- ٥٨- اللغة الشاعرة : عباس محمود العقاد مطبعة الاستقلال _ القاهرة .
- ٥٩- مباحث في علوم القرآن : مناع خليل القطان مطبعة مؤسسة الرسالة . بيروت الطبعة الخامسة _ ١٣٩٨ هـ .
- ٦٠- المثل السائر : ضياء الدين نصر الله محمد بن الأثير مطبعة الحلبي _ تحقيق محي الدين عبد الحميد _ ١٣٥٨ هـ .
- ٦١- مدخل القرآن الكريم : الدكتور _ محمد عبد الله دراز _ طبعة دار القلم الكويت - الطبعة الثانية .

- ٦٢- مشاهد القيامة في القرآن : سيد قطب طبعة بيروت .
- ٦٣- معترك الأقران : جلال الدين السيوطي طبعة دار الفكر العربي .
- ٦٤- المعجم الوسيط : إخراج _ إبراهيم مصطفى _ أحمد حسن الزيات _
حامد عبد القادر . محمد علي النجار .
- ٦٥- المغني : عبد الجبار الهمداني الاستربادي مطبعة دار الكتب بمصر _
الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م .
- ٦٦- من بدائع النظم القرآني : الدكتور . السيد عبد الفتاح حجاب مطبعة
الجندي .
- ٦٧- من بلاغة القرآن : الدكتور _ أحمد أحمد بدوي مطبعة نهضة مصر
الطبعة الثانية ١٩٥٠م .
- ٦٨- من منهل الأدب الخالد : محمد المبارك طبعة دار الفكر بدمشق . الطبعة
الثانية - ١٣٨٣هـ .
- ٦٩- النبأ العظيم : محمد عبد الله دراز طبعة دار القلم الكويت - الطبعة
الثالثة - ١٣٩٤هـ .
- ٧٠- نظرية عبد القاهر في النظم : الدكتور . درويش الجندي مطبعة الرسالة
- ١٩٦٠م .
- ٧١- ند الشعر : قدامه بن جعفر طبعة دار السعادة _ القاهرة _ تحقيق كمال
مصطفى - ١٩٦٣م .

النظم القرآني في سورة الرعد

٧٢- النكت في إعجاز القرآن : على بن عيسى الرماني ضمن ثلاث رسائل في

إعجاز القرآن للخطابي والروماني وعبد القاهر الجرجاني مطبعة دار

المعارف بمصر - الطبعة الأولى - تحقيق محمد خلف الله ومحمد

زغلول سلام .

٧٣- الوحي الحمدي : محمد رشيد رضا الشركة المتحدة للتوزيع _ بيروت

الطبعة الثامنة .



فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة :
٥	موضوع البحث - أهميته - منهجه - خطة الدراسة
١١	تمهيد :
	الدراسات القرآنية ومظاهر العناية بها قديماً وحديثاً
٢٩	الفصل الأول :
	معنى النظم - بعض وجوه إعجاز القرآن - النظم وجه من وجوه الإعجاز استعراض طائفة من أقوال العلماء في ذلك - فكرة النظم عند عبد القاهر الجرجاني معناها - ومفهومها
٧٣	الفصل الثاني :
	عناصر النظم في سورة الرعد - الألفاظ المفردة وقيمتها - الاختلاف في تقدير اللفظ المفرد - التركيب وأحكامه وفقاً لمقتضيات المعاني - مظاهر التلاؤم بين أجزاء النظم في سورة الرعد - نسق الفواصل في سورة الرعد - أكثر الحروف التي بنيت عليها هذه الفواصل وخصائص
١٦٣	الفصل الثالث :
	التصوير البياني في سورة الرعد - حصر لبعض الآيات التي تعالج غرضاً واحداً - المعاني التي أدت هذه الأغراض كيف عبر عن هذه المعاني
٢٢٥	الفصل الرابع :
	خصائص النظم بين سورة الرعد وغيرها من سور القرآن الكريم دراسة لبعض الألفاظ القرآنية، والتراكيب، والمعاني، والفواصل، وخصائص هذه العناصر
٢٩٥	المراجع